المؤرخ المصرى

دراسات وبحوث فى التاريخ والحضارة



يصدرها قسم التاريخ
كلية الآداب - جامعة القاهرة
العدد العشرون يوليو ١٩٩٨

محتوى العـــدد

جامعة القاهرة

كلية الآداب

يصدرها قسم التاريخ

المؤرخ المصري

دراسات وبحوث تاريخية محكمة

العدد التاسع عشر

يناير ١٩٩٨

أولاً : البحوث والدراسات :

- بيت المقدس عند ياقوت الحموى فى كتابه معجم البلدان .

د. إبراهيم بن محمد الحمد المزينى

- دور البصرة في الحركة الإباضية في القرنين الأول والثاني الهجريين « دراسة تاريخية في ضوء السير العمانية » . **د. حوريه عبده سلام**

- الموضوعية والأمانة فى وصف الرحالة الأجانب للإسكندرية فى العصور الوسطى.

د. سهير محمد إبراهيم نعينع

- النظام النقدى فى الدولة الإسلامية وأثره فى تطور السوق .

د. على منصور نصر

- الأحوال العسكرية فى العراق والشام إبان الحرب العالمية الأولى فى ضوء وثائق لجنة الدفاع الأمبريالى . **د. محمد حسن العيدروس**

- المصادر المصرية لتاريخ الكويت فى القرن العشرين .

د. محمد عفيفى

- تطور الأسطول العثماني في ظل أبرز الحضارات البحرية للبحر المتوسط .

د. نبيل عبد الحي رضوان

ثانيا : عرض الكتب :

Amon Cohen :

- JEWISH LIFE UNDER ISLAM - JERUSALEM IN THE SIXTEENTH CENTURY,

« حياة اليهود تحت حكم الإسلام - أورشليم فى القرن السادس عشر »

عرض وتحليل : أ. د. سيد أحمد على الناصرى

قواعد النشر

- ترحب المؤرخ المصرى بنشر الأبحاث والدراسات الأصلية ذات المستوى الأكاديمى الجاد بعد التحكيم ، فضلاً عن مراجعات وعرض الكتب الجديدة .

- تقبل المؤرخ المصرى للنشر الأبحاث التاريخية والحضارية المكتوبة باللغتين العربية والإنجليزية على ألا يزيد عدد صفحات البحث أو المقال عن ٣٠ صفحة مطبوعة على الآلة الكاتبة على ورق حجم كوارتر بما فى ذلك الهوامش والجداول وقائمة المراجع .

- المؤرخ المصرى لا تنشر بحوثًا سبق أن نشرت أو معروضة للنشر فى مكان آخر ، وتقوم رئاسة التحرير بإخطار المؤلفين بإجازة بحوثهم للنشر بعد عرضها على هيئة التحكيم .

- تحتفظ المؤرخ المصرى لنفسها بحق القبول أو رفض الأبحاث أيا كان قرار هيئة التحكيم .

- النشر فى المؤرخ المصرى متاح لأعضاء هيئة التدريس بالجامعات المصرية والعربية والأجنبية وسائر المهتمين بالدراسات التاريخية .

- الآراء الواردة بالمؤرخ المصرى تعبر عن وجهة نظر أصحابها .

المؤرخ المصرى

العدد العشرون | يوليو ١٩٩٨

المراسلات :

ترسل البحوث والمقالات باسم السيد الأستاذ الدكتور/ **حامد زيان غانم** رئيس التحرير على العنوان التالى :

كلية الآداب – جامعة القاهرة (قسم التاريخ)

بريد الأورمان – محافظة الجيزة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

افتتاحية العدد

يسعدنى أن أقدم لقراء المؤرخ المصرى العدد العشرين والذى يضم بين دفتيه مجموعة قيمة من البحوث والدراسات التاريخية فى مختلف فروع التاريخ .

وإنى انتهز هذه الفرصة لكى أؤكد على أن المؤرخ المصرى يعمل بكل طاقته من أجل تطور الدراسات التاريخية وتقديم البحوث الجادة والجديدة .

خالص شكرى وعظيم تقديرى إلى كل من ساهم فى هذا العدد سواء من الباحثين أو المحكمين أو أعضاء هيئة التحرير .

ويؤسف المؤرخ المصرى أن ينعى أستاذاً بارزاً وعالمـاً جليلاً هو المؤرخ الأستاذ الدكتور/ عبد اللطيف أحمد على أستاذ التاريخ القديم بقسم التاريخ بكلية الآداب جامعة القاهرة رحمه الله رحمة واسعة وأدخله فسيح جناته .

والله من وراء القصد .

رئيس التحرير

أ. د. حامد زيان غانم

البحوث والدراسات

بيت المقدس عند ياقوت الحموى
فى كتابه معجم البلدان

د. إبراهيم بن محمد الحمد المزيني
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية
كلية العلوم الاجتماعية - قسم التاريخ والحضارة

المقدمــة :

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آلـه وصحبه الطيبين الطاهرين وعنا معهم إلى يوم الدين ... أما بعد :

فقد كانت معرفتى بكتاب ياقوت الحموى المتوفى سنة ٦٢٦ هـ (١٢٢٨م) والموسوم بـ « معجم البلـدان » منـذ أن كنـت طالبًـا فـى المرحلـة الجامعيـة حيـث اعتمدت عليه مصدرًا من مصادر البحـوث الصفيـة فـى تلـك المرحلـة ؛ وازدادت معرفتى بهـذا الكتـاب بعـد أن تخرجـت وتوجهـت إلى التخصـص فـى الدراسـات التاريخية والحضارية ، وازددت عمقًا به واستفادة منـه فـى مرحلتـى : « الماجستير والدكتوراه) وكنت أظن فى بداية الأمـر أن هـذا الكتـاب مجـرد معجـم جغرافـى بلدانى يهتم بسرد الأماكن ويحدد مواقعها وأسماءها ، ولكن بعد اسـتقرائه والتمعـن بـه تبين أنه يشكل نمطًا فريدًا فى سلسلة كتب البلدان إذ أنه يعد مرجعًا مهمًـا فـى التـاريخ والرجـال والأدب واللغـة والنثر والشعر واشتقاق الأسمـاء ، لـذا فهـو مصـدر مهـم لاشتماله على علوم مختلفة لا يستغنى عنها طلبة العلم مهما كانت تخصصاتهم .

وقد نال هذا الكتاب شهرة واسعة واحتل بـه صاحبـه مكانـة مرموقـة عنـد العلمـاء الذيـن جـاءوا بعـده وأصبـح مرجعًـا لدراسـاتهم ، وتولـوه بشـروحاتهم واختصاراتهم وازدادت هذه الشهرة عند علماء الغرب المستشـرقين الذيـن اهتمـوا بهذا الكتاب منذ فترة مبكرة ، فطبعوه لأول مرة فى ليبزج بألمانيـا عـام (١٨٦٦م) بعناية المستشرق (فرديناند فسـتنفيلد) فـى أربعـة أجـزاء كـبيرة واثنـين للفهـارس والحواشى ، معتمدًا على خمس نسخ من أصول الكتاب ، كما طبـع الكتـاب مـرة

أخرى فى القاهرة سنة ١٣٢٣ - ١٣٢٤هـ وقد تولى ذلك الأستاذ محمد أمين الخانجى ، وصدر فى ثمانية أجزاء وهذه الطبعة مأخوذة عن الطبعة الأوربية ، ثم طبع ثالثة فى بيروت سنة ١٣٩٧هـ وصدر فى خمسة مجلدات عن دار صادر . وتتابعت بعد ذلك طباعته وتنقيحه بصور متعددة .

لكن مما يذكر هنا وضمن هذه المقدمة ، وقبل أن أتحدث عن هذا الكتاب وأهميته بالنسبة للبحث يجدر بنا أن نتعرف ، ولو بشكل مختصر - على مؤلفه والبيئة التى نشأ فيها ، وعلى العصر الذى عاش فيه ياقوت حتى نكون على إطلاع بأهمية هذا العصر الذى ألف فيه الكتاب ، وقيمته التاريخية باعتباره مصدرًا مهمًا لهذا العصر .

أما ياقوت فهو : أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله ، الرومى الجنس والمولد ، الحموى المولى ، البغدادى الدار ، الملقب شهاب الدين ، أصله من بلاد الروم ، وقيل ولد فى بلاد الروم سنة أربع أو خمس وسبعين وخمسمائة . ولا تذكر المصادر التى بين أيدينا شيئًا عن بلده أو أسرته وأبيه . والذى نعلمه أنه حمل إلى بغداد أسيرًا فابتاعه تاجر اسمه (عسكر الحموى) وكان من سكان بغداد ، وأطلق عليه اسم (ياقوت) وهو من أسماء الرقيق ، ولما كان اسم أبيه مجهولاً أطلق على أبيه عبد الله، وأخذ من مولاه اسم (الحموى)(١) ، وقد طاف ياقوت الحموى أنحاء واسعة من هذه المعمورة ، ومر بكثير من البلاد فكتب عن مظاهر الحياة فيها وعن شعوبها وحكامها ، وأمدنا بصورة حية عن جوانب عديدة شاهدها بنفسه ولمسها خلال رحلاته أو مقامه فى كثير من تلك البلاد ، فتمكن من تسجيل هذا الكتاب الذى يعد بحق وثيقة تاريخية مهمة لما يحويه من مادة علمية قيمة وغزيرة رصدها شاهد عيان دقيق الملاحظة واضح العبارة عميق المعنى .

أما عصره : فقد عاش ياقوت : فى الفترة ما بين سنتى (٥٧٤هـ و ٦٢٦ هـ) وتتوافق هذه الفترة مع آخر العهد العباسى الثانى الذى بدأ سنة (٢٣٢ هـ / ٨٤٦م) . وانتهى بسقوط الدولة العباسية فى يد المغول وذلك سنة (٦٥٦هـ/

١٢٥٨م) . ويتميز هذا العصر بالتفكك الذى أصاب الخلافة الإسلامية الكبرى ، وقيام العديد من الدويلات المتنافسة المنفصلة عن الخلافة ، وفى مقدمة تلك الدويلات : (دولة السلاجقة ، والدولة الخوارزمية ، والدولة الزنكية ، والدولة الأيوبية) . إضافة إلى عديد من الممالك والإمارات والأتابكيات التى انتشرت فى كثير من المناطق الإسلامية .

هذه حال العصر الذى عاش فيه ياقوت ، فالخلافة العباسية ممزقة ، والدولة السلجوقية هى الأخرى وصلت إلى مرحلة من الضعف والإنهاك وازدادت الانقسامات بين سلاطينها وأتباعها ، والدولة الزنكية بلغت أيضًا درجة من الضعف والفرقة بعد وفاة فارسها نور الدين محمود بن زنكى ، والدولة الأيوبية دب فيها الضعف والفرقة بين سلاطينها وأنهكتها الحروب المستمرة مع الصليبيين ، أما الدولة الخوارزمية فكان بلاؤها أشد لأن التتار (المغول) بدأوا بها وأذاقوها الهزائم تلو الهزائم حتى أسقطوها ، تلا ذلك إسقاط الخلافة العباسية نفسها فى بغداد سنة ٦٥٦ هـ (١٢٥٨م) .

وكان خروج التتار (المغول) قد اتفق مع وجود ياقوت فى مرو ، لذا فإن الفترة الزمنية التى عاشها ياقوت تتفق مع بداية خروج التتار إلى بلاد الإسلام . وذلك فى سنة ٦١٥هـ (١٢١٨م) عندما هاجموا المدن الواقعة خلف نهر جيحون مثل بخارى وسمر قند . وكان مجيئهم نكبة كبيرة للمسلمين فى بلاد المشرق ولغير المسلمين أيضًا ، حيث توالت أفواج التتار على بلاد المسلمين حتى أزالوا الخوارزمية فى المشرق ، ثم الدولة العباسية فى بغداد . وقد عاثوا فى بلاد المسلمين الفساد والخراب والدمار وسفك الدماء ، فكان عدم الاستقرار وفقدان الأمن والطمأنينة سمة مميزة لهذا العصر الذى عاشه ياقوت . وليس أدل على ذلك من تصويره للواقع الذى عاش فيه خلال إقامته فى مدينة مرو حين قال : « ولولا ماعرا من ورود التتر إلى تلك البلاد وخرابها لما فارقتها إلى الممات لما فى أهلها من الرفد ولين الجانب وحسن العشرة وكثرة كتب الأصول المتقنة بها »(٢) ، ويشير

سيد أمير على إلى الآثار المدمرة لغارة المغول وقضائها على الحياة العقلية فى بعض أرجاء العالم الإسلامى(٣) ، كما يذكر القفطى نص الرسالة التى بعثها إليه ياقوت حين خرج من مرو وخوارزم قادمًا إلى العراق ، فالشام والتى يصف الحال التى كان عليها حين خروجه خوفًا من التتار أنه « من بين سيوف مسلولة . وعساكر مغلولة ونظم محلولة ودماء مسكوبة مطلوبة »(٤) ، ومع ذلك وبرغم فقدان الأمن والطمأنينة فقد خرج ياقوت عما هو مألوف فى عصره فخطا بالتأليف الجغرافي خطوات رائدة إلى الأمام وكان ذلك بتأليفه هذا المعجم .

أما كتابه معجم البلدان : فقد أسماه مؤلفه : « معجم البلدان » وقال فى ذلك : « ... وسميته : معجم البلدان ، اسم مطابق لمعناه »(٥) ، وذكر فى مقدمته سبب تأليفه هذا الكتاب ، ورتبه على حروف أبجدية ترتيبًا دقيقًا بحيث راعى جميع حروف الكلمة وليس أول حرف منها فقط لتسهيل المراجعة والفائدة من الكتاب، وقبل الشروع فى أصل الكتاب كتب ياقوت مقدمة اشتملت على سبب تأليف الكتاب ، وموارده فيه ، والمنهج الذى سلكه ؛ ثم ذكر خمسة أبواب مهمة فى جغرافية البلدان ؛ ثم استرسل ياقوت فى ذكر البلدان حسب منهجه فى الترتيب .

وقد سجل ياقوت فى هذا الكتاب تاريخ عصره تسجيلاً دقيقًا كما رآه وشاهده إذ لم يؤلفه إلا بعد أن جال وارتحل إلى كثير من بلدان العالم الإسلامى من أقصاه إلى أقصاه . كما كتب ياقوت عن العصور السابقة معتمدًا على المرجع وكتب السابقين وأقوال الرواة وهو يعرض مادته العلمية بالأسلوب الذى يلائمها مع التصوير الدقيق بلا تكرار أو غموض .

وقد انفرد ياقوت بإيراد روايات مفصلة ومعلومات قيمة عن القوى الإسلامية التى حكمت معظم بقاع العالم الإسلامى ، فأورد نبذًا عن كثير من الأسرات الحاكمة وجوانب من علاقاتها السياسية فيما بينها من ناحية ، وفيما بينها وبين القوى المجاورة من ناحية أخرى .

وكما كتب عن تاريخ المدن والمواقع الإسلامية والغزوات والحروب والدول المعاصرة مثل الفاطمية والبويهية والسلاجقة والزنكية والأيوبية ، فقد كتب عن سيرته وحياته ورحلاته الخاصة .

وهو يؤرخ للأدب أيضًا فيشير إلى أعمال الرجال ومؤلفاتهم ويكتب عن المجالس الأدبية التى دارت رحاها فى حلب وبغداد وغيرها . ولا ينحرف فى كتابته التاريخية عن الأسلوب المرسل مع التركيز على الحقائق وطرح الخيال إلا فى المواقف التى ينفعل لها . لأنه أولاً وآخرًا يسجل ويؤرخ لماضيه ولقد وصفه الأستاذ على أدهم فى كتابه « بعض مؤرخى الإسلام » بالمؤرخ الجامع وأرجع ذلك إلى سعة إطلاعه وكثرة تحصيله(٦) ، كما قال عنه كراتشكوفسكى أنه أفضل مصنف من نوعه لمؤلف عربى للعصور الوسطى ، وأنه جماع للجغرافيا فى صورها الفلكية والوصفية واللغوية والرحلات ، كما أنه تنعكس فيه الجغرافيا التاريخية إلى جانب الدين والحضارة والأنثروبولوجيا (علم الأجناس والفصائل البشرية) والأدب الشعبى والأدب الفنى ، وذلك فى القرون الستة الأولى للهجرة(٧) .

وقد عرف طلبة العلم عن ياقوت من خلال كتابه (معجم البلدان) أنه بلدانى التخصص ألف هذا الكتاب فى البلدان وجعله متممًا لما ألف قبله فى هذا العلم ، وأنه اهتم بتحديد المواقع الجغرافية لبلدان العالم الذى عاصره ، وركز على أبعادها وأسمائها ، ولكن مما يخفى على كثير من الباحثين أن ياقوت الحموى بكتابه هذا عد من المؤرخين البارزين حيث سجل فيه كثيرًا من الأخبار التاريخية المهمة والتى جاءت ضمن حديثه عن المواقع والبلدان وبخاصة تلك الأحداث التى عاصرها وأعنى بها أخبار الحروب الصليبية ، والغزو المغولى لكثير من بلاد المسلمين ، بل إننى ومن خلال الموازنة تأكد لى انفراد ياقوت بذكر كثير من الأخبار التى ربما غفل عنها المؤرخون المحترفون ، وربما بعضهم ممن عاصر هذه الأحداث .

ومن هنا فإن هذه الدراسة تأتى محاولة لإلقاء الضوء على هذا الجانب المهم من آثار ياقوت الحموى ، وهو جانب لم يدرس - فيما أعلم - ويحتاج إلى مزيد من العناية والدرس ، وأعنى به الجانب التاريخى فى كتابه (معجم البلدان) ، وبالتحديد : ما يتعلق بأخبار بيت المقدس . ليكون موضوعًا تحت عنوان : «أخبار بيت المقدس عند ياقوت الحموى فى كتابه معجم البلدان » .

ومما يشار إليه هنا أن آثار ياقوت التاريخية ومروياته - وبخاصة فى زمن معاصرته للأحداث - تبلغ درجة عالية من الصحة والواقعية فى كثير من الأحيان ، بل إنه يكاد ينفرد بذكر كثير من الأحداث التاريخية المهمة والتى يغفل عنها المحترفون من المؤرخين المعاصرين لها ، إذ تمتزج المعلومات التاريخية عند ياقوت الحموى فى معجمه كثيرًا بالمعلومات الجغرافيا والبلدانية ، فعلى الرغم من إتباع ياقوت منهج الترتيب الهجائى فى ذكر البلدان والتعريف بها وبمواقعها وأطوالها ، وعدم إبرازه للأحداث التاريخية بعناوينها أو سنواتها كما هو عليه منهج المؤرخين، إلا أننا نرى كثيرًا من المعلومات التاريخية المتداخلة فى ثنايا المعلومات الجغرافية ، بدرجة تجعله يتفرد بذكر أحداث تاريخية مهمة ضمن ذكره لموقع من المواقع الجغرافية .

وياقوت الحموى : زار بيت المقدس وكتب عنه بإسهاب فى كتابه معجم البلدان . وقد بدأ ياقوت حديثه عن بيت المقدس بتعريف لغوى ، وذكر ما أشار إليه المفسرون فى تفسير كثير من الآيات ذات الصلة والتى بينت فضائل بيت المقدس ، وأهميته بالنسبة للمسلمين ، ثم ثنى بما ورد من أحاديث شريفة عن بيت المقدس وما ورد حوله من آثار عن المواقع المقدسة فيه ، ثم قام بعد ذلك بدراسة وصفية لهذه الآثار وفضائلها وأطوالها وما تختص به عن غيرها من المواقع .

بعد ذلك بسط ياقوت حديثه عن الفتح الإسلامى لبيت المقدس زمن الخليفة الراشد عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - سنة (١٧هـ / ٦٣٨م) وأنها استمرت على هذه الحال الإسلامية حتى استولى عليها الصليبيون فى (شعبان سنة

٤٩٢هـ / يوليو ١٠٩٩م) وتحدث عما قام به الصليبيون من أعمال شنيعة أثر دخولهم المدينة المقدسة .

ثم تحدث ياقوت - بعد ذلك - عن بيت المقدس فى زمنه وعن زيارته له وأعقب ذلك بحديث مهم عن أبرز الأعلام الذين نسبوا إلى بيت المقدس .

كما أن ياقوت لم يغفل عن أخبار بيت المقدس فى مواضع عديدة من كتابه، فهو حينما يشير إلى أحداث الصراع بين المسلمين والصليبيين على الساحل الشامى يكون بيت المقدس محورًا لحديثه فى كثير من الأحيان .

وبالجملة فإنه يتأكد فى مثل هذا البحث أن كتاب : « معجم البلدان » لياقوت الحموى لم يكن مجرد معجم بلدانى يهتم بسرد المواقع وتحديد جهاتها وأسمائها بل إنه يعد مصدرًا تاريخيًا سجل فيه مؤلفه نبذًا مهمة من تاريخ عصره كما شاهد ورأى ، ومن ذلك حديثه عن بيت المقدس ، ومن هنا تأتى أهمية هذا لبحث والحاجة إلى طرقه .

ثم إنه يشار هنا إلى أهمية أخرى للمعلومات التاريخية الواردة فى المعجم تلكم هى الآثار والروايات التى نقلها ياقوت من مصادر مهمة قد تكون مفقودة ويصعب الوقوف عليها لفقدها أوندرتها . فهو هنا ينقل عن هذه المصادر بأمانة ودقة ويحيل إليها فى مواضعها .

وقد بدأت هذا البحث بإيراد مقدمة عن ياقوت وعصره وأهمية معجمه بما ورد فيه من أخبار تاريخية بشكل عام ، وحول موضوع البحث بشكل خاص . ثم يلى ذلك إيراد نص ياقوت فى معجمه عن بيت المقدس مقسمًا هذا النص حسب أهميته وترتيبه له ، وقد تركز العمل على تعليق ما يحتاجه النص فى هوامش المتن مع محاولة لتأصيل الآثار والأخبار الواردة فى النص .

وكان من أهداف هذا العمل إبراز قيمة الآثار التاريخية الواردة فى المصادر الجغرافية ومنها هذا المعجم باعتباره نموذجًا لهذه المصادر ، وتطبيق ذلك من خلال جزئية وردت فى هذا المعجم ، وهى حديثه عن « بيت المقدس » .

لذا آمل أن أكون قد وفقت فـى طـرق هـذا الموضـوع بجوانبـه الأساسية ، وأسـال المـولى القديـر أن يجعلـه عمـلاً خالصًـا لوجهـه الكريـم ، وأن يكـون نـواة لدراسات أشمل وأعم فى مثل هذه الجوانب ، وضمن مثل هذه المصادر .

قراءة النص :

ورد النص فى المعجم عن ياقوت تحت كلمة « المقدس » والتى نسب إليهـا بيت المقدس حيث بـدأ نصـه بتعريـف اللفظـة والمـراد بهـا ، وأورد جملـة مـن آراء المفسرين واللغويين حـول الكلمة فقال ما نصه : « المقدس : فى اللغة المـنزه ، قـال المفسرون فى قوله تعالى : ﴿ ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ﴾ ، قـال الزجـاج : معنى نقدس لـك أى نطهـر أنفسـنا لـك وكذلـك نفعـل بمـن أطـاعك نقدسـه أى نطهره، قال : ومن هذا قيل للسطل القدس لأنــه يتقـدس منـه أى يتطهـر ، قـال : ومن هذا بيت المقدس ، كذا ضبطه بفتح أولـه ، وسـكون ثانيـه ، وتخفيـف الـدال وكسرها، أى البيت المقدس المطهر الذى يتطهر به من الذنوب ؛ قال مروان :

قـل للفـرزدق ، السفاهــة كاسمهــا   إن كنــت تارك ما أمرتـك فاجلـس
ودع المدينــة إنهـــا محـــذورة ،   والحـــق بمكــة أو ببيــت المقــدس

وقال قتادة : المراد بأرض المقدس أى المبارك ، وإليه ذهــب ابـن الأعرابى ، ومنه قيل للراهب مقدس ، ومنه قول امرئ القيس :

فأدركنه يأخذون بالساق والنسا   كما شبرق الولدان ثوب المقدس

وصبيان النصارى يتبركون به وبمسح مسحه الذى هو لابسه وأخـذ خيوطـه منه حتى يتمزق عنه ثوبه »(٨) .

ثم عرج ياقوت بعد ذلك إلى فضائل بيت المقـدس وأشـار إلى كثرتهـا وأنـه أورد شيئًا منها حتى يستحسنه المطلع عليه ، وهى مع ذلك نصوص مهمة فى بابها بدأها بمجموع آيات ذات دلالة على فضائل بيت المقدس ، ومنهـا : قولـه تعـالى : ﴿ ونجينـاه ولوطًـا إلى الأرض التـى باركنـا فيهـا للعـالمين ﴾(٩) ، قـال مقـاتل بـن

سليمان : هى بيت المقدس ، وقولـه تعـالى لبنـى إسـرائيل : « وواعدنـاكم جـانب الطور اليمن »(١٠) ، يعنى بيت المقدس ، وقوله تعالى : ﴿ وجعلنا ابن مريم وأمـه آيتين وأويناهما إلى ربوة ذات قرار ومعين ﴾(١١) ، قال : البيـت المقـدس ، وقـال تعـالى : ﴿سـبحان الـذى أسرى بعبـده ليـلاً مـــن المسـجد الحـرام إلى المسـجد الأقصى﴾(١٢) ، هو بيت المقدس ، وقوله تعالى : ﴿ فـى بيـوت أذن الله أن ترفـع ويذكر فيها اسمه »(١٣) ، البيت المقدس(١٤) .

وذكر ياقوت لهذه المجموعة مـن الآيـات القرآنيـة تكشـف عـن سـعة علمـه وإطلاعه على معارف مهمـة لمثـل موضوعـه مـن ذلـك كثرة استشـهاده بـالقرآن الكريم . فهو يشير إلى كثير من الآيات فى مناسبتها ، ويستطرد أحيانًا فى شرحها وبيان مناسبتها ، وربما أورد كثـيرًا مـن الآيـات المتتابعـة داخـل موضـوع واحـد ، ويتكرر ذلك فى الكتابة المتعلقة بالأماكن المقدسة كما حصل هنا .

ثم أورد ياقوت جملة مـن الأحـاديث النبويـة والأخبـار والآثـار الدالـة علـى فضائل بيت المقدس ، وهنا نشير إلى أنـه تعـود أن يستشـهد بـالحديث النبـوى مـع حذف الأسانيد حتى لا يضخم حجم كتابه بها .

ومن هذه الأحاديث :«من صلىفى بيت المقدس فكأنما صلى فى السماء»، ورفع الله عيسى بن مريم إلى السماء من بيت المقدس وفيه مهبطه إذا هبط وتـزف الكعبة بجميع حجاجها إلى البيت المقدس يقال لها مرحبًـا بـالزائر والمـزور ، وتـزف جميع مساجد الأرض إلى البيت المقدس ؛ أول شيئ حسر عنه بعد الطوفان صخـرة بيت المقدس وفيه ينفخ فى الصور يوم القيامـة وعلـى صخرتـه ينـادى المنـادى يـوم القيامة ، وقد قال الله تعالى لسليمان بن داود ، عليهمـا السـلام ، حـين فـرغ مـن بناء البيت المقدس : سلنى أعطك ، قال : يا رب أسالك أن تغفر لى ذنبى ، قـال : لك ذلك ، قال : يا رب وأسألك أن تغفر لمن جاء هذا البيت يريد الصلاة فيه وأن تخرجه من ذنوبه كيوم ولد ، قال : لك ذلك ، قال : وأسألك مـن جـاء فقـيرًا أن تغنيه ، قال : لك ذلك ، قال وأسألك مـن جـاء سـقيمًا أن تشـفيه ، قـال : ولـك

ذلك ، وعن النبى ، ﷺ ، أنه قال : لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد : مسجدى هذا والمسجد الحرام ومسجد البيت المقدس(١٥) ، وأن الصلاة فى بيت المقدس خير من ألف صلاة فى غيره(١٦) ، وأقرب بقعة فى الأرض من السماء البيت المقدس ويمنع الدجال من دخولها ويهلك يأجوج ومأجوج دونها ، وأوصى آدم ، عليه السلام ، أن يدفن بها وكذلك إسحاق وإبراهيم ، وحمل يعقوب من أرض مصر حتى دفن بها ، وأوصى يوسف عليه السلام ، حين مات بأرض مصر أن يحمل إليها ، وهاجر إبراهيم من كوثى إليها ، وإليها المحشر ومنها المنشر ، وتاب الله على داود بها ، وصدق إبراهيم الرؤيا بها ، وكلم عيسى الناس فى المهد بها ، وتقاد الجنة يوم القيامة إليها ومنها يتفرق الناس إلى الجنة أو إلى النار وروى عن كعب أن جميع الأنبياء ، عليهم السلام ، زاروا بيت المقدس تعظيمًا له ، وروى عن كعب أنه قال : لا تسموا بيت المقدس إيلياء ولكن سموه باسمه فإن إيلياء امرأة بنت المدينة ، وعن عبد الله بن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : فلما فرغ سليمان من بناء بيت المقدس سأل الله حكمًا يوافق حكمه وملكًا لا ينبغى لأحد من بعده فأعطاه الله ذلك(١٧) ، وعن ابن عباس قال : البيت المقدس بنته الأنبياء وسكنته الأنبياء ما فيه موضع شبر إلا وقد صلى فيه نبى أوقام فيه ملك(١٨) ، وعن أبى ذر قال : قلت لرسول الله ﷺ : أى مسجد وضع على وجه الأرض أولاً؟ قال : المسجد الحرام ، قلت : ثم أى ؟ قال : البيت المقدس وبينهما أربعون سنة ، وروى عن أبى بن كعب(١٩) ، قال : أوحى الله تعالى إلى داود ابن لى بيتًا، قال : يا رب وأين من الأرض ؟ قال : حيث ترى الملك شاهرًا سيفه ، فرأى داود ملكًا على الصخرة واقفًا وبيده سيف ، وعن الفضيل بن عياض قال : لما صرفت القبلة نحو الكعبة قالت الصخرة : « إلهى لم أزل قبلة لعبادك حتى إذا بعثت خير خلقك صرفت قبلتهم عنى ! قال : ابشرى فإنى واضع عليك عرشى وحاشر إليك خلقى وقاض عليك أمرى وناشر منك عبادى » وقال كعب : من زار البيت المقدس شوقًا إليه دخل الجنة ، ومن صلى فيه ركعتين خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه وأعطى قلبًا شاكرًا ولسانًا ذاكرًا ، ومن تصدق فيه بدرهم كان فداءه من

النار، ومن صام فيه يومًا واحدًا كتبت له براءته من النار ، وقال كعب : « معقل المؤمنين أيام الدجال البيت المقدس يحاصرهم فيه يأكلوا أوتار قسيهم من الجوع ، فبينما هم كذلك إذ سمعوا صوتًا من الصخرة يقولون هذا صوت رجل شبعان ، فينظرون فإذا عيسى بن مريم ، عليه السلام ، فإذا رآه الدجال هرب منه فيتلقاه بباب لد فيقتله ، وقال أبو مالك القرظى فى كتاب اليهود الذى لم يغير : إن الله تعالى خلق الأرض فنظر إليها وقال : أنا واطئ على بقعتك ، فشمخت الجبال وتواضعت الصخرة فشكر الله لها وقال : هذا مقامى وموضع ميزانى وجنتى ونارى وحشر خلقى وأنا ديان يوم الدين ، وعن وهب بن منبه قال : أمر إسحاق ابنه يعقوب أن لا ينكح امرأة الكنعانيين وأن ينكح من بنات خاله لابان بن تاهر بن أزر وكان مسكنه فلسطين فتوجه إليها يعقوب ، وأدركه فى بعض الطريق الليل فبات متوسدًا حجرًا فرأى فيما يرى النائم كأن سلما منصوبًا إلى باب السماء عند رأسه والملائكة تنزل منه وتعرج فيه وأوحى الله إليه : إنى أنا الله لا إله إلا أنا إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق وقد ورثتك هذه الأرض المقدسة وذريتك من بعدك وباركت فيك وفيهم وجعلت فيكم الكتاب والحكمة والنبوة ثم أنا معك حتى تدرك إلى هذا المكان فاجعله بيتًا تعبدنى فيه أنت وذريتك، فيقال إنه بيت المقدس ، فبناه داود وابنه سليمان ثم أخربته الجبابرة بعد ذلك فاجتاز به شعيا ، وقيل عزير عليهما السلام ، فرآه خرابًا . فقال : أنى يحيى هذه الله بعد موتها ؟ فأماته الله مائة عام ثم بعثه ؛ كما قص عز وجل ، فى كتابه الكريم ، ثم بناه ملك من ملوك فارس يقال له كوشك ، وكان قد اتخذ سليمان فى بيت المقدس أشياء عجيبة ، منها القبة التى فيها السلسلة المعلقة ينالها صاحب الحق ولا ينالها المبطل حتى اضمحلت بحيلة غير معروفة ، وكان من عجائب بنائه أنه بنى بيتًا وأحكمه وصقله فإذا دخله الفاجر والورع تبين الفاجر من الورع ، لأن الورع كان يظهر خياله فى الحائط أبيض والفاجر يظهر خياله أسود ، وكان أيضًا مما اتخذ من الأعاجيب أن ينصب فى زاوية من زواياه عصا آبنوس فكان من مسها من أولاد الأنبياء لم تضره ومن مسها من غيرهم أحرقت يده(٢٠) .

وهنا نلاحظ أن ياقوت جمع كثيرًا من الآيات والأحاديث والآثار الواردة فى فضائل بيت المقدس ، وركز فى ذلك حتى أنه يمكن جمع ما كتبه وتحقيقه ، وإظهاره فى كتيب مستقل عن فضائل بيت المقدس .

ثم عمد ياقوت إلى إيراد أوصاف بيت المقدس ، وأشار إلى أنه لو استطرد فيها لمل القارئ ؛ فقال : « وقد وصفها القدماء بصفات إن استقصيتها أمللت القارئ والذى شاهدته أنا منها أن أرضها وضياعها وقراها كلها جبال شامخة وليس حولها ولا بالقرب منها أرض وطيئة البتة وزروعها على الجبال وأطرافها بالفؤوس لأن الدواب لا صنع لها هناك ، وأما نفس المدينة فهى على فضاء فى وسط تلك الجبال وأرضها كلها حجر من الجبال التى هى عليها وفيها أسواق كثيرة وعمارات حسنة ، وأما الأقصى فهو فى طرفها الشرقى نحو القبلة أساسه من عمل داود ، عليه السلام ، وهو طويل عريض وطوله أكثر من عرضه ، وفى نحو القبلة المصلى الذى يخطب فيه الجمعة وهو على غاية الحسن والأحكام مبنى على الأعمدة الرخام الملونة والفسيفساء التى ليس فى الدنيا أحسن منها لا جامع دمشق ولا غيره ، وفى وسط صحن هذا الموضع مصطبة عظيمة فى ارتفاع نحو خمسة أذرع كبيرة يصعد إليها الناس من عدة مواضع بدرج ، وفى وسط هذه المصطبة قبة عظيمة على أعمدة رخام مسقفة برصاص منمقة من برا وداخل بالفسيفساء مطبقة بالرخام الملون قائم ومسطح ، وفى وسط هذا الرخام قبة أخرى وهى قبة الصخرة التى تزار وعلى طرفها أثر قدم النبى ﷺ ، وتحتها مغارة ينزل إليها بعدة درج مبلطة بالرخام قائم ونائم يصلى فيها وتزار ، ولهذه القبة أربعة أبواب ، وفى شرقيها برأسها قبة أخرى على أعمدة مكشوفة حسنة مليحة يقولون إنها قبة السلسلة وقبة المعراج أيضًا على حائط المصطبة وقبة النبى داود ، عليه السلام ، كل ذلك على أعمدة مطبق أعلاها بالرصاص ، وفيها مغاور كثيرة ومواضع يطول عددها مما يزار ويتبرك به ، ويشرب أهل المدينة من ماء المطر ، ليس فيها دار إلا وفيها صهريج لكنها مياه ردية أكثرها يجتمع من الدروب، وإن كانت دروبهم حجارة ليس فيها ذلك الدنس الكثير ، وبها ثلاث برك عظام : بركة بنى إسرائيل

وبركة سليمان ، عليه السلام ، وبركة عياض عليها حماماتهم ، وعين سلوان فى ظاهر المدينة فى وادى جهنم مليحة الماء وكان بنو أيوب قد أحكموا سورها ثم خربوه على ما نحكيه بعد ، وفى المثل : قتل أرضًا عالمها وقتلت أرض جاهلها ، هذا قول أبى عد الله محمد بن أحمد بن البناء البشارى المقدسى له كتاب فى أخبار بلدان الإسلام وقد وصف بيت المقدس فأحسن فالأولى أن نذكر قوله لأنه أعرف ببلده وإن كان قد تغير بعده بعض معالمها ، قال : هى متوسطة الحر والبرد قل ما يقع فيها ثلج ، قال : وسألنى القاضى أبو القاسم عن الهواء فقلت :سجسج لا حر ولا برد ، فقال : هذه صفة الجنة ، قلت : بنيانهم حجر لا ترى أحسن منه ولا أنفس منه ولا أعف من أهلها ولا أطيب من العيش بها ولا أنظف من أسواقها ولا أكبر من مسجدها ولا أكثر من مشاهدها ، وكنت يومًا فى مجلس القاضى المختار أبى يحيى بهرام بالبصرة فجرى ذكر مصر إلى أن سئلت : أى بلد أجل ؟ قلت : بلدنا ، قيل : فأيهما أطيب ؟ قلت : بلدنا ، قيل : فأيهما أفضل ؟ قلت : بلدنا ، قيل فأيهما أحسن ؟ قلت : بلدنا ، قيل : فأيهما أكثر خيرات ؟ قلت : بلدنا ، قيل : فأيهما أكبر ؟ قلت : بلدنا ، فتعجب أهل المجلس من ذلك وقيل : أنت رجل محصل وقد ادعيت ما لا يقبل منك « وما مثلك »(٢١) ، إلا كصاحب الناقة مع الحجاج ، قلت : أما قولى أجل فلأنها بلدة جمعت الدنيا والآخرة فمن كان من أبناء الدنيا وأراد الآخرة وجد سوقها ، ومن كان من أبناء الآخرة فدعته نفسه إلى نعمة الدنيا وجدها ، وأما طيب هوائها فإنه لاسم لبردها ولا أذى لحرها، وأما الحسن فلا يرى أحسن من بنيانها ولا أنظف منها ولا أنزه من مسجدها ، وأما كثرة الخيرات فقد جمع الله فيه فواكه الأغوار والسهل والجبل والأشياء المتضادة كالأترج واللوز والرطب والجوز والتين والموز ، وأما الفضل فهى عرصة القيامة ومنها النشر وإليها الحشر وأنما فضلت مكة بالكعبة والمدينة بالنبى ، ﷺ ، ويوم القيام تزفان إليها فتحوى الفضل كله ، وأما الكبر فالخلائق كلهم يحشرون إليها فأى أرض أوسع منها ؟ فاستحسنوا ذلك وأقروا به ، قال : إلا أن لها عيوبًا ، يقال إن فى التوراة مكتوبًا بيت المقدس طست من ذهب مملوء عقارب ، ثم لا

نرى أقذر من حماماتها ولا أثقل مؤنة وهى مع ذلك قليلة العلماء كثيرة النصارى وفيهم جفاء وعلى الرحبة والفنادق ضرائب ثقال وعلى ما يباع فيها رجالة وعلى الأبواب أعوان فلا يمكن أحدًا أن يبيع شيئًا مما يرتفق به الناس إلا بها مع قلة يسار، وليس للمظلوم أنصار ، فالمستور مهموم والغنى محسود والفقيه مهجور والأديب غير مشهور ، ولا مجلس نظر ولا تدريس ، قد غلب عليها النصارى واليهود وخلا المجلس من الناس والمسجد من الجماعات ، وهى أصغر من مكة وأكبر من المدينة عليها حصن بعضها على جبل وعلى بقية خندق ، ولها ثمانية أبواب حديد : باب صهيون وباب النية وباب البلاط وباب جب أرميا وباب سلوان وباب أريحا وباب العمود وباب محراب داود ، عليه السلام ، والماء بها واسع ، وقيل : ليس ببيت المقدس أكثر من الماء والأذان قل أن يكون بها دار ليس بها صهريج أو صهريجان أو ثلاث على قدر كبرها وصغرها ، وبها ثلاث برك عظام : بركة بنى إسرائيل وبركة سليمان وبركة عياض عليها حماماتهم لها دراع من الأزقة ، وفى المسجد عشرون جبًا مشجرة قل أن تكون حارة ليس بها جب مسيل غير أن مياهها من الأزقة وقد عمد إلى واد فجعل بركتين تجتمع إليهما السيول فى الشتاء وقد شق منهما قناة إلى البلد تدخل وقت الربيع فتدخل صهاريج الجامع وغيرها »(٢٢) .

ثم عمد ياقوت بعد ذلك إلى وصف المسجد الأقصى من واقع مشاهدته له، فقال : « وأما المسجد الأقصى فهو على قرنة البلد الشرقى نحو القبلة أساسه من عمل داود ، طول الحجر عشرة أذرع وأقل منقوشة موجهة مؤلفة صلبة وقب بنى عليه عبد الملك بحجارة صغار حسان وشرفوه وكان أحسن من جامع دمشق لكن جاءت زلزلة فى أيام بنى العباس فطرحته إلا ما حول المحراب فلما بلغ الخليفة خبره وأراد رده مثلما كان فقيل له : تعيا ولا تقدر على ذلك ، فكتب إلى أمراء الأطراف والقواد يأمرهم أن يبنى كل واحد منهم رواقًا ، فبنوه أوثق وأغلظ صناعة مما كان ، وبقيت تلك القطعة شامة فيه وهى إلى حذاء الأعمدة الرخام ، وما كان من الأساطين المشيدة فهو محدث ، وللمغطى ستة وعشرون بابًا : باب يقابل المحراب يسمى باب النحاس الأعظم مصفح بالصفر المذهب لا يفتح مصراعه

إلا رجل شديد القوة عن يمينه سبعة أبواب كبار فى وسطها باب مصفح مذهب وعلى اليسار مثلها وفى نحو المشرق أحد عشر بابًا سواذج وخمسة عشر رواقًا على أعمدة رخام أحدثها عبد الله بن طاهر ، وعلى الصحن من الميمنة أروقة على أعمدة رخام وأساطين ، وعلى المؤخر أروقة ازاج من الحجارة ، وعلى وسط المغطى جمل عظيم خلف قبة حسنة ، والسقوف كلها إلا المؤخر ملبسة بشقاق الرصاص والمؤخر مرصوف بالفسيفساء الكبار والصحن كله مبلط ، وفى الرواق دكة مربعة مثل مسجد يثرب يصعد إليها من أربع جهاتها بمراق واسعة ، وفى الدكة أربع قباب : قبة السلسلة وقبة المعراج وقبة النبى ﷺ ، وهذه الثلاث الصغار ملبسة بالرصاص على أعمدة رخام مكشوفة ، وفى وسط الدكة قبة الصخرة على بيت مثمن بأربعة أبواب كل باب يقابل مرقاة من مراقى الدكة ، وهى : الباب القبلى ، وباب إسرافيل وباب الصور وباب النساء ، وهو الذى يفتح إلى المغرب ، جميعها مذهبة فى وجه كل واحد باب مليح من خشب التنوب ، وكانت قد أمرت بعملها أم المقتدر بالله ، وعلى كل باب صفة مرخمة والتنوبية مطبقة على الصخرية من خارج ، وعلى أبواب الصفات أبواب أيضًا سواذج داخل البيت ثلاثة أروقة دائرة على أعمدة معجونة أجل من الرخام وأحسن لا نظير لها قد عقدت عليه أروقة لاطئة داخل فى رواق آخر مستدير على الصخرة على أعمدى معجونة بقناط مدورة فوق هذه منطقة متعالية فى الهواء فيها طاقات كبار والقبة فوق المنطقة طولها غير القاعدة الكبرى مع السفود فى الهواء مائة ذراع ترى من البعد فوقها سفود حسن طوله قامة وبسطة ، والقبة على عظمها ملبسة بالصفر المذهب وأرض البيت مع حيضانه ، والمنطقة من داخل وخارج على صفة جامع دمشق ، والقبة ثلاث سافات : الأولى مروقة على الألواح والثانية من أعمدة الحديد قد شبكت لئلا تميلها الرياح ، ثم الثالثة من خشب عليها الصفائح وفى وسطها طريق إلى عند السفود يصعد منها الصناع لتفقدها ورمها فإذا بزغت عليها الشمس أشرقت القبة وتلألأت المنطقة ورؤيت شيئًا عجيبًا ، وعلى الجملة لم أر فى الإسلام ولا سمعت أن فى الشرك مثل هذه القبة ، ويدخل المسجد من ثلاثة عشر موضعًا

بعشرين بابًا ، منها : باب الحطة وباب النبى ، عليه الصلاة والسلام ، وباب محراب مريم وباب الرحمة وباب بركة بنى إسرائيل وباب الأسباط وباب الهاشمين وباب الوليد وباب إبراهيم ، عليه السلام ، وباب أم خالد وباب داود ، عليه السلام وفيه من المشاهد محراب مريم وزكرياء ويعقوب والخضر ومقام النبىﷺ ، وجبرائيل وموضع المنهل والنور والكعبة والصراط متفرقة فيه وليس على الميسرة أروقة ، والمغطى لا يتصل بالحائط الشرقى وإنما ترك هذا البعض لسببين أحدهما قول عمر : واتخذوا فى غربى هذا المسجد مصلى للمسلمين ، فتركت هذه القطعة لئلا يخالف ، والآخر لو مد المغطى إلى الزاوية لم تقع الصخرة حذاء المحراب فكرهوا ذلك ، والله أعلم ، وطول المسجد ألف ذراع الهاشمى ، وعرضه سبعمائه ذراع ، وفى سقوفه من الخشب أربعة آلاف خشبة وسبعمائة عمود رخام ، وعلى السقوف خمسة وأربعون ألف شقة رصاص ، وحجم الصخر ثلاثة وثلاثون ذراعًا فى سبعة وعشرين ، وتحت الصخرة مغارة تزار ويصلى فيها تسع مائة وستين نفسًا، (وكانت وظيفته كل شهر مائة دينار) ، وفى كل سنة ثمانمائة ألف ذراع حصرًا ، وخدامه مماليك له أقامهم عبد الملك من خمس الأسارى ولذلك يسمون الأخماس لا يخدمه غيرهم ولهم نوب يحفظونها ؛ وقال المنجمون : المقدس طوله ست وخمسون درجة ، وعرضه ثلاث وثلاثون درجة ، فى الإقليم الثالث »(٢٣) .

ويذكر هنا أن ياقوت إضافة إلى ما تميز به من رصد وتسجيل كل ما يشاهده أو يسمع به من غرائب الأحداث ، والوقائع والمشاهد التى يقف عليه أو يسمعها ، فإنه لم يترك بلدًا فتحه المسلمون إلا ذكر فى موضعه قصة الفتح منبهًا على المواقع التى أبلى فيها المسلمون بلاء حسنًا ، وهو مؤرخ بارع يستطرد فى ذكر الخبر ويعمد إلى تفاصيل دقيقة فى أسلوب روائى سهل ممتع ، ولا ينسى أن يشير إلى الفتح أن كان صلحًا أو عنوة(٢٤) .

ومنها حديثه هنا عن بيت المقدس ، فقد قال عنه : « وأما فتحها فى أول الإسلام إلى يومنا هذا فإن عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، أنفذ عمرو بن العاص إلى فلسطين ثم نزل البيت المقدس فامتنع فقدم أبو عبيدة بن الجراح بعد أن افتتح قنسرين وذلك فى سنة ١٦ للهجرة فطلب أهل بيت المقدس من أبى عبيدة الأمان والصلح على مثل ما صولح عليه أهل مدن الشام من أداء الجزية والخراج والدخول فيما دخل فيه نظراؤهم على أن يكون المتولى للعقد لهم عمر بن الخطاب ، فكتب أبو عبيدة بذلك إلى عمر فقدم عمر ونزل الجابية من دمشق ثم صار إلى بيت المقدس فأنفذ صلحهم وكتب لهم به كتابًا وكان ذلك فى سنة ١٧ »(٢٥) .

وقد وردت قصة فتح فلسطين وبيت المقدس فى كتب الفتوح الإسلامية وفق ما يلى :

أنه بعد فتح دمشق انعزل عمرو بن العاص بجيشه وأخذ يفتح فى نواحى فلسطين ، ووقعت معركة أجنادين بين عمرو وجنود الروم بقيادة أرطبون ، وهى معركة قوية انتصر فيها المسلمون واستولى عمرو بعدها على مدن فلسطين الشمالية(٢٦) ، ثم توجه إلى بيت المقدس ، وبدأ يحاصرها ، وقد دافع عنها الروم بقيادة أرطبون دفاعًا مستميتًا واستعملوا المنجنيق لضرب المسلمين ، الذين تضرروا من ذلك ، فكتب عمرو بن العاص إلى عمر بن الخطاب يطلب منه المدد ، فأصدر عمر بن الخطاب أمرًا إلى أبى عبيدة بن الجراح ليكون مددًا لعمرو فى حصاره لبيت المقدس ، فخرج أبو عبيدة فى جيشه متوجهًا إلى بيت المقدس ، فساعد وصوله فى تقوية عزائم المسلمين ، وفت فى عضد الروم الذين أخذوا يفكرون فى الصلح والاستسلام ، خصوصًا بعد ما شاهدوا من وفاء المسلمين وعدلهم فى المدن المفتوحة وبدأ بطريرك القدس مفاوضة المسلمين فى الصلح بنفسه ، مما أغضب قائد الروم أرطبون فترك القدس واتجه إلى مصر ، واستمرت المفاوضات بين المسلمين وبطاركة وقساوسة بيت المقدس حتى وافق أهلها وزعمائها على التسليم والمصالحة واشترطوا أن يتولى الصلح عمر بن الخطاب بنفسه ، وأن يسلموا مدينتهم له

شخصيًا ، فكتب أبو عبيدة وعمرو بن العاص لعمر بن الخطاب بذلك ، فاستخلف عمر على المدينة وكتب إلى أجناد الشام بالتجمع فى الجابية ليلتقى بهم(٢٧) .

فسار عمر إلى بلاد الشام ، حتى وصل الجابية ، وفيها التقى عمر بالمسلمين وتفقد أحوالهم ، وأذن بهم بلال بن رباح مؤذن رسول الله ﷺ وكان لم يؤذن بهم بعد وفاة الرسول فتذكر المسلمون رسول الله ﷺفبكوا جميعًا(٢٨) ، ثم التقى عمر بمندوبى بيت المقدس ، وكتب لهم عهدًا أمنهم فيه على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم ، وأن لا يجبرو على ترك دينهم ، وأنهم بالخيار من شاء منهم البقاء فى ذمة المسلمين ومن شاء اللحاق بالروم ، ومن خرج منهم فهو أمن على نفسه وماله حتى يبلغ مأمنه ، واشترط أهل بيت المقدس أن لا يسكن معهم أحد من اليهود(٢٩) .

وهذا العهد يدل على حسن معاملة المسلمين لأهل الديانات الأخرى وحفظهم لحقوقهم وقد توجه عمر بعد ذلك إلى بيت المقدس واستقبله أهلها وبطاركتها ، ودخل بيت المقدس واختط بها مسجدًا وأقام فيها بضعة أيام ، ثم غادرها إلى الجابية ، حيث بقى بعض الوقت مع المسلمين وقوادهم ناقش خلالها أمورهم المختلفة ، ثم عاد إلى المدينة(٣٠) .

وبعد فتح بيت المقدس صار المسلمون قد فتحوا معظم بلاد الشام وأصبحت لهم السيطرة الفعلية عليه دون منازع بعد أن واجهوا العديد من المصائب والمعارك(٣١) .

ثم يواصل ياقوت حديثه بقوله : « ولم تزل على ذلك بيد المسلمين والنصارى من الروم والأفرنج والأرمن وغيرهم من سائر أصنافهم يقصدونها للزيارة إلى بيعتهم المعروفة بالقمامة وليس فى الأرض أجل منها ، حتى انتهت إلى من ملكها سكمان بن أرتق وأخوه ايلغازى جد هؤلاء الذين بديار بكر صاحب ماردين وآمد ، والخطبة فيها تقام لبنى العباس ، فاستضعفهم المصريون وأرسلوا إليهم جيشًا لا طاقة لهم به ، وبلغ سكمان(٣٢) .

وأخاه خبر ذلك فتركوها من غير قتال وانصرفوا نحو العـراق ، وقيـل : بـل حاصروهم ونصبوا عليها المجانيق ثم سلموها بالأمان ورجع هؤلاء إلى نحو المشرق، وذلك فى سنه ٤٩١(٣٣) ، واتفق أن الأفرنـج فـى هـذه الأيـام خرجـوا مـن وراء البحر إلى الساحل فملكوا جميع الساحل أو أكثر وامتدوا حتـى نزلـوا علـى البيـت المقدس فأقاموا عليها نيفًا وأربعين يومًا ثـم ملكوهـا مـن شماليهـا مـن ناحيـة بـاب الأسباط عنوة فى اليوم الثالث والعشرين من شعبان سنة ٤٩٢ ووضعوا السيف فى المسلمين أسبوعًا والتجأ الناس إلى الجامع الأقصى فقتلوا فيه مـا يزيـد علـى سـبعين ألفًا من المسلمين وأخذوا من عند الصخرة نيفًا وأربعـين قنديـلاً فضـة كـل واحـد وزنه ثلاثة آلاف وستمائة درهم فضة وتنـور فضـة وزنـه أربعـون رطـلاً بالشـامى وأموالاً لا تحصى وجعلوا الصخرة والمسجد الأقصى مأوى لخنازيرهم ولم يزل فـى أيديهم حتى استنقذه منهم الملك الناصر صلاح الدين يوسف بـن أيـوب فـى سـنة ٥٨٣ بعد إحدى وتسعين سنة أقامها فى يد الأفرنج(٣٤) .

وقد أسهبت المصادر فى تصوير أحداث استعادة صلاح الدين الأيوبى بيـت المقدس من الصليبيين على النحو الآتى :

أنه بعد معركة حطين الشهيرة بين صـلاح الديـن والصليبيـين والتـى جـرت أحداثها فى ربيع الآخر سنة ٥٨٣هـ (يوليو ١١٨٧م) والتـى حقـق فيهـا صـلاح الدين نصرًا حاسمًا على الصليبيين أصبح الطريق ممهدًا أمامه للتوجه إلى بيت المقدس حيث كان ملكها ومعظم قواده أسرى لديـه ، كمـا أن القـوى الصليبيـة الأخـرى كانت مهمومة بما أصابها من هزيمة فى حطين ، ومع كل هذا فإن صلاح الدين لم يتوجه إلى بيت المقدس مباشرة وإنما أثر أن يقـوم ببعـض الخطـوات العسـكرية فـى منـاطق أخـرى قبـل أن يتوجـه إلى بيـت المقـدس ، ليضمـن التفـرد بهـا ، وقطـع المساعدات عنها ، فبذل جهده أولاً فى احتلال العديد من المواقع القريبة مـن بيـت المقدس ، فتمكن خلال فترة وجيزة من استعادة طبرية ، وعكا ، ثم نابلس ، وفتـح أيضًا تبنين ، وصيدا ، وبيروت ، ثم تسلم عسقلان الحصينة ، وتسـلم بعدهـا غـزة والحصون القريبة لها(٣٤) .

وعندما ضمن صلاح الدين حماية السواحل بالأساطيل الإسلامية ضد أى هجوم بحرى متوقع ، توجه إلى بيت المقدس ، وكان قد تجمع بها بقايا الصليبيين ، يقودهم بطريرك بيت المقدس ، وصاحب الرملة وبقايا من سلم من حطين ، ومن هاجر إليها من البلاد والحصون التى فتحها المسلمون وأمنوا أهلها على الرحيل ، وكانت القدس مزدحمة بالمدافعين عنها ، والذين يرون أن الموت أهون عليهم من استعادة المسلمين لبيت المقدس ، مع ذلك واصل المسلمون سيرهم إلى القدس ، حتى وصلوا إلى أسوارها الغربية يوم الأحد الخامس عشر من رجب وكانت القدس مدينة محصنة تحصينًا عاليًا ، وبها من المقاتلين ما يزيد عن الستين ألفًا ، معظمهم أهل خبرة ومدافعة(٣٥) ، وقد بقى صلاح الدين وجنده خمسة أيام وهم يدورون على المدينة يتحسسونها كالصقور ، ويتسقطون أخبارها ويراقبون مواقعها العسكرية الدفاعية ليختاروا المكان المناسب للهجوم ، حتى وقع اختيارهم على الجهة الشمالية من المدينة ، فلم يصبح الناس يوم الجمعة العشرين من رجب إلا وقد نصبت المنجنيقات على ذلك الجانب ، وفى المقابل نصب الصليبيون منجنيقاتهم داخل أسوار القدس ، وأخذوا يرمون بها المسلمين ، وتقاتل الفريقان قتالاً شديدًا وكان شجعان الصليبيين يخرجون كل يوم إلى ظاهر البلد ويقاتلون المسلمون ، والحماس شديد بين الطرفين ، فبقدر ما كان الصليبيون حريصين على الاحتفاظ بالقدس لوازع دينى عندهم ، كان المسلمون أشد حرصًا منهم على استرداد المدينة لوازع دينى أقوى ، واستمات كثير من المسلمين فى القتال طلبًا للشهادة عند أسوار القدس(٣٦) ، وقد تحمس المسلمون فى القتال حتى أضطر فرسان الصليبيين إلى الاحتماء ، وعدم الخروج من المدينة ووصل المسلمون إلى الخندق ، وتمكنوا من إحداث نقب فى أحد الأسوار فى الوقت الذى كانت المنجنيقات فيه تمنع الأعداء من الدفاع عن الأسوار ، حتى أيس الصليبيون من جدوى دفاعهم ، وأحسوا أن القدس مأخوذة منهم وأن المسلمين لن يدعوها ، عند ذلك بدأوا التفاوض مع صلاح الدين على تسليم البلد ، وهنا ذكرهم صلاح الدين بما فعلوه بأهلها عندما احتلوها قبل تسعين عامًا تقريبًا ، فخشى الصليبيون

أن يقتلوا كلهم كما فعلوا بالمسلمين ، عند ذلك هددوا بحرق المدينة وقتل من عندهم من أسرى المسلمين وتخريب الصخرة وما بقى من المسجد الأقصى وقتل أهلهم والخروج على المسلمين مستميتين للقتال ، فاستشار صلاح الدين العلماء والقواد ، فاشاروا عليه بتأمين الناس على أن يدفع كل واحد منهم مقدارًا محددًا من المال ويسمح له بالخروج ، ويعطى الناس مهلة أربعين يومًا لمن أراد الخروج منهم بهذه الشروط ، وتم تسليم المدينة يوم الجمعة ٢٧ رجب ٥٨٣هـ الموافق ٢ من نوفمبر (١١٨٧م)(٣٧) ، وكان يوما مشهودًا علا فيه صوت التكبير والتهليل والتحميد فى مختلف أنحاء القدس ، وتوجه المسلمون إلى المسجد الأقصى وطهروه من بقايا عبث النصارى(٣٨) .

ثم يواصل ياقوت حديثه عن بيت المقدس بقوله : « وهى الآن فى يد بنى أيوب ، والمستولى عليهم الآن منهم الملك المعظم عيسى بن العادل أبى بكر بن أيوب(٣٩) ، وكانوا قد أحكموا سوره وعمروه وجودوه ، فلما خرج الأفرنج فى سنة ٦١٦ وتملكوا دمياط استظهر الملك المعظم بخراب سوره وقال : نحن لا نمنع البلدان بالأسوار إنما نمنعها بالسيوف والأساورة ، وهذا كاف فى خبرها وليس كل ما أجده أكتبه ولو فعلت ذلك لم يتسع لى زمانى ، وفى المسجد أماكن كثيرة وأوصاف عجيبة لا تتصور إلا بالمشاهدة عيانًا ، ومن أعظم محاسنة أنه إذا جلس إنسان فيه فى أى موضع منه يرى أن ذلك الموضع هو أحسن المواضع وأشرحها ، ولذلك قيل إن الله نظر إليه بعين الجمال ونظر إلى المسجد الحرام بعين الجلال :

أهيم بقاع القدس ما هبت الصبا ، فتلك رباع الأنس فى زمن الصبا
وما زلت فى شوقى إليها مواصلاً سلامى على تلك المعاهد والربى(٤٠)

يقول ياقوت بعد ذلك « والحمد لله الذى وفقنى لزيارته »(٤١) .

ثم إن مما تميز به معجم البلدان ومما يعد من ملامحه البارزة أن مؤلفه إذا كتب عن موضع من المواضع يذكر جملة ممن نبغ فيه من العلماء والأدباء والمشاهير مترجمًا لهم باختصار . وهو اختصار يتضمن تاريخ الحياة والوفاة أحيانًا ، كما يشير أحيانًا إلى العلوم والفنون والمعارف التى اشتهر فيها هذا العلم ، وإذا كان العلم شاعرًا ، فإنه يورد له نماذج من شعره كما سجله فى حديثه عن بيت المقدس ، فقد قال : « وينسب إلى بيت المقدس جماعة من العباد الصالحين والفقهاء منهم نصر بن إبراهيم بن نصر بن إبراهيم بن داود أبو الفتح المقدسى الفقيه الشافعى الزاهد أصله من طرابلس وسكن بيت المقدس ودرس بها وكان قد سمع بدمشق من أبى الحسن السمسار وأبى الحسن محمد بن عوف وابن سعدان وابن شكران وأبى القاسم وابن الطبرى ، وسمع بأمد هبة الله بن سليمان وسليم بن أيوب بصور وعليه فقه وعلى محمد بن البيان الكازرونى ، وروى عنه أبو بكر الخطيب وعمر بن عبد الكريم الدهسانى وأبو القاسم النسيب وأبو الفتح نصر الله اللاذقى وأبو محمد بن طاووس وجماعة ، وكان قدم دمشق فى سنة ٧١ فى نصف صفر ثم خرج إلى صور وأقام بها نحو عشر سنين ثم قدم دمشق سنة ٨٠ فأقام بها يحدث ويدرس إلى أن مات ، وكان فقيهًا فاضلاً زاهدًا عابدًا ورعًا أقام بدمشق ولم يقبل لأحد من أهلها صلة ، وكان يقتات من غلة تحمل إليه من أرض كانت له بنابلس وكان يخبز له منها كل يوم قرص فى جانب الكانون ، وكان متقللاً متزهدًا عجيب الأمر فى ذلك ، وكان يقول درست على الفقيه سليم من سنة ٣٧ إلى سنة ٤٠ ما فاتنى فيها درس ولا إعادة ولا وجعت إلا يوما واحدًا وعوفيت ، وسئل كم فى ضمن التعليقة التى صنفها من جزء ، فقال : نحو ثلثمائة جزء وما كتبت منها حرفًا وأنا على غير وضوء ، أو كما قال : وزاره تاج الدولة تتش بن ألب أرسلان يومًا فلم يقم إليه وسأله عن أحل الأموال السلطانية فقال : أموال الجزية ، فخرج من عنده وأرسل إليه بمبلغ من المال وقال له : هذا من مال الجزية ، ففرقه على الصحاب ولم يقبله وقال : لا حاجة لنا إليه ، فلما ذهب الرسول لامه الفقيه أبو الفتح نصر الله بن محمد وقال له : قد علمت حاجتنا إليه فلو كنت قبلته

وفرقته فينا ، فقال : لا تجزع من فوته فلسوف يأتيك من الدنيا ما يكفيك فيما بعد ، فكان كما تفرس فيه ، وذكر بعض أهل العلم قال : صحبت أبا المعالى الجوينى بخراسان ثم قدمت العراق فصبحت الشيخ أبا إسحاق الشيرازى فكانت طريقته عندى أفضل من طريقة الجوينى ، ثم قدمت الشام فرأيت الفقيه أبا الفتح فكانت طريقته أحسن من طريقتهما جميعًا ، وتوفى الشيخ أبو الفتح يوم الثلاثاء التاسع من المحرم سنة ٤٩٠ بدمشق ودفن بباب الصغير ، ولم تر جنازة أوفر خلقًا من جنازته ، رحمة الله عليه؛ ومحمد بن طاهر بن على بن أحمد أبو الفضل المقدسى الحافظ ويعرف بابن القيسرانى ، طاف فى طلب الحديث وسمع بالشام وبمصر والعراق وخراسان والجبل وفارس ، وسمع بمصر من الجبائى وأبى الحسن الخلعى ، قال : وسمعت أبا القاسم إسماعيل بن محمد بن الفضل الحافظ يقول : أحفظ من رائية محمد بن طاهر ما هو هذا :

إلى كم أمنى النفس بالقرب واللقا ... بيوم إلى يوم وشهر إلى شهر ؟
وحتام لا أحظى بوصل أحبتى ... وأشكو إليهم ما لقيت من الهجر ؟
فلو كان قلبى من حديد أذابه ... فراقكم أو كان من صالب الصخر
ولما رأيت البين يزداد والنوى ... تمثلت بيتًا فى سالف الدهر
متى يستريح القلب ، والقلب متعب، ... ببين على بين وهجر على هجر ؟

قال الحافظ : سمعت أبا العلاء الحسن بن أحمد الهمذانى الحافظ ببغداد يذكر أن أبا الفضل ابتلى بهوى أمرأه من أهل الرستاق كانت تسكن قرية على ستة فراسخ فكان يذهب كل ليلة فيرقبها فيراها تنزل فى ضوء السراج ثم يرجع إلى هذان فكان يمشى كل يوم وليلة اثنى عشر فرسخًا ، ومات ابن طاهر ودفن عند القبر الذى على جبلها يقال له قبر رابعة العدوية وليس هو بقبرها إنما قبرها بالبصرة وإما القبر الذى هناك فهو قبر رابعة زوجة أحمد بن أبى الحوارى الكاتب وقد اشتبه على الناس »(٤٢) .

وهنا أشير إلى أنه من خلال إطلاعي على هذا الكتاب لياقوت الحموى ومن خلال هذه المحاولة للإفادة مما أورده من أخبار وآثار تاريخية مهمة لموضع من المواضع التى كتب عنها تبين لى ضرورة الالتفات لمثل هذا المصدر وغيره كثير من كتب التراث الإسلامى الزاخرة بالمعلومات التاريخية القيمة ، وليس بالضرورة العكوف على كتب المؤرخين وتكرار الرجوع إليه وإهمال المصادر الأدبية والجغرافية ، فالحقيقة التاريخية مباحة من أى مصدر لها .

الهوامش

(١) له ترجمة وافية فى المصادر الآتية : (القفطى ، إنباه الرواة على أنباه النحاة ، ٤ /٨ ، المنذرى ، التكملة لوفيات النقلة ، ٣ / ٢٤٩ - ت ٢٥٦ ؛ ابن خلكان ، وفيات الأعيان ٥/١٧٨ - ١٨٩ ، ت ٧٦١ ؛ الذهبى ، سير أعلام النبلاء ٢٢/٣١٢ ، ت ١٨٨ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ٦/١٥٢ ؛ ابن العماد الحنبلى ، شذرات الذهب ٥/١٢١ - ١٢٢) .

(٢) ياقوت المعجم ، ٥ / ١١٤ .

(٣) مختصر تاريخ العرب / ٣٤٤

(٤) القفطى ، إنباه الرواة ، ٤ / ٩٠

(٥) المعجم ، ١ / ١٥ .

(٦) ص ١٣١ .

(٧) اغناطيوس يوليانوفتش كراتشكوفسكى : تاريخ الأدب الجغرافى العربى ، القسم الأول ، نقله إلى العربية : صلاح الدين عثمان هاشم ، القاهرة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٣٨٣ هـ (١٩٦٣م) . ص ٣٣٢ .

(٨) المعجم ، ٥ / ١٦٦ .

(٩) الآية (٧١) من سورة الأنبياء ، وقد أشار الطبرى فى تفسيره لهذه الآية إلى أن الله نجى إبراهيم ولوطًا عليهما السلام إلى الأرض المباركة وهى أرض الشام ومنها بيت المقدس فرارًا من أرض العراق من نمرود وقومه (جامع البيان عن تأويل أى القرآن لأبى جعفر محمد بن جرير الطبرى (ت ٣١٠ هـ/ ٩٢٣م) تحقيق : محمود شاكر ، القاهرة ، دار المعارف ، ٩ /٤٤) .

(١٠) من آية (٨٠) سورة طه .

(١١) الآية (٥٠) سورة المؤمنون .

(١٢) من آية (١) سورة الإسراء ، وقد أشار شهاب الدين المقدسى إلى أنه لو لم يكن للمسجد الأقصى فضيلة إلا هذه الآية العظيمة لكانت كافية لأن الله تعالى نوه بأمره فى كتابه العزيز ، وجعله طريق حبيبه ﷺ لما أراد أن يعرج به إلى السماء . (شهاب الدين أبو محمود أحمد بن محمد المقدس الشافعى ، كتاب مثير الغرام إلى زيارة القدس والشام المخطوطة السابعة ضمن كتاب : فضائل بيت المقدس فى مخطوطات عربية قديمة للدكتور / محمود إبراهيم ، منشورات معهد المخطوطات العربية ، الكويت ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٥ م . ص ٣٣٩) .

(١٣) آية ٣٦ سورة النور .

(١٤) المعجم ، ٥ /١٦٦ .

(١٥) وقد وردت فى معنى هذا الحديث أحاديث كثيرة مع اختلاف فى ألفاظها فمرة ترد : مسجد الأقصى ، وأخرى مسجد إيلياء ، وثالثة مسجد بيت المقدس وهى غالبها ، وقد رويت معظم أحاديث « لا تشد الرحال » من طرق صحيحة . (وقد عقد لها الرفاعى صاحب كتاب الأحاديث الواردة فى فضائل المدينة فصلاً كاملاً فى رسالته التى قدمها لنيل درجة الدكتوراه من شعبه السنة بقسم الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة ، ط١ (١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م) ص ٤٣٨ - ٤٥٥ .

(١٦) وقد ورد هذا الحديث فى حديث ميمونة بنت سعد مولاة النبى ﷺ بنص آخر عن النبى ﷺ أن « الصلاة فيه - يعنى بيت المقدس - كألف صلاة فيما سواه » (الضياء المقدسى ، محمد بن عبد الواحد بن أحمد المقدسى الحنبلى : فضائل بيت المقدس (ت ٦٤٣هـ/ ١٢٤٥م) تحقيق : محمد مطيع الحافظ ، دمشق ، دار الفكرة ، ١٤٠٥ هـ ، ١٧ .

(١٧) ذكر الزركشى فى إعلام الساجد أن نبينا سليمان - عليه السلام - لما أتم بناء المسجد الأقصى أوحى الله إليه بقوله : سلنى أعطك ، قال : أسألك ثلاث خصال . حكمًا يصادف حكمك ، وملكًا لا ينبغى لأحد من بعدى ، ومن أتى هذا البيت لا يريد إلا الصلاة فيه خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه قال رسول الله ﷺ : أما اثنتين فقد أعطيهما . وأنا أرجو أن يكون قد أعطى الثالثة (الزركشى ، محمد بن عبد الله الزركشى ، ت ٧٩٤هـ / ١٣٩٢م - أعلام الساجد بأحكام المساجد ، تحقيق ، أبو الوفاء مصطفى المراغى ، ط٢ ، القاهرة مطابع الأهرام التجارية ، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م ، ص ٢٨٢) .

(١٨) نقل الزركشى عن عطاء الخراسانى قوله : بيت المقدس بنته الأنبياء وعمرته الأنبياء ووالله ما فيه موضع شبر إلا وقد سجد فيه نبى (المصدر نفسه ، ص ٢٨٣) .

(١٩) هو ابى بن كعب بن قيس ، من بنى النجار كناه النبى ﷺ أبا المنذر ، شهد العقبة وبدرًا ، وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول : أبى سد المسلمين : روى عنه عبادة بن الصامت وابن عباس وغيرهما ، وهو أول من كتب لرسول الله ﷺ بالمدينة . اختلف فى تاريخ وفاته ، والأرجح أنه توفى سنة ٣٠هـ (ابن الأثير ، عز الدين . أسد الغابة فى معرفة الصحابة ، القاهرة ، ١٩٧٠م ١/٦١ وما بعدها) .

(٢٠) المعجم ، ٥ /١٦٦ - ١٦٨ .

(٢١) كذا وردت فى الأصل ، ولعلها : وما مثلك ليستقيم المعنى .

(٢٢) المعجم ، ٥ /١٦٨ - ١٦٩ .

(٢٣) المعجم ، ٥/١٦٨ - ١٧٠ .

(٢٤) السيد محمد ديب : ياقوت الحموى أديبًا وناقدًا ، القاهرة ، دار الطباعة المحمدية ، ١٤٠٩هـ / ١٩٨٨م ، ص ١١١ .

(٢٥) المعجم ، ٥ /١٧٠ - ١٧١ .

(٢٦) خليفة بن خياط : تاريخه ١٣٤ ، البلاذرى : فتوح البلدان ١٤٤ ، الطبرى : تاريخه ج ١٥٧/٤ ابن الأثير : الكامل ج٢/٤٩٨ .

(٢٧) البلاذرى : فتوح البدان ١٤٤ : الطبرى : تاريخه ج١٢٨/٤ ، ابن الأثير : الكامل ٢/٥٠٠ .

(٢٨) الذهبى : سير أعلام النبلاء ج١/٣٥٧ .

(٢٩) البلاذرى : فتوح البلدان ١٤٥ وانظر نص العهد معهم فى الطبرى : ج٤ / ١٥٩ .

(٣٠) خليفة بن خياط : تاريخه ١٣٥ ، ابن أعثم : الفتوح ج١ / ٢٢٩ ، الطبرى : تاريخه ج٤ / ١٦١ ، ابن الأثير : الكامل ج٢ / ٥٠١

(٣١) عبد العزيز العمرى ، الفتوح الإسلامية عبر العصور ، الرياض ، دار إشبيليا ، ١٤١٨ هـ/ ١٩٩٧م ، ١٣٧ - ١٤٠ ، وقد أورد قصة هذا الفتح كاملة استنادًا على المصادر التاريخية الأولية .

(٣٢) ورد الاسم هنا (سكمان) بالكاف ، ويرد أحيانًا فى المصادر بالقاف (سقمان) وهو الأشهر . (٣٣) تشير المصادر إلى أن الفاطميين بمصر كانوا يرقبون تقدم الصليبيين إلى المنطقة، وهم مسرورون بما حل بأعدائهم التقليديين السلاجقة ، وبمعنى أوسع العباسيين من خراب ودمار ، ورأوا أن ذلك سيحقق لهم مكاسب ثمنية فى مقدمتها استرداد ما ضاع منهم فى بلاد الشام من مواقع، سيما وأن الجبهة العباسية أنذاك فى حالة من التمزق والتناحر ، وأنهم قرروا بزعامة الأفضل بن بدر الجمالى الوزير الفاطمى الهجوم على بيت المقدس والاستيلاء عليه بحجة أنه كان أحد أملاكهم فى السابق ، ولما له من مكانة دينية فى نفوس المسلمين ، وقد كان يحكم بيت المقدس من قبل السلاجقة سقمان ، وإيلغازى ابنا ارتق بن أكسب ، فأرسل إليهما الوزير الفاطمى الأفضل يطلب منهما تسليم البلد دون الحاجة إلى سفك الدماء ، فأبيا ذلك

وصمما على المواجهة والصمود ، فقام الأفضل فى شعبان سنة ٤٩١هـ / ١٠٩٨م) بحصار بيت المقدس ونصب عليها ما يربو على أربعين منجيقًا ، وداوم فى حصارها أكثر من أربعين يومًا ، إلى أن هدم جانب كبير من سورها ، فاضطر ابنا أرتق ، أمام هذا الضغط ، وبسبب عجز بقية السلاجقة من امدادها لانشغالهم بأنفسهم وارتباكهم أمام سقوط أنطاكية ، اضطرا إلى تسليم المدينة . وتسلمها الأفضل فى الخامس والعشرين من رمضان سنة ٣٩١ هـ/١٠٩٨م، وأحسن إلى ابنى أرتق وإلى أقاربهما ، ولم يمسهما بسوء ، ورحلا منها إلى دمشق فعاد بذلك بيت المقدس إلى دائرة النفوذ الفاطمى مرة أخرى (ابن القلانسى ، تاريخ دمشق ٢٢١ : ابن ميسر ، أخبار مصر ، ٢ / ٣٨)

(٣٤) المعجم ، ٥ / ١٧١ .

(٣٥) لمزيد من التفصيلات عن هذه الفتوح ، انظر : (ابن الأثير ، الكامل ، ١١/٥٣٨ - ٥٤٧ ، ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ٧٩ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، ١٢ / ٣٢٢ - ٣٢٣ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، ٢ / ١٩٥ - ٢١٣) .

(٣٦) ابن الأثير : الكامل ج١١/٥٤٧ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج٢/٢١١ ، ابن كثير : البداية والنهاية ج١٢/٣٢٣ ، وأبو شامة : الروضتين ج٢/٩٤ .

(٣٧) انظر : ابن الأثير : الكامل ج١١/٥٤٧ ، ابن واصل : مفرج الكروب ج٢/٢١٢ ، ابن الأثير: البداية والنهاية ج١٢ /٣٢٣ ، قدرى قلعجى : صلاح الدين الأيوبى ٣٣٠ .

(٣٨) انظر : ابن الأثير : الكامل ج١١/٥٤٩ ، ابن واصل : مفرج الكروب ج٢/٢١٤ ، ابن الكثير: البداية والنهاية ج١٢ /٣٢٣ ، أبو شامة : الروضتين ، ج٢/٩٨ ، ابن خلكان وفيات الأعيان ج٧ /١٧٩ ، المقريزى : السلوك ق١ ج١/١٢٢ ، قدرى قلعجى : صلاح الدين الأيوبى ٣٣٧ .

(٣٩) عبد العزيز العمرى ، الفتوح الإسلامية ، ٢٨٠ - ٢٨٩ ، وقد أورد تفصيلات هذا الفتح كاملة استنادًا على المصادر التاريخية الأولية .

(٤٠) تتضح من ذلك سنة زيارة ياقوت إلى بيت المقدس أنها كانت زمن حكم الملك المعظم عيسى بن الملك العادل الأيوبى الذى حكم بين سنى (٥٩٢ - ٦٢٤هـ/ ١١٩٦ - ١٢٢٧م) .

(٤١) المعجم ، ٥/١٧١ .

(٤٢) نفسه ، ٥/١٧١ .

المصادر والمراجع

أولاً : المصادر :

- ابن **الأثير** ، على بن أبى الكرم محمد الشيبانى الجزرى عز الدين (ت ٦٣٠ هـ/ ١٢٣٢م) .

١ - الكامل فى التاريخ ، ط ٤ ، دار الكتاب العربى ، بيروت ، ١٤٠٣ هـ (١٩٨٣م) .

٢ - أسد الغابة فى معرفة الصحابة ، القاهرة ، ١٩٧٠م .

-- ابن أعثم **الكوفى** ، أبو محمد أحمد (ت ٣١٤ هـ / ٩٢٦م) .

الفتوح ، حيدر أباد الدكن ، (١٣٨٨هـ) .

-- **البلاذرى** ، أبو الحسن أحمد بن يحيى بن جابر (ت : ٢٧٩ - ٨٦٤م)

فتوح البلدان ، راجعه وعلق عليه : رضوان محمود رضوان ، بيروت ، دار الكتب العلمية ١٣٩٨هـ (١٩٧٨م) .

-- ابن **تغرى بردى** ، جمال الدين أبو المحاسن يوسف الأتابكى (ت ٨٧٤هـ / ١٤٦٩ م) .

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب منشورات لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة .

-- ابن **خلكان** ، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبى بكر (ت ٦٨١هـ/ ١٢٨٢م) .

وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، تحقيق د . إحسان عباس ط دار صادر بيروت ، ١٩٧٢م .

-- **خليفة بن خياط** ، ابن أبى هبيرة الليثى العصفرى (ت ٢٤٠هـ / ٨٥٤م) .

التاريخ ، تحقيق : أكرم ضياء العمرى ، ط٢ ، بيروت ، دار القلم ، مؤسسة الرسالة ١٣٩٧ هـ (١٩٧٧م) .

- **الذهبى** ، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان (ت ٧٤٨هـ/ ١٣٤٨م) .

سير أعلام النبلاء أجزاء متفرقة ، الإشراف العام على التحقيق وتخريج الأحاديث شعيب الرنؤوط ، ط٢ ، مؤسسة الرسالة بيروت ، (١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥م) .

- **الزركشى** ، محمد بن عبد الله الزركشى ، (ت ٧٩٤هـ/١٣٩٢م) إعلام الساجد بأحكام المساجد ، تحقيق ، أبو الوفاء مصطفى المراغى ، ط٢ ، القاهرة مطابع الأهرام التجارية ، (١٤٠٣ هـ/ ١٩٨٢م) .

- **أبو شامة** ، شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسى (ت٦٦٥هـ/١٢٦٦م) .

كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين النورية والصلاحية ، نشر وتحقيق : محمد حلمى أحمد ، القاهرة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر (١٩٥٦م) .

- **ابن شداد** ، يوسف بن رافع بن تميم الأسدى أبو المحاسن بهاء الدين (ت٦٣٢هـ/١٢٣٤م) .

النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ، تحقيق : جمال الدين الشيال ، القاهرة الدار المصرية للتأليف والترجمة (١٩٦٤م) .

- **الضياء المقدسى** : محمد بن عبد الواحد بن أحمد المقدسى الحنبلى .

فضائل بيت المقدس (ت ٦٤٣هـ / ١٢٤٥م) تحقيق : محمد مطيع الحافظ ، دمشق ، دار الفكر ، ١٤٠٥هـ .

- **الطبرى** ، أبو جعفر محمد بن جرير (ت ٣١٠هـ / ٩٢٣ م) .

١ - جامع البيان عن تأويل أى القرآن . تحقيق : محمود شاكر ، القاهرة ، دار المعارف (د . ت) .
٢ - تاريخ الأمم والملوك ، بيروت (د . ت) .

- - **ابن العماد الحنبلى** ، أبو الفلاح عبد الحى الحنبلى (ت ١٠٨٩هـ/ ١٦٧٨م).
شذرات الذهب فى أخبار من ذهب . ط١ ، بيروت ، دار الفكر (١٣٩٩هـ).

- - **القفطى** ، الوزير جمال الدين أبو المحسن على بن القاضى الأشرف يوسف (ت٦٤٦هـ / ١٢٤٨م) .
إنباه الرواة على إنباه النحاة ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، القاهرة ، ط١ دار الفكر العربى ، بيروت مؤسسة الكتب الثقافية (١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م) .

- - **ابن القلانسى** ، أبو يعلى حمزة بن أسد بن على التميمى الدمشقى (٥٥٥هـ / ١١٦٠م) .
تاريخ دمشق ، تحقيق سهيل زكار ، دمشق ، دار حسان ، ١٤٠٣هـ .

- - **ابن كثير** ، أبو الفداء إسماعيل بن عمر القرشى الدمشقى (ت ٧٧٤هـ / ١٣٧٢م) .
البداية والنهاية ، ط٢ ، بيروت ، مكتبة المعارف ، ١٩٧٧م .

- - **المقدسى** ، شهاب الدين أبو محمود أحمد بن محمد المقدسى الشافعى ، كتاب مثير الغرام إلى زيارة القدس والشام ، المخطوطة السابعة ضمن كتاب : فضائل بيت المقدس فى مخطوطات عربية قديمة للدكتور / محمود إبراهيم ، منشورات معهد المخطوطات العربية ، الكويت ، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٥م .

- - **المقريزى** ، تقى الدين أحمد بن على (ت : ٨٤٥هـ/ ١٤٤١م) .
كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك ، ط٢ نشر محمد مصطفى زيادة ، القاهرة لجنة التأليف والترجمة والنشر (١٩٧٠م) .

- **المنذرى** ، زكى الدين أبو محمد بن عبد العظيم بن عبد القوى (ت٦٥٦هـ/١٢٥٨م) .
التكملة لوفيات النقلة ، تحقيق وتعليق : بشار عواد معروف ، بيروت ، مؤسسة الرسالة ، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٤ م .

- **ابن ميسر** ، محمد بن على بن يوسف بن جلب (ت : ٦٦٧ هـ/ ١٢٧٨م)
أخبار مصر ، القاهرة ، المعهد العلمى الفرنسى بمصر (١٩١٩م) .

- **ابن واصل** : جمال الدين محمد بن سالم الحموى (ت ٦٩٧ هـ/ ١٢٩٧م).
مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب ، تحقيق جمال الدين الشيال ، ط القاهرة (١٩٥٣م) .

- **ياقوت الحموى** : شهاب الدين أبو عبد الله (ت ٦٢٦هـ / ١٢٢٨م)
معجم البلدان ، بيروت دار صادر ، بيروت ١٤٠٤ هـ/ ١٩٨٤م .

ثانيا : المراجع :

- **اغناطيوس كراتشكوفسكى** ، تاريخ الأدب الجغرافى العربى ، القسم الأول ، نقله إلى العربية : صلاح الدين عثمان هاشم ، القاهرة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٣٨٣هـ/١٩٦٣م .

- **صالح بن حامد الرفاعى** : فضائل المدينة « رسالة دكتوراه من شعبة السنة بقسم الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة » ط (١٤١٣ هـ/ ١٩٩٢م) .

- **سيد أمير على** ، مختصر تاريخ العرب ، بيروت ، دار العلم للملايين ط٢ (١٣٨٧هـ) .

- **السيد محمد ديب** ، ياقوت الحموى أديبًا وناقدًا ، القاهرة ، دار الطباعة المحمدية ، ١٤٠٩هـ / ١٩٨٨م .

- **صلاح الدين المنجد** ، أعلام التاريخ والجغرافيا عند العرب ، بيروت ، دار الكتاب الجديد ، ط٢ (١٣٩٨هـ) .
- **على أدهم** ، بعض مؤرخى الإسلام ، بيروت ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر (١٩٧٤م) .
- **قدرى قلعجى** ، صلاح الدين الأيوبى ، بيروت ، شركة المطبوعات(١٩٩٢م).

دور البصرة في الحركة الإباضية في القرنين الأول والثاني الهجريين

« دراسة تاريخية في ضوء السير العمانية »

د. حوريه عبده سلام

كلية الآداب - جامعة القاهرة

ارتبطت حركة الخوارج الإباضية بإقليم البصرة(١) ارتباطا وثيقًا منذ نشأتها، ورغم أن أحوال البصرة والحوادث التى شاركت فيها قد لقيت اهتمام الإخباريين والرواة الأوائل(٢) ، إلا أنه لا يمكن الاعتماد عليهم في التأريخ لحركة الخوارج ، ليس فقط لأن مؤلفاتهم لم تصل إلينا كاملة ، ولكن حركة الخوارج في نشأتها كانت حركة سرية ومن ثم فإن الاعتماد على هذه المصادر لايمد الباحث بالمعلومات التى تمكنه من الوقوف على جذور تلك الحركة ونشأتها وكيفية انتشارها .

ولا يزال تاريخ الخوارج في شرق الجزيرة العربية في القرنين الأول والثاني الهجرين بحاجة لإجلاء الغموض الذي يكتنفه . ولحسم الخلافات بين المؤرخين حول علاقة هذه المنطقة بمركز الخلافة .

ذلك أن إقليم البصرة شهد انتشارًا واسعًا لحركات سياسية معارضة أثمرت في إقليم عمان(٣) بظهور كيان سياسي منفصل عن الخلافة العباسية ، وهى بعد في مطلع قيامها ، أمتد إلى إقليم البحرين (٤) ، وكاظمة(٥) . ويمكن القول بأن أول حركات الاستقلال عن الخلافة العباسية في الشرق هو الإمامة الإباضية في البصرة سنة ١٣٢ هـ / ٧٤٨م أو ما يسمى وفقًا لمصطلح علماء الإباضية بإمامة الظهور(٦) . وهى المرحلة التى سبقتها مرحلة الستر والكتمان والتي تسمى وفقًا لاصطلاح الإباضية « مرحلة القعود » وقد لجأ الإباضيون إلى أسلوب

التخفي نتيجة لحملات الإبادة التى تعرضوا لها في البصرة في عهد زياد ين أبيه وابنه عبيد الله(٧) .

ولا تشير مصادر التاريخ العام إلى تاريخ محدد لبداية تلك التنظيمات السرية، كما أنها لا تشير إلى معلومات توضح العلاقة بين الخوارج الإباضية في البصرة وبين عبد الله بن الزبير أثناء خضوع البصرة للسلطة الزبيرية(٨) ٦٧ -٧١هـ / ٦٨٦ - ٦٩٠م . كذلك لا نجد أي إشارة لدور عبد الله بن إباض في النشاط السري للدعوة الإباضية التى عرفت به بعد ذلك في دور الظهور في الجانب الشرقي من شبه جزيرة العرب .

وكانت حركات الخوارج قد انقرضت في العراق منذ قيام الخلافة العباسية باستثناء فتن محلية محدودة الأثر سرعان ما أخمدت ، لتظهر بكل ثقلها في شرق الجزيرة العربية حيث أصبح للإباضية شأن هام في السياسية ، وظلت مكانتهم باقية إلى اليوم حتى بعد انتهاء دورهم السياسي(٩) .

ولا تشير مصادر التاريخ العام إلى معلومات توضح العلاقة بين الخوارج الإباضية في البصرة وبين عبد الله بن الزبير أثناء خضوع البصرة للسلطة الزبيرية ٦٧ - ٧١ هـ/ ٦٨٦ - ٦٩٠ م .

ولعل ذلك يرجع إلى أن التخفي والكتمان كان السمة السياسية للحركة الإباضية في هذه المرحلة المبكرة من نشأتها وهو ما يمسى بمرحلة (القعود) وقد لازم القعود الدعوة الإباضية في وقت خضوع البصرة لعبد الله ابن الزبير . واستمرت سياسة الكتمان حتى خلافة مروان الثاني عام ١٢٩هـ ٧٤٦م(١٠).

وقد لجأ الخوارج إلى هذا التنظيم السري منذ عهد الإمام جابر ين زيد ٢١ - ٩٣ هـ/ ٦٤١ - ٧١١م . كما أن هذه المصادرة لا تشير لأي دور لعبد الله بن إباض في النشاط السري للدعوة الإباضية(١١) .

وقد لجأ الإباضيون إلى هذا الأسلوب في التخفي نتيجة لحملات الإبادة التى تعرض لها الخوارج في البصرة في عهد زياد بن أبيه وابنه عبد الله(١٢) .

كذلك لا تشير المصادرة التاريخية العامة إلى تاريخ محدد لبداية التنظيمات السرية للخوارج في شرق الجزيرة العربية .

وقد كشفت الأبحاث التى اهتمت بالخوارج بصفة عامة وبإباضية عمان بصفة خاصة عن مخطوطات لم تكن معروفة من قبل في تاريخ شرق الجزيرة العربية(١٣) . حيث عبر أصحاب هذه المخطوطات عن وجهة نظرهم في الأحداث التى عاصروها أو التى سبقت عصرهم . وهذه المؤلفات هي التى عرفت باسم « السير العمانية »(١٤) .

وهذه السير رغم إيجازها - حيث أن معظمها لا يتجاوز العشرين أو الثلاثين ورقة تؤرخ لحركات الخوارج الإباضية في شرق الجزيرة العربية وقد اعتمد عليها صاحب كتاب « تحفة الأعيان في سيرة أهل عمان » بعد أن جمعها من أماكن متفرقة من إقليم عمان وأثبت سبعًا منها في كتابه(١٥) .

وأقدم تلك السير سيرة شبيب بن عطية العمانى الذي عاش في القرن الثاني الهجري ، وتولى إمامة الدعوة الإباضية الأولى ، وكتب انطباعاته عن حركة الخوارج مدافعًا عنها(١٦) .

ولما كان شبيب قد عاصر فترة تبلور الدعوة الإباضية ، فقد ناقش في سيرته مسائل سياسية هامة أهمها قضية اختلاف الإباضية مع غيرهم حول «قتال أهل البغى»(١٧) .

وتلى سيرة شبيب بن عطية زمنيًا سيرة أبى المؤثر الصلت بن خميس الخروصى(١٨) التى كتبها في مطلع القرن الثالث الهجري تحت عنوان « كتاب الأحداث والصفات » . وقد عاصر أبو المؤثر الإمام الإباضى الصلت بن مالك

وشهد بيعته سنة ٢٣٧هـ/ ٨٥١م وكان شاهد عيان سجل الإضطرابات السياسية التى أثارتها مسألة عزل الإمام وما أدت إليه من انتكاسة أصابت الحركة الإباضية أسفرت عن عودة عمان لطاعة الخلافة العباسية . كما أدت إلى انقسامات قبلية ومذهبية فيما يخص طبيعة الإمامة والظروف التى تستوجب عزل الإمام ، وقد شرح أبو المؤثر في مذكراته موقف الإمام الإباضى والظروف التى تستوجب عزله(١٩) .

وتلى سيرة أبى المؤثر سير أبى السن على بن البسيوىّ وهو من علماء القرن الخامس الهجري وعنوانها « الحجة على من أبطل السؤال في الحدث الواقع بعمان» . وقد اعتمد الإزكوى(٢٠) على هذه السيرة التى تتضمن وجهة نظر الإباضية في الخلافة وفى الفرق الإسلامية المختلفة . ويتناول شرح وجهة النظر الإباضية في إنكار شرعية الخلافتين الأموية والعباسية ويرى بأن الأئمة بعد الخلفاء الراشدين هم الأئمة الإباضية في عمان .

وقد انقسم المسلمون بعد مقتل على بن أبى طالب إلى أربعة فرق منهم من شايعه ورأوا طاعته عدل ، ومنهم من شكوا فيه وفى معاوية وفيمن قاتل معه وهم الشكاك ، والفرقة الثالثة هم العثمانية الذين طالبوا بدم عثمان وقاتلوا مع معاوية ، والفرقة الرابعة هم الذين فارقوا عثمان على إحداثه ومعاوية على بغيه ، وعلىّ على نكثه وقتله أصحابه ومضوا على الحق الذي مضى عليه المجاهدون والأنصار من الجهاد في سبيل الله والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . ويشير البسيوىّ إلى أوائل الخوارج ومن استشهد معهم في النهروان ثم ينتقل بالحديث إلى أئمة عمان ويذكر إمامة الجلندى أول إمام للإباضية وتعاقب الأئمة من بعده حتى الصلت بن مالك(٢١) ،

ويأتي كتاب مصباح الظلام لمؤلفه أحمد بن عبد الله بن أحمد الإزكوى في المرتبة الرابعة من هذه السير وهو من علماء القرن السادس الهجري ويحوى كتابه

قصيدة تتضمن سيرة أئمة الخوارج الإباضية العمانيين حتى إمامة الصلت بن مالك ٢٣٧ هـ وقد اعتمد فيها على روايات أبى المؤثر الصلت بن خميس من علماء القرن الثالث الهجري الذي نقل أخباره عن محمد بن الرحيل المتوفى سنة ٢٦٠ هـ ـ ٨٧٣م ، ولم تصلنا كتاباته(٢٢) .

أما السيرة الخامسة فمؤلفها سرحان بن سعيد الإزكوى . وقد نبه الدكتور/ فاروق عمر إلى أهمية هذه السيرة التى تقع في أربعين بابا وتهتم بتاريخ عمان بصفة عامة وبسيرة الأئمة الإباضية وجهودهم في نشر الفكر الإباضى بصفة خاصة. وقد استقى الإزكوى مادته من كتاب الدرجينى طبقات الإباضية ومن كتاب الشماخى كتاب سير الإباضية(٢٣) .

أما السيرة السادسة فمؤلفها سالم بن حمود بن شامس السيّابى السمائلى وعنوانها « إزالة الوعثاء عن أتباع أبى الشعثاء »(٢٤) .

وقد تناول مؤلف هذه السيرة تاريخ أئمة المذهب الإباضى وتاريخ الدعاة الأول للمذهب في اليمن وشمال إفريقية . كما ترجم لإمام الإباضية جابر بن زيد(٢٥) .

ومن خلال هذه السير سنحاول إلقاء الضوء على موضوعين أساسين في حركة الخوارج الإباضية في الفترة التى حددناها للدراسة ، أولهما دور البصرة كمركز لحركة الخوارج الإباضية . والموضوع الثاني انتقال مركز الدعوة إلى عمان ودور « جملة العلم » في نشر المذهب الإباضى في الأمصار الإسلامية وعلاقتهم بالبصرة .

وقبل أن نتناول هذين الموضوعين . نرى من الضرورى أن نتتبع نشأة الإمامة الإباضية من وجهة نظر كتاب السير ، فنقول :

اختلفت الآراء في تحديد تاريخ ظهور الإمامة الإباضية فيذكر الإزكوى أنها ظهرت سنة ١٢٩ هـ/ ٧٤٦م أي قبل سقوط الدولة الأموية ويؤيد في ذلك كل من الدرجينى(٢٦) والشماخى(٢٧) فقد أشار إلى أن الإمامة الإباضية قامت في حضر موت واليمن سنة ١٢٩هـ على يد عبد الله بن يحيى الكندي (طالب الحق)، حين أرسل قائدة أبا حمزة الشارى للمختار بن عوف الأزدى العمانى في موسم الحج من نفس العام للاستيلاء على الحجاز فتمكن من دخول مكة المكرمة وتوجهه منها إلى المدينة المنورة . إلا أن الأمويين نجحوا في القضاء على الإمامة الإباضية في حضر موت واليمن سنة ١٣٢ هـ/ سنة ٧٤٨م .

بينما يرى بعض المؤرخين أن هذه الإمامة لم تقم إلا بعد قيام الدولة العباسية بثلاث سنوات حين تولى إمامة الدعوة الإباضية الجلند بن مسعود بن جيفر سنة ١٣٥ هـ / سنة ٧٤٩ م(٢٨).

وفى رأينا أن مرد هذا الاختلاف في تحديد تاريخ ظهور الإمامة الإباضته يرجع إلى أن المحاولة الأولى لإقامة الإمامة الإباضية في حضر موت واليمن سنة ١٢٩ هـ سنة ٧٤٦م لم يقدر لها النجاح والاستمرار ، فلم يعتد المؤرخون بهذا التاريخ ، وأثبتوا لظهورها تاريخ نجاحها في المحاولة الثانية في عمان سنة ١٣٢ هـ/ ٧٤٦م . وهى المحاولة التى قادها إباضية عمان وتوحدت بها جبهة الإباضية جميعًا.

هذا عن تاريخ ظهور الإمامة الإباضية ، أما عن دور البصرة في حركة الخوارج الإباضية ، فإن هذا الدور يبدو واضحًا في جهود جابر بن زيد مؤسس المذهب الإباضى في البصرة الذي صنف الموسوعة الشهيرة في الفقه الإباضى التى عرفت باسمه(٢٩) .

ومن واقع السير العمانية يتضح أنه كان ثمة تنسيق بين دعاة الإباضية في البصرة ودعاة حضرموت . هذا التنسيق الذي كان وراء نجاح الإباضية

سنة١٢٩هـ/ ٧٤٦م حين تم اللقاء بين أبى حمزة مختار بن عوف الأزدى وعبد الله ابن يحيى الكندي (طالب الحق) سنة ١٢٨ هـ / ٧٤٥م في حضرموت(٣٠) .

وكان ذلك أحد ثمار الحركة السرية في البصرة التى تمكنت من كسب الأنصار والمؤيدين خارج البصرة وإعداد السلاح وإرساله إلى حضر موت لإقامة إمامة الظهور(٣١) .

وعلى ذلك فإن رواية الأزدى(٣٢) التى نص فيها على أن « أبا حمزة الخارجي لقي عبد الله بن يحيى فدعاه إلى مذهبه ، تكون قد جانبت الحقيقة ، ومما يؤكد ذلك أن عبد الله بن يحيى الكندي كتب إلى أبى عبيده مسلم بن أبى كريمة - وكان قد تولى أمر الدعوة بعد وفاة جابر بن زيد - يستأذنه في الخروج(٣٣) .

وقد أكد الإزكوى(٣٤) على الصلة بين مركز التنظيم في البصرة وبين مؤيدي الإباضية في حضرموت فأشار إلى أن أبا عبيده مسلم بن أبى كريمة قد أرسل القائد أبا حمزة مختار وبلج بن عقبة مع مجموعة من الجند الإباضى إلى عبد الله بن يحيى يشدون من أزره ويعدونه بالمساندة والتأييد بالعدد والرجال(٣٥) . وكان غالبية هذا الجيش من إباضية البصرة(٣٦) .

كذلك كان للبصرة دور كبير في نشر الدعوة في عمان ، وتؤكد الإباضية أن الجذور الأولى للدعوة في عمان ترجع إلى الوقت الذي حكم فيه الحجاج بن يوسف الثقفى العراق ٧٥ - ٩٥هـ/٦٩٤ - ٧١٣م فقد أدرك الحجاج خطورة جابر بن زيد ومسئوليته عن النشاط الإباضى السري المناهض للخلافة الأموية ومن ثم عمد إلى إقصائه عن البصرة ونفيه إلى عمان(٣٧) .

وبوصول جابر بن زيد إلى عمان التف حوله العمانيون من آل يحمد وغدت عمان من ذلك الوقت مركز الحركة الإباضية(٣٨) ، ، بينما تولى أمر الدعوة في البصرة أبو عبيده مسلم بن أبى كريمة خلفا لجابر بن زيد .

و لم تفقد البصرة رغم ذلك دورها في تدعيم الدعوة الإباضية فمنذ قيام أبى عبيده مسلم بأمر الدعوة أخذ يرسل الدعاة إلى الأمصار وحرص على أن يختار هؤلاء الدعاة من أهل الأمصار التى يوفدون إليها ومنذ عهده عرف هؤلاء الدعاة باسم « حملة العلم » .

وجه أبو عبيده مسلم إلى عمان دعاة عمانيين مما كان له أكبر الأثر في نجاح مهمتهم(٣٩) ، وقد اختلف كتاب السير في عدد حملة العلم الذين بعث بهم أبو عبيده مسلم من البصرة إلى عمان منذ مطلع القرن الثاني حتى منتصفه .

ويذكر المؤرخ الإباضى إطفيش أن حملة العلم الذين أرسلهم أبو عبيده إلى عمان أربعة هم محجوب بن الرحيل وموسى بن أبى جابر الإزكوى ، والمغير بن الدير ، وهاشم بن فيلان(٤٠) ، بينما يذكر العتبى(٤١) أن محمد بن المعلا الغشمى هو الذي تولى أمر الدعوة في عمان من قبل أبى عبيده مسلم ، وتبعه بعد ذلك في رئاسة الدعوة الربيع بن حبيب الفرهودى ، والمنير بن النير الرياحى ، ويشير بن المنذر النزاوى ، وجمعيهم من العمانيين .

ومن المرجح أن هؤلاء الدعاة جميعًا كانوا من أوائل حملة العلم الذين تولوا أمر نشر المذهب في عمان ، ذلك أنه من العسير الفصل بين الدعاة الذين تلقوا العلم عن أبى مسلم في البصرة ، وبين أولئك الذين تلقوا العلم على يد خليفته الربيع بن حبيب فضلاً عن أن رئاسة الدعوة في عمان كانت تتم كما أشار إلى ذلك السالمىّ باختيار الدعاة أنفسهم(٤٢) .

نظم أبو عبيده مسلم الدعوة تنظيمًا دقيقًا وحرص على اختيار حملة العلم الذين أوفدهم إلى الأمصار الإسلامية لنشرها . وكانت الدقة في التنظيم وراء نجاح الدعوة الإباضية في الوصول إلى الأمصار . ويؤكد المؤرخ الإباضى الورجلانى(٤٣) على الصلة الوثيقة بين مركز الدعوة في البصرة وبين دعاتها في الأمصار خاصة في بلاد المغرب في عهد الداعية المغربي سلمة بن سعيد .

ويذكر الدرجيني(٤٤) أن « أول من جاء يطلب مذهب الإباضية ونحن بقيروان إفريقية سلمة بن سعيد » ويذكر اشتغاله بالسقاية في سوق القيروان وقد وجد المسلمون من البربر في مبادئ الخوارج بأن الإمامة حق متاح لكل مسلم وليست حكرا على العرب وحدهم - تعبيرا عن نزعتهم الاستقلالية(٤٥) .

وعن طريق الداعية سلمة بن سعيد في أوائل القرن الثاني الهجري تمكن من نشر دعوته بين البربر واكتساب مؤيدين له في إقليم طرابلس وجبل نفوسه وكان حلقة الصلة بين حملة العلم في المغرب وبين أبى عبيده في البصرة ، كما دعا أبو الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافرى الإباضى إلى البصرة لتلقى علوم المذهب بها(٤٦) .

كما اعتنق عبد الرحمن بن رستم المذهب الإباضى في العقد الثالث من القرن الأول الهجري ، ثم أرشده أحد الدعاة إلى البصرة بقوله : « إذا كنت تريد علم هذا الأمر الذي كلفت به وأراك تطلبه فدونك أهل البصرة فإن بها عالما يكنى أبا عبيده واسمه مسلم بن أبى كريمة فإنك تجد عنده طلبك »(٤٧) .

وصل عبد الرحمن بن رستم إلى البصرة ومعه أربعة من دعاة الإباضة المغاربة وهم عاصم السدراتى وإسماعيل بن درار الغدامسى وأبو داود النفزاوى، وعبد الأعلى بن السمح المعافرى ، حيث تلقوا علوم المذهب على يد الداعية أبى عبيده الذي كان « مستخفيا تخوفًا من بعض أمراء البصرة فأدخلهم سربا جعل فيه سلسلة ، فصار يعمل القفاف بباب السرب فمتى ما رأى شخصًا مقبلاً حرك السلسلة فيسكتون ، فإذا انصرف حركها فيأخذون في دراستهم »(٤٨) .

وقد تمكن هؤلاء الدعاة من تلامذة أبى عبيده مسلم من نشر المذهب الإباضى في بلاد المغرب اتسمت حركتهم بالكتمان في أول الأمر ثم الظهور الذي توج جهودهم بقيام الدولة الرستمية الإباضية فما بعد في تاهرت(٤٩) ، عام ١٦٠هـ /٧٧٦م .

وازدهرت في تاهرت مدرسة فكرية إباضية في عهد الرستميين بقـدوم كثير من مشايخ الإباضية من البصرة اهتموا بكتابة مصنفات عديدة عن مذهب الخوارج الإباضيـة أودعـت مكتبـة تـاهرت التـى أطلقـت عليهـا الرسـتميون اسـم «المعصومة»(٥٠) .

وقد أشار ابن الرقيق القيروانى إلى دور دعاة الإباضية في نشر مبادئ الدعوة في بلاد المغرب(٥١) .

وقد حرص هؤلاء الدعاة على تدريس المذهب الإبـاضى في المسـجد الجـامع في تاهرت حيث كانوا يدرسون ما نسخوه عن إباضية البصرة(٥٢) .

كذلك كان ديوان نفوسه يحوى ثلاثمائـة وثلاثـين ألـف جـزء مـن مؤلفـات الدعاة المشارقة من أهمها ديوان الأشياخ(٥٣) الذي اشترك في تأليفه سبعة مـن العلمـاء ولا يزال هذا الكتاب محفوظا في خزائن وادى ميزاب في جنوب الجزائر(٥٤) .

واستمرت الصلة بين الدعوة في البصرة وبلاد المغرب وتؤكـد الرسـالة التـى بعثها أبو عبيده مسلم إلى الدعاة في المغرب على الصلة الوثيقة بـين إباضيـة المغـرب ومركز الدعوة في البصرة وقد أورد أبو غانم الخراسانى - من علمـاء القـرن الثـاني الهجري - هذه الرسالة وعنوانها « رسالة في الزكاة » كان أبـو عبيـده مسـلم قـد وجهها إلى الدعاة في المغرب ردا على رسالة بعثوا بها إليه يطلبون منه فتوى في أمر من أمور الزكاة ، وقد جاء في رسالة أبى عبيده : « ولعمرى لقد سرنى ما انتهيتـم إليه من أمركم وأن كان ذلـك لم يخـف عنـا نسـال الله العـون والتوفيـق في جميـع أموركم وأن يكفينا وإياكم بأسهم »(٥٥) .

واهتمت الخلافة العباسية بالتصدى لحركات الخوارج واستعانت بولاة مصر في قمع تلك الحركات التى كانت تهدد الحكم العباسى في إفريقية والمغرب ، والتي أخذت تشتد بانتهاء نفوذ الولاة من آل حبيب الفهرى وانتهز الخوارج الإباضية في

المناطق التابعة لطرابلس الفرصة وبايعوا أبا الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافرى إمام عليهم(٥٦) سنة ١٤٠هـ/ ٧٥٧م ، وامتـد نفوذهـم حتى المغرب الأوسـط . وإزاء هذا الموقف أسند أبو جعفر المنصور ولايـة إفريقيـة إلى والى مصـر محمـد بـن الأشعث الخزاعى ليتمكن من إخضاع الخوارج(٥٧) . فسير من مصر جيشًا بقيـادة أبى الأحوص عمر بن الأحوص لاسترجاع المغرب(٥٨) ،وقد أدى ذلك إلى تراجـع عبـد الأعلـى بـن السـمح المعـافرى عـن القـيروان والتقـى بـالجيش العباسـى عنــد تاروغا(٥٩) . ونشب القتال بين الفريقين ودارت الدائرة على أبـى الخطـاب عبـد الأعلى بن السمح المعافرى زعيـم الإباضيـة فقتـل مـع آلاف مـن جنـده ، وتعقـب جيش ابن الأشعث فلولهم(٦٠) . وأدى انتصار محمد بن الأشـعث سـنة ١٤٤ هــ/ ٧٦١م على الخوارج الإباضية إلى استعادة نفوذ الخلافة العباسـية في البـلاد بعـد أن سيطر الإباضية على إفريقية والمغرب الأدنى ما يقرب من أربـع سـنوات وإن كـان نفوذهم قد بقى في المغرب الأوسط والأقصى(٦١) .

وكانت الحركة الإباضية في البصرة قد ضعفت بعد وفاة أبى عبيده مسـلم ، فقد خلفه في إمامة الدعوة الربيع بن حبيب ولم يكن على نفس المهارة والقـدرة في تنظيم الدعوة كسلفة وأن كانت الصلة بينـه وبـين التنظيـم الإبـاضى في تـاهرت لم تنقطع(٦٢) . فقـد بعـث « بثلاثـة أحمـال مـالا »(٦٣) جمعهـا الدعـاة الإباضيـة في البصرة لإعانة إباضية تاهرت . كما كان يرسل لهم فتـواه في المسـائل التـى كـانت تعرض عليهم .

وبعد أن قضى الربيع بن حبيب معظم حياته في البصرة عاد إلى عمان حيـث توفى بها في العقد الأخـير مـن القـرن الثـاني الهجـري بعـد أن جمـع مبـادئ الفقـة الإباضى في كتابه « الجامع الصحيح »(٦٤) .

وإذا ما انتقلنا إلى الموضوع الثاني وهو انتقال مركز الدعوة إلى عمـان ودور حملة العلم في نشر المذهب الإباضى وعلاقتهم بالبصرة فتحدثنا المصادر العمانية عن

قيام الإمامة الإباضية الأولى في عمان سنة ١٣٢ هـ/ سنة ٧٤٨م كثمرة لجهود الدعاة في عمان . وأصبحت أكبر قوة سياسية بعمان ويشير إلى ذلك الإزكوى بقوله أن الخليفة المنصور « ولىّ على عمان محمد بن جناح فداهن الإباضية حتى صارت ولاية عمان لهم فعقدوا الإمامة للجلند بن مسعود وأخذ الدولة من يد أهل الجور وبرئ من الجبابرة »(٦٥) .

وقد ساندت القبائل الأزدية في عمان الإمام مساندة قوية «وأجمعوا على إمامته وولايته والمجاهدة معه أعداء الإسلام وعلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر»(٦٦) .

وكان أن حرصت الخلافة العباسية على التصدى لهذه الإمامة والسعى للقضاء عليها حتى تتمكن من فرض نفوذها على هذه المنطقة الهامة المتاخمة هذا في العراق ، فإذا كان الأمويون من قبل قد أدركوا خطورة قيام حركة معارضة لهم في هذا الإقليم فتصدوا لها بكل الوسائل ، فإن الخطورة أشد بالنسبة للعباسيين ، فالدولة العباسية بحكم ظروفها ونشأتها مشرقية الاتجاه ، مركز ثقلها في المشرق ، ومن ثم كان قيام حركة مناهضة لها في عمان يشكل خطرا بالغًا . فعمان تتصل شرقا بشرقي شبه الجزيرة العربية عن طريق السهل الساحلي أو عن طريق الوديان وتتصل شمالاً بالعراق ولا يفصلها عنه سوى البحرين(٦٧) .

وهذا الموقع الجغرافي المتميز أدى إلى اهتمام العباسيين بالأحداث الواقعة في عمان فلم يكد يمضى عامين على قيام الإمامة الإباضية بعمان حتى تمكنوا من إسقاطها سنة ١٣٤ هـ / سنة ٧٥٠م .

ويذكر الرقيشى في كتابه مصابح(٦٨) الظلام تكليف الخليفة العباسى السفاح لواليه على البصرة سليمان بن على بإعداد حملة لضرب الإمامة الإباضية الناشئة .

فأعد حملة بحرية لهذا الغرض ولى قيادتها حازم بن خزيمة(٦٩) .

وقام أباضية البصرة بجمع المال لمساندة الإمامة في عمان ولا يشير الطبري إلى هذه الحملة بل يذكر أن حملة والى البصرة العباسى قصدت « القضاء على الخوارج الصفرية الذين قادهم شيبان بن عبد العزيز اليشكرى الذي تقهقر بفلول أتباعه من الصفرية إلى جزيرة ابن كاوان » التي تقع بين البحرين وعمان(٧٠) .

والمرجح أن والى البصرة نفذ أوامر الخليفة فأرسل الحملة للمهمتين معا فبدأ بالمهمة الأولى في مواجهة الصفرية . الذين كانوا في ذلك في حالة من الضعف ، فتمكن جند العباسيين من إلحاق الهزيمة بهم ، واستكملت الحملة مهمتها متجهة إلى عمان حيث اشتبك القائد العباسى خازم بن خزيمة مع قوات الإمام الإباضى الجلندى التي كان يقودها يحى بن نجيح(٧١).

وتشير المصادر العمانية إلى محاولة قام بها الإباضية في عمان لضم عناصر من فلول الخوارج الصفرية إليهم لمواجهة قوات العباسيين إلا أن محاولتهم باءت بالفشل(٧٢). وبدأت المواجهة العسكرية بين الإباضية والعباسيين في منطقة جلفار شمال شرقي عمان(٧٣). انتصر الإباضيون أول الأمر على قوات الخلافة التي عجزت عن مواجهة الجند الإباضى على أرضه التي يعرف دروبها ومسالكها ، واستمرت المعركة سبعة أيام « وأكثروا القتل في الجند العباسى »(٧٤) فلجأ العباسيون إلى ضرب دور الإباضية وأحرقوها بمن فيها من نساء وأطفال فانصرف الإباضية إلى حماية بيوتهم فتشتت قواتهم واستطاع الجند العباسى النيل منهم وتمكنوا من قتل الإمام الإباضى الجلندى بن مسعود وهلال بن عطيه الخراسانى(٧٥).

غير أن هزيمة الإمامة الإباضية في هذه المعركة لم تكن سوى هزيمة عسكرية، إذا استمرت الدعوة في طريقها في الانتشار بين أتباعها .

وظهرت في تاريخ عمان في هذه الفترة ثلاث قوى سياسية أولها القوة العباسية التي تركزت على الساحل ، أما في الداخل فقد انقسمت عمان بين مؤيدي الدعوة الإباضية وبين القوى القبلية المنتشرة(٧٦) في إقليم عمان والتي تزعمتها جماعة آل الجلندى الذين انتقلت إليهم السلطة سنة ١٧٧ هـ / سنة ٧٩٣م نيابة عن الخلافة العباسية . فقد نشب الصراع بين القبائل الأزدية فتنازع بنو هنأة الذين أيدوا الجلندى وكانوا أنصارا للعباسيين مع بنى نافع من مؤيدي الإباضية .

تمكن الإمام عبد الله بن محمد بن(٧٧) عفان الإباضى الذي تولى أمر الدعوة من إخماد هذه الفتنة وكانت إمامته إمامة دفاع وليس كما نص عليهما السالمي بأنها إمامة « شرى »(٧٨) أى دفاع عن المذهب حتى تضع الحرب أوزارها ويظهر أمر الدعوة على أعدائها . ولم يحرز إجماع الإباضية على إمامته فلم « يكن إمام عدل متفق عليه وأنما قال بعضهم أنه إمام دفاع إلى أن تضع الحرب أوزارها بشرط »(٧٩) واستمرت أماته سنتين وشهر .

ومرت الدعوة الإباضية في عمان بمرحلة ثانية من الكتمان حتى تمكنت من طرد آل الجلندى حلفاء العباسيين وإعلان الإمامة الإباضية الثانية(٨٠) .

كان من أبرز أئمة الإباضية في هذه الفترة وارث بن كعب الخروصى ١٧٩ هـ / ٧٩٣ م الذي تمكن من بسط نفوذ الإباضية على الأجزاء الساحلية من عمان(٨١) . كما نجح في جمع كلمة رؤساء القبائل على إمامته بعد أن خلعوا طاعة الإمام محمد بن عبد الله بن أبى عفان .

ويذكر البسيوي(٨٢) أسباب خلع الإمام محمد بن عبد الله بن عفان بقوله « ظهرت منه أمور جفا فيها وجعل يستخف بحقوق أشياخ المسلمين » ولذلك لم يعده كتاب السير من بين الأئمة المعدودين في قائمة أئمة الدعوة .

كما يذكر أن الإباضية بايعوا وراث بن كعب على « ما بويع عليه أئمة العدل وعلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والشرى في سبيل الله وإظهار الحق وإخماد الباطل »(٨٣) .

وتمكن الإباضية في عهده من هزيمة الجيش العباسى الذي بعث به الخليفة هارون الرشيد بقيادة عيس بن جعفر بن أبى جعفر المنصور كما تشير إلى ذلك رواية الإزكوى(٨٤) .

وانتصر الإباضية بقيادة أبى حميد بن فلح الحمدانى الذي قاد حملة بحريه على القوات البحرية العباسية عند مدينة صحار(٨٥) . وأسر القائد العباسى عيس بن جعفر(٨٦) .

وكان لهذا الانتصار صدى كبير لدى أهل عمان ، وهو كسب سياسي للإمامة الإباضية التي ظلت قائمة بعد وفاة الإمام الخروصى سنة ١٩٢ هـ / ٨٠٧م وتمكنت من حكم عمان حكما مستقلا عن الخلافة العباسية حتى سنة ٢٨٠ هـ/ من قاعدتها في نزوى(٨٧) حيث بيت الإمامة الإباضية .

وبعد ، فلعلنا في هذه الدراسة نكون قد ألقينا الضوء - بقدر ما أتيح لنا في هذا المقال - على دور البصرة في الحركة الإباضية في القرنين الأول والثاني الهجرين . حيث كانت مركزا لهذه الحركة الإباضية ، ونجحت في إقامة إمامة مستقلة قبيل منتصف القرن الثاني الهجري في عمان . ولم تنقطع الصلة بين البصرة

وبين الأمصار الإسلامية ، وظل الدعاة على صلة مستمرة بمركز الدعوة بهـا حتى بعد انتقال قاعدة الإمامة إلى عمان . وكانت لهذه الصلة الوثيقة بين دعاة البصرة والدعاة في مختلف الأمصار التي توجهوا إليها أثر كبير فيما أحرزته الحركة الإباضية من النجاح خاصة في بلاد المغرب ، فقد كان التنظيم الإباضى في تاهرت يتلقى الدعم المادي والأدبي من دعاة البصرة مما مكنهم من السيطرة على إفريقية ما يقرب من أربع سنوات وأمتد نفوذهم إلى المغربين الأوسط والأقصى ثم وصل إلى أقص نجاحه عام ١٦٠ هـ / ٧٧٦م بقيام الدولة الرستمية الإباضية . وكانت مؤلفات مشايخ إباضية البصرة تدرس في المسجد الجامع بتاهرت .

الهوامش

(١) أسس القائد عتبة بن غزوان مدينة البصرة سنة ٦٣٧/١٦م لتكون معسكرًا لجنده بحكم موقعها المتميز علـى رأس الخليـج العربـى وتطـورت المدينـة طـوال القـرن الأول الهجـري وتوالت الهجرت إليها فيذكـر البـلاذرى أن « النـاس سـألوا عتبـة عـن البصـرة فأخـبرهم بخصبها فسار إليها خلق من الناس » فتوح البلـدان ص ٣٢٨ - ٣٢٩ . وكذلـك صـالح العلى : خطط البصرة ومنطقتها ص ٥١ مطبوعات المجمع العلى العراقي ١٩٨٦م .

(٢) أقدم هؤلاء الإخباريين هو أبو عبيدة معمر بن المثنـى البصـرى (ت ٢١٠ / ٨٢٥م) ولـه كتابان : البصرة ، وقضاة البصـرة ، وكذلـك علـى بـن محمـد المدائنـى (ت ٢٥٣ هـ م ٨٦٧م وأحمد بن يحيى جابر البلاذرى (ت ٢٧٩هـ) وكان فارس الأصل عاصر كل من الخليفة المتوكل والمستعين .

ياقوت الحموى ، معجم الأدباء جـ٥ ص ٨٩ - ٩٠ طبعة مصر سنة ١٣٥٥ هـ .

(٣) عمان « اسم كورة على ساحل الخليج شرقي هج تشمل بلدان كثيرة ذات نخل وزروع » ياقوت ، معجم البلدان جـ١ ص ١٥٠ ، ويذكر البلاذرى أن عتبة غزوان حين فتح الأبلة كتب إلى عمر بن الخطاب يخبره أن « الأبلة فرضة البحرين وعمان » . فتوح البلدان ص ٢٤٩ ويذكر سرحان بن سعيد الإزكوى أن الأزدسمت عمان بهـذا الاسـم لأن منـاز لهـا كانت على وادٍ لهم بمأرب يقال عمان فشبهوها به » . كشف الغمة الجامع لأخبار الأمـة ورقة ٣٢ . مخطوط مصور بدار الكتب المصرية رقم ١٧٩٧ .

(٤) يمتد إقليم البحرين من جنوبى البصرة إلى عمان وهو يتصل غربًـا باليمامـة وجنوبـا بعمـان وشمالاً بالبصرة وشرقا بالخليج . وقد أضاف ابن حوقل حـدودًا أوسـع لإقليـم البحريـن ، واعتبره امتدادًا طبيعيًا لنواحى نجد وبادية العراق وإقليم الجزيرة الفراتية .

صورة الأرض ص ٢٩ ، ووصفها الحميرى (أبو سعيد نشوان بن سـعيد) بقولـه « هـى بلاد واسعة شرقها ساحل البحر وجوفها متصل باليمامة ، وجنوبهـا متصـل ببـلاد عمـان وقاعدتها هجر » .

الروض المعطار في أخبار الأقطار ص٨٢ طبيعة بيروت سنة ١٩٧٨م .

(٥) كاظمة مدينة تقع على ساحل الخليج بين البصرة والقطيف تبعد عن البصرة مسـافة يومـين، الإدريس نزهة المشتاق جـ١ ص ١٦٢ . بيروت سنة ١٩٧٢م .

ويذكر ابن الفقيه أن كاظمة ميناء على ساحل الخليج ، صفة جزيرة العرب ص ٥٧ ويذكر البكرى أنه كان يربط كاظمة بالبلاد المحيطة بها أربعة طرق . معجم ما استعجم حـ٤ ص ٦ ، ويعتبر ياقوت كاظمة الحد الفاصل بين البحرين وعمان ، وتسمى كاظمة البحور وتشمل مدن « الخط والقطيف والأرة وهجر وبينونه والزارة وجواثا واللابور ودارين والعامة وقصبته هجر والصفاة والمسقر » ، معجم البلدان حـ٢ ص ٧٣ .

(٦) الإزكوى ، سرحان بن سعيد : كشف الغمة ورقة ٣٢ أ . وقد تسمى الخوارج الإباضية بهذا الاسم نسبة إلى عبد الله بن إباض التميمى ، ولم ينتسب الإباضية إلى أى من فقهائهم قبله ، وقد عاصر الإمام جابر بن زيد وأخذ عنه . ولم يعرف الخوارج بهذا الاسم إلا في خلافة عمر بن عبد العزيز ٩٩ - ١٠١هـ فقد أخذ عبد الله بن إباض يعلن مبادئ الخوارج جهرا .

الشهرستانى ، الملل والنحل - القاهرة ١٩٥٦م .

وكان الخوارج يطلقون على أنفسهم اسم الشراة وذلك من قولهم « شرينا أنفسنا لدين الله فنحن لذلك شراة » سالم بن حموى السيّابى : إزالة الوعثاء عن أتباع أبى الشعثاء ص ٤٧ تحقيق د. سيدة إسماعيل كاشف - القاهرة ١٩٧٩م .

كما يطلق الخوارج على أنفسهم « المسلمون » ويعرفون غيرهم باسم « أهل الخلاف » والخوارج هو الاسم الذى عرف به أنصار على بن أبى طالب الذين خرجوا عليه لقبوله التحكيم أى الاحتكام للقرآن الكريم حول أحقية كل من على بن أبى طالب ومعاوية بن أبى سفيان فى الخلافة . الطبرى ، تاريخ الأمم والملوك حـ٦ ص ٣١ القاهرة ١٩٧١ ، ابن رسته : الإعلان النفيسة ص ٧ ليدن ١٩٦٧م .

(٧) الشماخى : « أحمد بن أبى عثمان بن سعيد عبد الواحد : سير علماء ومشايخ جبل نفوسه ص ١٠٨ القاهرة سنة ١٣٢٠هـ .

(٨) المبرد ، محمد بن يزيد الأزدى الكامل في اللغة والآدب ص ١٦ تحقيق محمد أبو الفضل - القاهرة .

(٩) دائرة المعارف الإسلامية حـ٨ ص ٤٧٤ .

(١٠) الشماخى : السير ص ١٠٨ .

(١١) المبرد ، الكامل ص ١١٧ .

(12) Wilkinson, J. C : Arab settlement in Oman : the origins and development of the tribal pattern and its relationship to the Imamate. p. 10 - 12 D. phill, thesis Oxford, 1969.

(١٣) فاروق عمر ، تاريخ الخليج العربى فى العصور الإسلامية الوسطى ص ٢٧ - دار واسط بغداد سنة ١٩٨٦م .

(١٤) محمد عبد الله السالمى : تحفة الأعيان في سيرة أهل عمان جـ١ ص ١٢ الكويت سنة ١٩٧٤م

(١٥) يذكر السالمى أن شبيب بن عطية رد على قول الخلفاء العباسيين بأنهم ممثلوا جماعة المسلمين بقوله « قلنا لهم أليس يعملون أن تمكين دين الله إظهار حلال الله ، وإنكار حرامه وإتباع أحكام الله فإن قالوا : نعم فقد عرفوا أن ملوك قومهم قد أظهروا استحلال محارم الله وقاتلوا من أطاع الله . وإن قالوا : لا فيكيف تكون الجماعة على من عصا الله وقد قال الله تعالى « وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان » . تحفة الأعيان جـ١ ص ١٤ .

(١٦) الحارثى ، سالم بن حمد بن سليمان : العقود الفضية في أصول الإباضية ص ٢٥٥ - دار اليقظة السورية .

(١٧) الحارثى ، العقود الفضية في أصول الإمامة ص ٢٥٥ ، دار البقظة السورية .

(١٨) فاروق عمر ، تاريخ الخليج العربى العصور الإسلامية الوسطى ص ٢٤ دار واسط بغداد ١٩٨٦م .

(١٩) أحمد بن عبد الله بن أحمد بن الحسن الرقينى الإزكوى من علماء القرن السادس الهجرى السالمى ، تحفة الأعيان جـ١ ص ١٧ .

(٢٠) السالمى ، تحفة الأعيان جـ١ ص ١٨ - ١٩ .

(٢١) المصدر السابق جـ١ ص ١٧ .

(٢٢) فاروق عمر ، ببلوجرافيا في تاريخ عمان ، مجلة المورد المجلد الثالث العدد الرابع ص ١٤.

(٢٣) فاروق عمر ، ملامح من تاريخ الحركة الخارجية في عمان ، ص ١٧٥ مجلة المؤرخ العربى العدد ٢ ، بغداد ١٩٧٥ .

(٢٤) يذكر المقدسى أن حضر موت هى « قصبة الأحقاف موضوعة في الرمال عامرة نائية على الساحل أهلها لهم في العلم والخير رغبة إلا أنهم شراة » أحسن التقاسيم ص ٨٧ .

ويقع ميناء ظفار إلى الشرق من حضرموت ويمثل البوابة الجنوبية الهامة للخليج ، حيث أنها وسائر الموانىء العمانية الممتدة على ساحل البحر العربى يكونان معا مستودعا للتجارة الشرقية التى تقوم عليها الملاحة والتجارة بالخليج . د. حامد زيان غانم : الحياة في الخليج في العصور الوسطى ص ١٠ - دار القلم - دبى ١٩٨٥م .

(٢٥) عاش بين سنتى ١٣٢٦ - ١٣٢٧هـ وقد حققت الدكتورة سيدة إسماعيل كاشف هذا المخطوط عام ١٩٧٩م وقد اختار مؤلف الكتاب اسم أبى الشعثاء كناية عن الإمام الإباضى جابر بن زيد لأنه كان يكنى باسم ابنته الشعثاء . سيدة إسماعيل كاشف : إزالة الوعثاء عن إتباع أبى الشعثاء ص ٤٥ - ٤٦ - مطبعة جريدة عمان للصحافة والنشر ١٩٧٩م .

(٢٦) سالم بن حمرد السيابى السمائلى ، إزالة الوعناء عن أتباع أبى الشعتاء ص ٢.

(٢٧) الدرجينى : أبو العباس أحمد : طبقات الإباضية ورقة ٩٩ مخطوط مصور بدار الكتب المصرية رقم ١٢٥٦١.

(٢٨) الشماخى : أحمد بن أبى عثمان سعيد عبد الواحد : سير علماء ومشايخ جبل نفوسه ص ٧٩ القاهرة ١٣٢٠هـ .

(٢٩) الشماخى ، السير ص ١١٤ .

(٣٠) يذكر الشماخى أن أبا مودود حاجب بن مودود الطائى الذى تولى أمر الحرب قد فرض على الأغنياء أموالاً لصالح الدعوة « فجمع في يوم واحد عشرة آلاف درهم » السير ص ١١٤ .

(٣١) الأزدى ، أبو زكريا يزيد محمد القاسم ، تاريخ الموصل ص ١٧ - القاهرة ١٩٦٧م .

(٣٢) خليفة بن خياط ، تاريخ خليفة بن خياط جـ٢ ص ٣٧٣ تحقيق سهيل زكار دمشق ١٩٦٨م .

(٣٣) أحمد بن عبد الله بن أحمد الإزكوى ، مصباح الظلام ورقة ٣١ - ٣٢أ .

(٣٤) الإزكوى ، مصباح الظلام ورقة ٣١ - ٣٢ أ .

(٣٥) خليفة بن خياط ، كتاب التاريخ جـ٢ ص ٥٨٢ .

(٣٦) السيابى السمائلى ، إزالة الوعثاء عن إتباع أبى الشعثاء ص ٣٠ .

(٣٧) شهدت عمان هجرة فروع كثير من قبائل الأزد القحطانية كانت بها بطون كثيرة من آل يحمد التى ينتمى إليها جابر بن زيد .

Bathurst, R. D. : The Ya'rubi dinasty of Oman p. 7 . D. phill 1967 Oxford Bodleinf.

(٣٨) أبو زكريا ، السير وأخبار الأئمة ورقة ٢ - ٣ أ .

(٣٩) إطفيش ، محمد بن يوسف : الإمكان فيما جاز أن يكون أو كان ص ٨ - ١٠ الجزائر ١٣٠٤ هـ .

(٤٠) المرجع نفسه ص ١١ .

(٤١) العوتبى ، مسلمه بن مسلم الصحارى : أنساب العرب ورقة ٩ ، ١٠ مخطوطة بدار الكتب المصرية رقم ٢٤٦١ .

(٤٢) تحفة الأعيان جـ١ ص ١١٠ - ١١١ .

(٤٣) أبو زكريا يحيى بين أبى بكر الورجلانى ، السير وأخبار الأئمة ورقة ٢ - ٣أ .

(٤٤) طبقات الإباضية جـ١ ص ٦ ، أبو زكريا السير ص ٤ ويذكر ابن خلدون أنه «لما فشا دين الخارجية في العرب وغلبهم الخلفاء بالمشرق نزحوا إلى القاصية وصاروا يشون بها دينهم في البربر فتلقفه رؤساؤهم على اختلاف مذاهبه باختلاف رؤوس الخارجية في أحكامهم من إباضية وصفرية وغيرهما » . العبر جـ٧ ص ١١ كما يذكر ... « فحينئذ استقر الإسلام بالمغرب فأذعن البربر لحكمه ورسخت فيهم كلمة الإسلام وتناسوا الردة ثم نبتت فيهم عروق الخارجية فدانوا بها ولقنوها من العرب الناقلة ممن سمعوا بالعراق وتعددت طوائفهم وتشعبت طرقه من الإباضية والصفرية . العبر جـ٦ ص ١١٠ .

(45) Vondenheyden : La Berberie Orientale. p. 4 - 5,
Marcis, G : La Berberie Musalmane p. 139 - 140.

(٤٦) حدد ابن خلكان دخول الدعوة الإباضية إلى المغرب بين عامى ١٠٥ - ١١٥ هـ وذلك بوفاة عكرمة بن عبد الله مول ابن عباس . وفيات الأعيان جـ٤ ص ٢٦٥ ط . بيروت سنة ١٩٧٠م .

(٤٧) أبو زكريا ، السير وأخبار الأئمة ورقة ٢ - ٣ أ .

(٤٨) المصدر نفسه ورقة ٥ .

(٤٩) ابن الصغير : سيرة الأئمة الرستميين ص ١٠ وقد انتشر المذهب الإباضى في القسم الشمالى من المغرب الأقصى والمغرب الأوسط في جبل نفوسه في طرابلس حيث كان استقرار سلمه بن سعيد بين قبائل هواره ، وكان البربر مهيئين لتقبل بادئ الخوارج التى تجيز الثورة على أئمة الجور بسبب السياسة المجحفة التى انتهجها بعض ولاة بنى أمية .

محمود إسماعيل عبد الرزارق ، الخوارج في بـلاد المغـرب ص ٣١ - ٣٢ - دار الثقافـة - الدار البيضاء سنة ١٩٧٤م .

تاهرت وصفها ابن حوقل بقوله : « وتاهرت مدينتان كبيرتان إحداهما قديمـة والأخـرى محدثة والقديمة ذات سور وهى على جبل ليس بالعـالى وفيهـا كثـير مـن النـاس » صـورة الأرض ص ٨٦ ، ويذكرها المقدسى بقوله : « تاهرت اسم لقصبة أيضًا في بلـخ المغـرب وقـد أحدق بها الأنهار والتفت بهما الأشجار .. وهى بلد كثير الخير » أحسن التقاسيم ص ٨٧ .

(٥٠) الشماخى ، السير ص ١١٤ ، ابن الصغير ، سيرة الأئمة الرستميين ص ١٠ .

(٥١) تولى ابن الرقيق القيروانى رئاسة ديوان الرسائل في القيروان وقد أثر ذلك في تأليفه ، ومـا عرف عنه مـن تصـانيف كثـيرة في فنـون مختلفـة منهـا كتـاب تـاريخ إفريقيـة والمغـرب ، والقطعة الموجودة من كتابة تؤرخ لفترة قرن وربع ويعـد كتـاب ابـن الرقيـق أشمـل وأوفـى مـا كتب عن تاريخ إفريقية والمغرب كابن عذارى والنويرى وابن خلدون توفـى الرقيـق القـيروانى سن ٤١٧هـ والقطعة الموجودة من كتابة تؤرخ لفترة حكم الولاة الأمويين والعباسيين لإفريقيـة وموقفهم تجاه حركات الخوارج . ابن الرقيق القيروانى : تاريخ إفريقية والمغرب ص ١٩-٢٠.

(٥٢) ابن الصغير ، سيرة الأئمة الرستميين ص ١٠ .

(٥٣) اشترك في وضع ديوان الأشياخ إباضية من أهل نفوسه هم أبو عمران موسـى بـن زكريـا وأبو عمر النحيلى وعبد الله بن مـانوج وأبـو زكريـا يحيـى بـن جرنـار وجـابر بـن سـدر وكباب بن مصلح وأبو مجبر توزين ، ومن موسوعات جبل نفوسه في الشـريعة الإسـلامية ديوان الغرابه الذى ألفه عشرة من علماء نفوسه ويقع في عشرة أجزاء . محمد على دبوز ، تاريخ المغرب الكبير جـ٣ ص ٣٨٩ ،

Marcis : La Berberie Muslmane p. 114 - 116 .

(٥٤) أبو زكريا ، السير أخبار الأئمة ورقة ٥ أ .

(٥٥) ابن رسته ، الأعلاق النفيسة ص ٧ ، الدرجينى ، طبقات الإباضية جـ١ ص ٦ ، ٧ أبـو العرب تميم ، طبقات علماء إفريقية ص ٢٩ .

(٥٦) ابن عذارى ، البيان المغرب جـ١ ص ٦٠ - ٦١ ومن الملاحظ أن ابن الرقيق وابـن عبـد الحكم في كتاب فتوح مصـر وإفريقيـة لم يـوردا ولايـة محمـد بـن الأشـعث على إفريقيـة واحتفظ ابن عذارى بما فقدناه في ابن الرقيق، وذكر أن ابن الأشعث حشد في جيشه مـن القواد العظام ثمانية وعشرين قائدا من بينهم الأغلب بن سالم .

ابن عذارى ، البيان المغرب جـ١ ص ٤ بيروت سنة ١٩٥٠م .

(٥٧) ابن عذارى ، المصدر السابق جـ١ ص ٦١ .

(٥٨) تقع تاورغا بإقليم سرت على مسافة ثمانية أيام من طرابلس . ابن حوقل ، صورة الأرض ص ٧٠ - ٧١ .

(٥٩) ابن عذارى ، البيان المغرب جـ ١ ص ٨٤ ، الدرجيني ، طبقات الإباضية جـ١ ص ١٥-١٦.

(٦٠) أبو زكريا ، السير وأخبار الأئمة جـ١ ص ١٥ - ١٦ .

(٦١) المصدر السابق ورقة ١٤ ب .

(٦٢) المصدر السابق نفس الصفحة .

(٦٣) الإزكوى ، كشف الغمة ورقة ٣٢٨ ب .

(٦٤) هو الجلندى مسعود بن جيفر بن جلندى . السالمى ، تحفة الأعيان جـ ١ ص ٦٦ .

(٦٥) على بن محمد البسيوى ، الحجة على من أبطل السؤال فى الحدث الواقع بعمان - ص ٢ المقدمة ضمن كتاب جامع السير فى تراجم العلماء .

(٦٦) الدباغ ، جزيرة العرب ص ١١٥ .

(٦٧) مصباح الظلام ورقة ٢٤ ب .

(٦٨) المصدر السابق نفس الصفحة .

(٦٩) يذكر الطبرى أن « شيبان ركب وأصحابه السفن فقطعوا إلى عمان وهم صفرية - فلما صاروا إلى عمان نصب لهم الجلندى وأصحابه وهم إباضية فاقتتلوا قتالا شديدا فقتل شيبان ومن معه » تاريخ الأمم والملوك جـ ٧ ص ٤٦٣ والخوارج الصفرية هم ابتاع زياد ابن الأصفر وهم يتفقون مع الأزارقة (أتباع نافع بن الأزرق) فى القول بأن أصحاب الذنوب مشركون غير أن الصفرية لايرون قتل أطفال مخالفيهم ونسائهم . البغرادى ، الفرق بين ص ٧٠ وكان أول من أدخل المذهب الصفرى إلى المغرب عكرمة مولى عبد الله بن عباس الذى صاحب سلمة بن سعيد فى رحلته إلى المغرب . عوص خليفات ، تنشأة حركة الإباضية ص ٦٤ - عمان سنة ١٩٧٨ .

(٧٠) الرقيشى ، مصباح الظلام ورقة ٢٤ ب .

(٧١) السالمى ، تحفة الأعيان جـ ١ ص ٩٤ .

(٧٢) الرقيتي ، مصباح الظلام ورقة ٣١ ب .

(٧٣) ابن رزيق حميد بن محمد ، الفتح المبين في سيرة سادة البوسعيد ص ٧ نشر جمعية هكليث سنة ١٨٧٠ م .

(٧٤) المصدر السابق نفس الصفحة .

(٧٥) ابن رزيق ، سادة وأئمة عمان ص ٩ .

(٧٦) يذكر السالمي أن « كان من آل يحمد نشأ في العراق وكان من أهل العراق فقدموا به إلى عمان جـ ١ ص ١١٠ .

(٧٧) المصدر السابق نفس الصفحة .

(٧٨) البسيوى ، الحجة على من أبطل السؤال ورقة ١٨ وذكر أن « الدفاع من الفروض الواجبة إذا عدم الظهور وهو اجماع الناس على إمام يقدمونه عند مقاتلتهم للعدو الذى أدهمهم فإن زال القتال زالت إمامته » .

(٧٩) يشير الإزكوى إلى أن « الله من على أهل عمان بالألفة على الحق فخرجت عصابه من المسلمين الإباضية فقاموا بحق الله وأزالوا ملك الجبابرة » كشف الغمة ورقة ٣٣٠ أ .

(٨٠) البسيوى : الحجة على من أبطل السؤال ورقة ١١ .

(٨١) الحجة على من أبطل السؤال ورقة ٢٢ .

(٨٢) نفس المصدر والصفحة .

(٨٣) كشف الغمة ورقة ٣٣ أ .

(٨٤) السالمي ، تحفة الأعيان جـ ١ ص ١١٨ ، وصف الإصطخرى مدينة صحار بقوله « وهى على البحر وبها متاجر البحر وقصد المراكب وهى أعمر مدينة وأكثرها مالا ولا تكاد تعرف على بحر فارس بجميع بلاد الاسلام مدينة أكثر عمارة ولا مالا من صحار » مسالك الممالك ، ص ٢٥ .

(٨٥) السالمي ، تحفة الأعيان جـ ١ ص ١١٨ - ١١٩ .

(٨٦) نزوى مدينة من مدى عمان الداخلية وقد وصفها ابن بطوطة بقوله « إنها قاعدة هذه البلاد مدينة تقع على سفح الجبل » رحلة ابن بطوطة ص ٢٧١ ط . بيروت . وكان يطلق على مدينة نزوى في الفترة التى عاصرت الإمامة الإباضية الأولى اسم « تخت ملوك العرب» أى ملوك الأزد من الخوارج الإباضية . السالمي : تحفه الأعيان جـ ١ ص ٩٠ - ٩١.

قائمة المصادر و المراجع

أولاً : المصادر العربية :

١- **الإدريسى** : محمد بن محمد بن عبد الله بن على (ت ٦٥٠ هـ)
- " نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق "
بيروت سنة ١٩٧٢

٢ - **الأزدى** : أبو زكريا يزيد بن محمد القاسم (ت٣٣٤ هـ)
- " تاريخ الموصل "
١٣٨٧ هـ / ١٩٦٧ م

٣ - **الإزكوى** : سرحان بن سعيد (من علماء القرن الثانى عشر الهجرى)
- " كشف الغمه الجامع لأخبار الأمة "
مخطوط مصور بدار الكتب المصرية تحت رقم ١٧٩٧

٤- **البسيوى** : أبو الحسن على بن حمد العمانى (من علماء القرن الخامس الهجرى)
- " الحجة على من أبطل السؤال فى الحدث الواقع بعمان "
مخطوط مصور بدار الكتب المصرية .

٥ - ابن **بطوطة** : أبو عبد الله محمد بن محمد (ت ٧٧٩ هـ)
- " تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار "
بيروت سنة ١٩٦٨ م

٦ - **البغدادى** : أبو منصور عبد القادر بن طاهر (ت٤٢٩ هـ)
- " الفرق بين الفرق "
بيروت سنة ١٩٧٣ م

٧ - **البكرى** : عبد الله بن عبد العزيز البكرى (ت ٣٦٠ هـ)
- " معجم ما استعجم "
القاهرة سنة ١٩٤٥ م

٨ - **البلاذرى** : أبو الحسن أحمد بن يحيى بن جابر البغدادى (ت ٢٧٩ هـ)
- " فتوح البلدان "
بيروت ١٩٨٣ م
٩ - **الحميرى** : أبو سعيد نشوان بن سعيد (ت ٥٧٣ هـ)
- الروض المعطار
بيروت سنة ١٩٧٨ م
١٠ - **ابن حوقل** : أبو القاسم بن حوقل (ت فى النصف الثانى من القـرن الرابـع الهجرى) .
- صورة الأرض
بيروت سنة ١٩٧٢
١١ - **ابن خلدون** : عبد الرحمن بن محمد (ت ٨٠٨ هـ)
- " العبر وديوان المبتدأ و الخبر "
القاهرة سنة ١٩٥٧ م
١٢ - **ابن خلكان** : شمس الدين أبو العباس أحمد (ت ٦٨١ هـ)
- " وفيات الأعيان "
القاهرة سنة ١٩١٠ م
١٣ - **ابن خياط** : أبو عمر خليفة (ت ٢٤٠ هـ)
- " تاريخ خليفة بن خياط "
تحقيق سهيل زكار دمشق ١٩٨٦ م
١٤ - **الدرجينى** : أبو العباس أحمد (ن علماء القرن السابع الهجرى)
- " طبقات الإباضية "
مخطوط بدار الكتب المصرية رفم ١٢٥٦١
١٥ - **ابن زريق** : حميد بن محمد (من علماء القرن الثالث عشر الهجرى)
- " الفتح المبين فى سيرة سادة البوسعيد "
نشرة بادجر سنة ١٨٧١ م بغداد سنة ١٨٧١ م

١٦ - **ابن رسته** : أبو على أحمد بن عمر
- " الأعلاق النفسيه "
ليدن سنة ١٩٦٧ م
١٧ - **الرقيشي** : أحمد بن عبد الله بن أحمد بن الحسين (عاش فى القرن العاشر الهجرى)
- " مصباح الظلام "
مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٢٥٤٩
١٨ - **الرقيق القيروانى** : إبراهيم بن القاسم القيروانى
- " تاريخ افريقية و المغرب "
تونس سنة ١٩٦٧م
١٩ - **أبو زكريا** : يحيى بن أبى بكر (توىف ٤٧١ هـ)
- " السير و أخبار الأمة "
مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٩٠٣٠
٢٠ - **السيابى** : سالم بن حمود السيابى
- " إزالة الوعثاء عن أتباع أبى الشعثاء "
تحقيق الدكتورة سيدة إسماعيل كاشف القاهرة ١٩٧٩ م
٢١- **الشماخى** : أحمد بن أبى عثمان سعيد عبد الواحد (ت ٩٢٨ هـ)
- " سير علماء و مشايخ جبل نفوسه "
القاهرة سنة ١٣٢٠ هـ
٢٢ - **الشهرستانى** : محمد عبد الكريم (ت ٥٤٨ هـ)
- " الملل و النحل "
القاهرة ١٩٥٦ م
٢٣ - **الإصطخرى** : أبو إسحق إبراهيم بن محمد (توفى فى النصف الأول من القرن الرابع الهجرى)
- " مسالك الممالك "
القاهرة ١٩٦١ م

٢٤ - **ابن الصغير** : المالكى
- " سيرة الأئمة الرستميين "
الجزائر ١٩٠٥ م
٢٥ - **الطبرى** : أبو جعفر محمد بن جرير (ت ٣١٠ هـ)
- " تاريخ الأمم و الملوك "
القاهرة ١٩٧١ م
٢٦ - **ابن عذارى** : محمد بن عذارى المراكشى (توفى فى نهاية القرن السابع الهجرى)
- " البيان المغرب فى أخبار المغرب "
بيروت ١٩٥٠ م
٢٧ - **أبو العرب تميم** : محمد بن أحمد بن تميم (ت ٣٣٣ هـ)
- "طبقات علماء أفريقية "
تونس ١٩٦٨ م
٢٨ - **العوتبى** : سلمة بن مسلم الصمارى (من علماء القرن الخامس الهجرى)
- " أنساب العرب "
مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٢٤٦١
٢٩- **ابن الفقية الهمذانى** : أبو بكر أحمد بن محمد الهمذانى (توفى أواخر القرن الثالث الهجرى)
- " مختصر تاريخ البلدان "
ليدن سنة ١٨٨٥ م
٣٠ - **المبرد** : محمد بن يزيد الأزدى (ت ٢٥٨ هـ)
- " الكامل فى اللغة و الأدب "
ط . بيروت
٣١ - **المقدسى** : شمس الدين أبو عبد الله محمد الشافعى (ت ٣٧٥ هـ)
- " أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم "
ليدن ١٩٠٦ م

٣٢ – **ياقوت الحموى** : شهاب الدين أبو عبد الله الحموى (ت ٦٢٦ هـ)
- " معجم البلدان "
القاهرة ١٩٠٦ م
- " معجم الأدباء "
القاهرة ١٩٣٧ م

ثانياً : المراجع العربية :

١ – **أطفيش** : محمد بن يوسف
- " الإمكان فيما جاز أن يكون أو كان "
الجزائر سنة ١٣٠٤ هـ

٢ – **الحارثى** : سالم بن أحمد بن سليمان
- " العقود الفضية فى أصول الإباضية "
دار اليقظة السورية

٣– **زيان** : حامد زيان غانم زيان
- " الحياة فى الخليج فى العصور الوسطى فى ضوء مشاهدات الرحاله ابن بطوطة "
دار القلم الإمارات العربيه دبى سنة ١٩٨٥ م

٤– **دبوز** : محمد على
- " تاريخ المغرب الكبير "
بيروت

٥– **السالمى** : عبد الله بن حميد
- " تحفة الأعيان بسيرة أهل عمان "
الكويت سنة ١٩٧٤ م

٦ – **العلى** : صالح أحمد العلى
- " التنظيمات الإقتصادية و الإجتماعية فى البصرة فى القرن الأول الهجرى "
بغداد ١٩٥٣ م

٧ - .... :

- " خطط البصرة ومنطقتها "

مطبوعات المجمع العلمى العراقى سنة ١٩٨٦ م

٨ - عمر فاروق :

- " بيلوغرافيا فى تاريخ عمان "

مجلة المورد العدد الرابع بغداد سنة ١٩٧٤ م

٩ - .... :

- " ملامح من تاريخ حركة الخوارج الإباضية "

مجلة المؤرخ العربى العدد ٢ بغداد سنة ١٩٧٥ م

١٠ - تاريخ الخليج العربى فى العصور الإسلامية الوسطى

الدار العربية بغداد سنة ١٩٨٦ م

١١ - محمود إسماعيل عبد الرازق :

- " الخوارج فى بلاد المغرب "

القاهرة سنة ١٩٧٨ م

ثالثاً : المراجع الأجنبية :

1-BATHURST , R . D : THE YARUBI DINSATY OF OMAN . D . PHILL , OXFORD BODLIEN 1967

2- MARCIS , G : LA BERBERIE . MUSULMANE : ETL'ORIENT AU MOYEN AGE. PARIS, 1946.

3 - VONDERHEYDEN : LA BERBERIE ORIANTALE .

4 - WILKINSON , J . C : - ARAB SETTLEMENT IN OMAN :

THE ORIIGINS AND DEVELOPMRNT OF THE TRIBALE PATTERN AND ITS RELATIONSHIP TO THE IMAMATE

D . PHILL , THESIS OXFORD . 1969 .

الموضوعية والأمانة فى وصف الرحالة الأجانب للإسكندرية فى العصور الوسطى

د. سهير محمد إبراهيم نعينع

كلية الآداب - جامعة الإسكندرية

لم تكن مدينة الإسكندرية مثل المدن الأخرى التى ولدت صغيرة وكبرت مع الزمن بل لقد تصورها منشئها مدينة كبيرة ... فبنيت أسوراها المحيطة ورسمت أحياؤها وشوراعها وخططت منذ البداية(١) .

ونالت مدينة الإسكندرية إعجاب من زارها من الرحالة المسلمين والأوربيين على حد سواء(٢) ، إذ أضفى عليها موقعها الفريد بين قارات العالم مكانة متميزة، فكانت أولى مدن العالم على عهد البطالمة الأول ، وأصبحت بفضل موقعها مركزا لتجارة الهند ، فكانت المحطة التجارية الهامة للتبادل التجارى بين الشرق والغرب(٣).

ومكانة الإسكندرية معروفة منذ بنائها وكتبت عنها المؤلفات التاريخية العديدة ولست هنا بصدد إعادة الكتابة عن طبوغرافية المدينة ، فقد قام بذلك العديد من المؤرخين المحدثين(٤) .

ولكنى سوف أخصص هذا البحث لعرض الرؤية الخاصة لبعض الأوربيين البارزين وما سجلوه أثناء زيارتهم للإسكندرية عن معالمها الشهيرة ومنشآتها ، خاصة وأن اهتمامات أولئك الرحالة تركزت بشكل أساسى حول تحصيناتها ومعالمها العسكرية ، وربما فاق ما ذكروه عن هذه التحصينات فى دقة الوصف ما جاء فى كتابات كثير من الرحالة المسلمين(٥) .

ومن أبرز الرحالة الأوربين الذين زاروا الإسكندرية الرحالة أركولف الذى قام برحلته فى سنة ٧٠٠م / ٨١هـ وأمدنا بمعلومات وافية أكدت ما كانت تتمتع به الإسكندرية من رخاء وغنى لم ينتهيا بالفتح العربى ، فقد ذكرها أركولف بأنها من أعظم المدن ، بل فاقت شهرتها باقى المدن والماء يحيط بها من الشمال (البحر المتوسط) ومن الجنوب محاطة بفم النيل (خليج الإسكندرية)(٦) ، وميناؤها يعد أكثر صعوبة من الموانى الأخرى وهو يتخذ شكل الجسم الآدمى حيث يكون متسعًا أعلى وأسفل ضيقًا فى المنتصف(٧) ويصف أركولف ميناء الإسكندرية وصفًا دقيقًا حتى عد هذا الوصف دليلا لبحارة السفن يسترشدون به ، فهو يصف الناحية اليمنى من الميناء مشيرًا لفنار الإسكندرية الذى يقع فوق جزيرة صغيرة وأطلق على الفنار اسم فاروس (وهى تسمية اغريقية) والذى يمكن رؤيته من مسافة بعيدة(٨) . ولكى يتسنى للبحارة تحديد مدخل الميناء جيداً ، فلا بد من اشعال النار عن طريق حرق قطع من الخشب فى مقدمة السفينة حتى يمكنهم اتخاذ مسار بعيد عن الصخور تحت الأمواج وتجنب الاصطدام بها . والميناء ضيق من جهة اليمين وأكثر اتساعا من جهة اليسار ، وتوجد حول الجزيرة عوارض خشبية ذات أحجام كبيرة وضعت كمصدات لأمواج البحر ، وذكر أركولف امتداد الميناء بحوالى ٣٠ وحدة قياس(٩) . والميناء آمن حتى فى أيام العواصف وما يستقبله من بضائع وسلع يكفى احتياجات المدينة وسكانها ، ويوفر لها النشاط التجارى ، وبفضل هذا الميناء ، فإن الإسكندرية تثرى بمختلف البضائع والخيرات التى ترد إليها من جميع أنحاء العالم ، فضلاً عن كونها مخزنًا للقمح الذى تصدره إلى معظم بلاد العالم ، إلى جانب بضائع أخرى هامة ، وتعتمد منطقة الإسكندرية فى الزراعة على مياه الإمطار بالإضافة إلى مياه النيل التى تصل عليها عن طريق خليج الإسكندرية(١٠) .

ومن الثابت أن مدينة الإسكندرية ظلت محتفظة بمكانتها مدة طويلة من الزمن ، وهذا يتضح لنا من وصف الرحالة بنيامين التطليلى الذى زار الإسكندرية

بعد منتصف القرن الثانى عشر الميلادى حوالى السادس الهجرى إذ لا نعـرف علـى وجه التحديد السنة التى زار فيها الإسكندرية ، فرحلته امتدت مـن سنة (١١٦٥ - ١١٧٣م) (٥٦١ - ٥٦٩هـ)(١١) لمختلف الأقطار بـدءاً مـن سرقسـطة بأسبانيا وانتهاء ببلرمو Palermo فى صقلية وعلى الرغم من البعد الزمنى بين رحلة أركولف ورحلة بنيامين التطيلى الذى قد يصل إلى أكثر مـن ثلاثـة قـرون ونصـف القرن، فـإن بنيـامين قـد وصـف مدينـة الإسـكندرية بأنهـا مـن أجمـل مـدن الدنيـا وأمتعها، والغريب أنه ذكر مدرسة الإسكندرية التى أطلـق عليهـا مدرسـة أرسـطو أستاذ الإسكندر(١٢) ....والتى كانت مؤلفة من عشرين قسمـًا يقصدهـا طـلاب العلم من جميع أنحاء العالم لدراسة فسلفة أرسطو . وأن مبناها واسع وجميل معقـود على أساطين من رخام(١٣) . ويضيف بنيامين أن الإسكندرية مشيدة على «طيقان معقودة تحتها الكهوف والمغاور »(١٤) . ووصف شوارعها بـالطول والاستقامة ، والشارع الرئيسى الممتد من باب رشيد إلى باب البحر يصل إلى حـوالى ميـل ، أى أنه ببساطة شديدة قد أورد طول مدينة الإسكندرية(١٥) ، وفى نفس الوقت يذكر طول رصيف الميناء فى اتجاه البحر (الهيباستاد) حوالى ميل أيضـًا(١٦) . ويتطـرق بنيامين لوصف منار الإسكندرية الذى تحطمت عنه مرآته الضخمة ولكنـه لا يـزال يهدى السفن ويشاهد نهارا من على بعد مائة ميل(١٧) .

وقد جاء فى وصف بنيامين التطيلى للإسكندرية ما يثبـت الأهميـة الكـبرى التى كانت تتمتع بها وعالميتها ، فقد أحصى الممالك والأقطار الأجنبية التى كانت تتبادل التجارة مع الإسـكندرية فـى أواخـر القـرن الثـانى عشـر الميـلادى / أواخـر السادس الهجرى ومنه نستطيع التعرف على أنواع التجـارة وألوانهـا المختلفـة التـى كانت تتدفق إلى الإسكندرية من كل بلدان أوربة المسـيحية ، ومـن بلـدان الشـرق الإسلامية وغير الإسلامية(١٨) . وقد أشار بنيـامين إلى نـوع جديـد مـن المنشـئات عرفتـه الإسـكندرية والثغورالمصريـة فـى العصـور الوسـطى وهـو الفنـادق فيقــول

«وتأتيها من الهند التوابل والعطور بأنواعها فيشتريها تجار النصارى ولتجار كل أمة فندقهم الخاص بهم ، وهم فى ضجة وجلبة يبيعون ويشترون »(١٩) .

أما عن رحالة القرن الرابع عشر الميلادى (الثامن الهجرى) وحتى نهاية العصور الوسطى وبدايات العصر الحديث فقد تركز اهتمامهم على التحصينات مثل (الأسوار والأبراج والأبواب) فقد كانوا ينبهرون فور اقترابهم من الإسكندرية براً أو بحراً وهم يلاحظون أسوارها وأبراجها . وقد زار الرحالة الألمانى لودلف فون ساشم الإسكندرية فى عام ١٣٤٠م / ٧٤١ هـ وكتب تقريره فى سنة ١٣٥٠م / ٧٥١هـ(٢٠) وصف فيه الإسكندرية وما كانت عليه من حصانة وازدهار وتقدم عمرانى ، ووصف مبانيها ونظافة شوارعها . إذ يقول عنها « تتصف الإسكندرية بالجمال الفائق والحصانة الشديدة ، فهى مزودة بأبراج عالية وأسوار منيعة ، ويمتاز داخل المدينة بحسن الرواء ، إذ يسود البياض لون ابنيتها ، فى حين تتفرع قنوات مياهها الجارية فى كل زاوية من شوارعها ، وتلقى المدينة عناية خاصة للاحتفاظ بنظافتها ، إذ يوجد بها المحتسبة الذين يمنعون الناس من إلقاء ما يقلل من نظافة شوارعها أو مياهها ، ويحتفظ السلطان فى هذه المدينة ببعض المرتزقة والأتباع لحمياتها هى ومينائها ، وتبدو المدينة للوهلة الأولى وكأنها من المناعة بمكان بحيث يستحيل الاستيلاء عليها(٢١) .

ويجىء إسهاب الرحالة الغربيين فى الكلام عن تحصينات مدينة الإسكندرية فى وصف يندر أن نجده فى مصادرنا العربية إضافة تثير التساؤل حول اهتمامه بالوصف الدقيق للتحصينات ، فهل كان هذا مؤشرا لما أراد الغرب الأوربى القيام به من الاستيلاء على هذه المدينة الغنية التى كانت تسهم فى مد دولة المماليك بجانب كبير من ثرائها أو كان امتداد للمقولة الداعية للحروب الصليبية المتأخرة بضرورة إضعاف دولة المماليك اقتصاديًا حتى يتسنى لهم القضاء عليها واسترجاع الأراضى المقدسة(٢٢) . ربما كان هذا هدفًا فى حد ذاته لهذا العدد الكبير من

الرحالة الغربيين الذين قصدوا من دقة وصفهم تحقيق هذا الغرض أو ربما كانو مكلفين بكتابة تقارير عن الموانى الإسلامية مثلما كان الوضع بالنسبة للحجاج الغربيين(٢٣) فهو إذن نوع من التخابر أو التجسس لصالح دولهم حتى لو لم يكن أهدافهم عسكرية فهى بالضرورة أهداف اقتصادية تحكمها طبيعة تلك الفترة(٢٤) .

على أية حال فإننا لا نستطيع إغفال طبيعة هؤلاء الرحالة الأوربيين المتميزة بالدقة بصرف النظر عن الهدف الكامن وراء هذه الدقة . وقد ظهر هذا واضحاً فى كتاباتهم عن تحصينات مدينة الإسكندرية التى تتمثل فى الأسوار والأبراج والأبواب ، وسوف نحاول إجمال كلام الرحالة الأوربيين فى دراسة مقارنة لتوضيح الصورة بشكل مركز .فإذا بدأنا بأسوار الإسكندرية ، فإننا نجد غالبية الرحالة الغربيين ذكروا ازدواج سور الإسكندرية وانفردوا بمتابعة ذكر ازدواج هذا السور الذى تمثل فى السور الأمامى أو الخارجى والسور الخلفى أو الداخلى ، فأفاض البعض منهم فى وصف هذه الأسوار وتحصيناتها ، حتى أن بعضهم حدد المسافة بين السورين (الفصل) ومقياس ارتفاع الأمامى ، فنجد الرحالة جيستيل Ghistele (١٤٨٢ - ١٤٨٣م / ٨٨٧ - ٨٨٨هـ)(٢٥) يذكر أن السورين عند أقصى الطرف الشمالى الغربى من الناحية الشمالية مزودان بشراريف تبرز فى جدران السور فى نتوءات شبه دائرية تنفتح فيها المزاغل (الكوى) للرمى بالسهام، والسور الأمامى منهما منخفض عن الخلفى ويرتفع فى وسط الخندق ، وحدد عرض الفصيل بينهما بعشرة أمتار . مقام عليها أبراج ضخمة مبينة بالحجر الأبيض ، ويتلامس هذان السوران بالقرب من الحصن أو القصر القديم(٢٦) وموضعه فى السور الغربى . وقد تنوعت هذه الأبراج بعضها ضخم بنى بالحجر الأبيض المنحوت(٢٧). ويأتى الرحالة فيلكس فابرى الذى قام برحلته فى سنة ١٤٨٣م / ٨٨٨ هـ مؤيداً لكلام جسيتيل ، وهو يصف الأسوار عند باب الديوان

فى أواخر الطرف الغربى من السور الشمالى وينص أيضًا على ارتفاع السور الداخلى(٢٨).

أما السور الخارجى فهو يعلو الخنادق وفيه المزاغل التى تعلو قمته ، وشراريف وأبراج تطل على الخنادق ، ويضيف فابرى إشارته إلى سماكة السور الخارجى وما به من برجيات للمراقبة Echangette وأبراج رئيسية Donjons تطل على الخنادق المتسعة عند هذا السور(٢٩) . كما يذكر فابرى أن هذه الأبراج قد اتسمت بالعلو والمتانة(٣٠) .

أما الرحالة كوبان (١٦٣٨ - ١٦٤٦م / ١٠٥٦ - ١٠٨٤ هـ)(٣١) فقد قدر ارتفاع السور الخارجى بنحو عشرين قدما ، أى حوالى سبعة أمتار . وهذا بالتالى يوضح أن السور الداخلى يرتفع أكثر من سبعة أمتار وهو ما لم يحدده لنا الرحالة الغربيون ، وقد نص كوبان على أن هذه الأبراج قد أصبحت عتيقة وأصابها التهدم فى عدة نواحى(٣٢) . وربما يرجع وصفه هذا إلى أن رحلته زمنيًا والتى تدخل فى العصر الحديث وهذا نفس ما أشار إليه علماء الحملة الفرنسية على مصر(٣٣) .

أما الرحالة اليهودى مشولام بن مناحم Mechullam ben menahem الذى زار الإسكندرية فى سنة ١٤٨٤م / ٨٨٩هـ ، وقام بقياس سمك السور فقد ذكر بأنه يساوى عشرة أذرع أى خمسة أمتار(٣٤) .

وقد تابع الرحالة الأوربيون حديثهم بذكر أسوار الإسكندرية المزدوجة بأنها كانت مزودة على امتدادها بأورقة مسقوفة مقنطرة تتيح للفارس القيام بدورة كاملة فى أسفلها(٣٥) ، وهى مجهزة بعقود قباب صغيرة ينعقد بعضها فوق بعض فيما لا نهاية له ، وتلصق هكذا بنفس الشكل بأبراج الأسوار وهى مفتوحة فى وسطها بحيث تستند هذه العقود عند عمود واحد فى وسط الأبراج ويستند

بعضها الآخر عند البرج الآخر على أربعة أعمدة ، ويصل بين كل قاعدة وعمود افريز العمود الآخر قطع كبيرة من الخشب المربع متقاطعة وموصولة بالمسامير الضخمة(٣٦) .

ويذكر الرحالة ساندى ١٦١٧م / ١٠٢٦ هـ(٣٧) . فى وصفه للأبراج بأنها اتصفت بالضخامة أكثر مما وصفت بالمتانة أو الحصانة إلا أنها كانت من جهة الساحل غاية فى الحصانة كما وصفها بلون(٣٨) .

وتنوعت أبراج الأسوار بين المستديرة والمربعة على امتداد السورين بكاملها(٣٩) . إلا أن الاختلاف فى كلام الرحالة الإجانب عن عدد هذه الأبراج قد يثير التساؤل فمنهم من ذكر عدد الأبراج المربعة فقط(٤٠) .والبعض الاخر ذكر عدد الأبراج كلها فى السورين ، ومنهم من اكتفى بالإشارة إلى أبراج السور الداخلى فقط أو الخارجى فقط ، ومنهم من ذكر الأبراج الصغيرة فقط فى أحد السورين أو كلاهما مجتمعين واهتم بعضهم بتحديد المسافة بين كل برج وآخر دون ذكر عددها(٤١) .

ولكنهم اهتموا جميعًا بالإشارة إلى ما حل بهذه الأبراج فى فترات مختلفة وحتى نهاية القرن السابع عشر الميلادى / الحادى عشر الهجرى(٤٢) . فنجد إشارة الرحالة بيرمون Bermond (١٦٣٤ - ١٦٤٥م / ١٠٥٣ - ١٠٥٥هـ) إلى وجود دائر الأسوار مازال قائمًا و لم يخرب تمامًا وأن الأسوار الشرقية والجنوبية قد احتفظت بازدواجها(٤٣) . وقد أكد مونكونى Monconys (١٦٤٦ - ١٦٤٧م / ١٠٥٦ - ١٠٥٧هـ) كلام بريمون فيما يخص الأسوار الجنوبية مع الإشارة إلى إصابتها ببعض التهدم إلا أن أبراجها مازالت قائمة وإن كان الخراب قد أصابها هى أيضًا(٤٤) . ويأتى الرحالة جونزاليس Gonzales (١٦٦٥ - ١٦٦٦م / ١٠٧٦ - ١٠٧٧هـ) ويشير إلى أبراج الأسوار المزدوجة فبعضها كان سليما والبعض الآخر يحتفظ بسلامة جزئية وقد أصاب التلف بعض قواعد الأبراج

وتعرضت متاريس السور والأسوار نفسها للتهدم إلى حد كبير ، وقد أرجع جونزاليس هذا الامر إلى تعرض الاسكندرية فى سنة ١٦٢٤م / ١٠٣٥ هـ للتدمير على يد القراصنة ولصوص البحار(٤٥) .

ولعل هذا الكلام يؤيده مشاعر الرثاء التى أبداها هؤلاء الرحالة لما كانت عليه المدينة من خراب فى بعض أجزائها(٤٦) .

وقد وقع التضارب فى أقوال الرحالة الذين أتو بعد جونزاليس فنجد فى رواية بروان Brown (١٦٧٣ - ١٦٧٤م / ١٠٨٤ - ١٠٨٥ هـ إشارة إلى أن أبراج أسوار الإسكندرية كانت قائمة عند زيارته للإسكندرية(٤٧) . وأيده فى ذلك الرحالة فيريار Veryard سنة ١٦٧٨م فقد ذكر أن الأسوار المزدوجة لاتزال قائمة(٤٨) ، وينص من بعده الرحالة Pitts سنة ١٦٨٥م / ١٠٩٧ هـ على بقاء أسوار مدينة الإسكندرية على ما كانت عله باستثناء سقوط أجزاء من تحصينات السور العلوية(٤٩) . وقد قام الرحالة هنتجتون Huntigton ١٦٩٥م / ١١٠٧هـ) بذكر ما تهدم من بعض مواضع السور(٥٠) . ويأتى الرحالة موريسون Morison ١٦٩٧م / ١١٠٩هـ برأيه فى أن سور المدينة المزدوج كان لا يزال قائماً وتجد بناء أبراج المدينة بعد اصابتها بالتلف(٥١) . وفى حقيقة الامر ، فإننا لانعرف سببا لهذا التضارب سوى أنه من الجائز تعرض مدينة الإسكندرية لعمليات ترميم ما تهدم من مبانيها على غرار ما حدث بعد حملة ملك قبرص على الإسكندرية(٥٢).

وهناك تضارب آخر فى أقوال الرحالة حول تحديد محيط سور المدينة ، فقد وقع البعض منهم فى الخلط بين سور المدينة القديمة وسور المدينة العربية ، فأضاف بعضهم أجزاء من سور المدينة القديمة إلى الأسوار العربية وهذا ما قام بترجيحه محمود باشا الفلكى والذى استنتجه من الحفريات التى قام بها(٥٣) .

أما بالنسبة للخندق الذى أحاط بأسوار مدينة الإسكندرية ، فقد ذكره الرحالة فيلكس فابرى بأنه كان يحيط بأسوار المدينة من جهة باب رشيد وحتى الباب الذى دخل منه فابرى وهو باب الديوان ، أى أن هذا الخندق كان محاذياً لسور المدينة(٥٤) .

أما عن أبواب مدينة الإسكندرية كما ذكرها الرحالة الأجانب ، فهى خمسة أبواب منها : **باب البحر** : الذى حدده بينامين التطيلى صراحة بأن يطل على الميناء الغربى مباشرة(٥٥) كما حدده بيلون على خريطته وأطلق عليه نفس الاسم Porte de la mere (٥٦) ؛ وذكره بريتون Bretton كما هو واضح فى خريطته فى أقصى الطرف الغربى من السور الشمالى ، واتجاه الباب الخارجى نحو الميناء الغربى مباشرة(٥٧) ؛ وذكره فابرى تحت اسم Porte de la Marin: (٥٨) .

أما **الباب الثانى** والذى يقع فى السور الشمالى أيضاً بالقرب من باب البحر فهو باب الديوان : فقد وصفه فيلكس فابرى بالضخامة والأرتفاع وتدعمه الأبراج على جانبيه ،وله أبواب متتابعة ، الخارجى والداخلى منها مصفحان بالحديد ، ويوجد أمام الباب الخارجى جسر ضيق متحرك يمكن رفعه حتى يتمكنوا من العبور إلى هذا الباب الضخم وذلك لوجود الخندق تحته مباشرة ، وعند إجتيازه ، يوجد ممر منحنى إلى الداخل يقع بين جدران عالية وأبراج ، ويقود هذا إلى الباب الحديد الداخلى الذى ينفتح على المدينة ، وعند إغلاق الباب الخارجى ، يتم حجز من يوجد بين البابين بسلاسل ومزاليج حديدية شديدة الارتفاع فيتعزر الدخول أو الخروج من أحد المحجوزين بين البابين ، ويوجد على يمين الداخل قريباً من الباب الداخلى باب صغير يترك مفتوحاً يسمح بالنفاذ إلى مكان فى الداخل بين سور المدينة الداخلى المرتفع وسورها الخارجى الذى يعلو الخنادق، بحيث يمكن التجول داخل نطاق هذا الحيز لمسافة طويلة بين السورين، ومن وسط هذا المكان يمكن مشاهدة كوى السهام المطلة على الخنادق والتى تعلو

قمة السور الخارجى إلى شراريف السور الذى تقوم فيه بعض الأبـراج(٥٩) ، وقـد اطلـق فـابرى علـى هـذا البـاب بـاب الغربـاء أو بـاب الأجـانب La porte des Etranger(٦٠) ومن خـلال وجـود الأجـانب فـى المدينـة وارادوا الخـروج للنزهـة خارجها فيما بين المناءين لمشاهدة السفن أو الاتصال بها فى الميناء الشرقى لم يكـن أمامهم إلا باب البحـر ، ويحصلـون فـى كـل مـرة يخرجـون فيهـا علـى أذن ويتـم تفتيشهم فى الخروج والعودة(٦١) .

أما الباب الثالث : فهو الباب الغربى (الأخضر) : فقد أطلق عليه الرحالة الأوربيون عدة أسماء تدل كلها على أنه الباب الغربى ، فمنها باب القمـر أو بـاب برقة أو باب الصحارى(٦٢) .

والباب الرابع : هو الباب (باب السـدرة)(٦٣) ، الـذى يقـع فـى السـور الجنوبى فى منتصف النصف الغربى منه تقريبًا وقد ذكـر فـى كتـب الرحالـة تحـت اسم باب سان مارك(٦٤) ، وأطلق عليه البعض باب البهار(٦٥) ، ويكتفى البعـض منهم بالإشارة إلى هذا الباب بأنه باب الجنوب .

الباب الخامس : (الباب الشرقى) أو باب رشيد(٦٦) ، فقد ذكره فيلكس فابرى بأنه محظور على الأجانب والغرباء الدخول من هذا الباب إلى داخل المدينة ، فهو وقف على أهل المدينة وكبار القوم ، وقد وصفـه مثـل الأبـواب الأخـرى بوجـود برجين على جانبيـه تميزا بالضخامـة والحصانـة ، واكتفـى هـارن وليـون الأفريقـى بالأشارة إلى اتجاه هذا الباب إلى النيل(٦٧) ، ومن الرحالة من أطلق عليه الاسم القديـم وهو باب الشمس Porte du Soleil(٦٨) ، وذكره بريمون Bremond باسم بـاب الـو Bab - allou أو باب رشيد(٦٩) ، ومنهم من أطلق عليه اسم باب القاهرة(٧٠) .

أما بالنسبة لقلاع المدينة والتى جاء ذكرها فى كتب الرحالة الأجانب فمـن أهما كما يذكر الرحالة البرت Albert اثنتان فى منطقة شـبه جزيـرة فـاروس هـى

الفـاريون الكبـير Presque - ile Faraillon وهـو مكـان قلعـة قايتبـاى الحـالى ، والفاريون الصغير أسفله مباشرة au dessous أى فى مواجهته مباشـرة مـن أسـفل عند مدخل الميناء الشرقى(٧١) .

وقد أشار بعض الرحالة إلى قمة مرتفعة يمكن من أعلاها رؤية أسوار المدينـة العربية جميعها(٧٢) ، وأن لم يذكروا اسم هذا المرتفع وأن كانوا يقصدون به كـوم الدكة (أو كوم الديماس) ، كما أشار بعضهم إلى كوم الشقافة بالقرب من عمود السوارى خـارج أسـوار المدينـة وأن لم يطلقـوا عليـه اسما ، ولكـن لفـت نظرهـم الكهوف والمغارات التى تحتوى على عدة مقابر(٧٣) ، أما بالنسبة لكـوم النـاضورة (كوم وعلة) الذى يقع داخل سور المدينـة الغربـى ، ويظهـر فـى خريطـة بيلـون Belon (١٥٤٧م) تحت اسـم الـبرج أو الحصـن الجديـد Chateau Neuf(٧٤) ، وقد اتخذ هذا البرج لرصد السفن الـورادة إلى مينـاء الإسـكندرية الشـرقى . وهـذا الحصن الجديد يجرنا للكـلام عـن الحصـن القديـم Chateau Vieil هـو يظهـر فـى مصـورات الرحالـة الغربيـين بـالقرب مـن البـاب الغربـى والجـامع الغربـى (الأخضر)(٧٥).

واكتمالا للصورة التى آلت إليها مدينة الإسـكندرية منـذ أخريـات العصـور الوسطى وحتى مطلع العصر الحديث ، فأننا نجد من المناسب ذكره هنا مـا شـاهده علماء الحملة الفرنسية على مصر ، ودونوه عن الأسكندرية وقت نزولهم لهـا كمـا يقولون « باقترابنا من الإسكندرية ودخولها عن طريق أبوابها العالية وجدنـا سـورًا واسعًا حصينا لم يعد يضم سوى بقايا الإسكندرية القديمـة » وأطلقـوا عليهـا فيمـا أطلقوه « أطلال الإسكندرية القديمة التى لا تومئ إلا بحزن مرير وعميق إذ هـى لا تقدم إلا صورة بشعة وكئيبة للدمار التام الذى يصيـب الإنسـان ومنجزاتـه ، ففـى هذا الفراغ الفسيح الذى يحيط به سور مزدوج ، تعلوه أبراج عاليـة ، فـأن الأرض لا تغطيها إلا أطلال المبـانى القديمـة المدفونـة تحـت تـلال مـن الانقـاض والأعمـدة

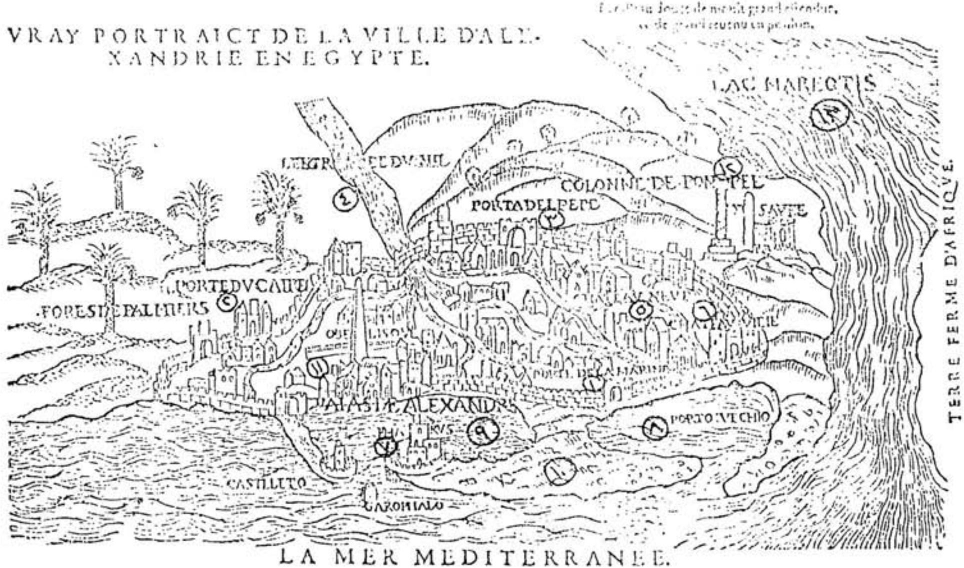
وتيجان الأعمدة المهشمة أو المقلوبة وقطع متماسكة من جدران منهارة وقباب مدفونه وتكسيات الجدران التى تـأكلت أحجارها بفعل رطوبة وملح وأحماض البحر ... فى كل مكان يجد المرء آبارا وخزانات نصف مطموسة أو حفرًا عميقة يستخرج منها السكان أحجارًا جيرية لا تزال تحمل آثار عمل الإنسان والتى حولها الإنسان بدوره إلى مجرد جير ... وفى داخل هذا الفضاء تتناثر أتربة وأنقاض مدينة واسعة ، نبحث عنها دون جدوى ونتخبط نحن وسط أسوارها(٧٦) .

وتأتى الموضوعية فى وصف الرحالة الأروبيين لمدينة الإسكندرية لتوضح لنا رؤية هؤلاء الرحالة الأسباب الحقيقة من وراء زيارتهم التى بإمكاننا استخلاصها من خلال اهتماماتهم بوصف أشياء و أماكن بعينها ، وفى هذه الحالة يمكن لنا تقسيمهم إلى فئتين ، الفئة الأولى تتمثل فى ما قام به الرحالة أركولف ومن بعده الرحالة بنيامين التطيلى من وصف . أما الأول فقد سبق ورأينا كيف ركز كلامه على وصف ميناء الإسكندرية وتجارتها الواسعة مع مختلف الأمم ، وإن كانت رحلته قد أخذت شكلاً دينيا ، فهو أسقف ورحالة قام بزيارة المدن الإسلامية بعد الفتح الإسلامى بفترة وجيزة و لم يمنعه هذا من الكلام عن الأهمية التجارية لمدينة الإسكندرية ، وربما كان هذا هدفًا فى حد ذاته .

أما الرحالة الثانى بنيامين التطيلى فقد اهتم اهتمامًا بالغًا بالناحية التجارية لمدينة الإسكندرية وعدد الأمم التى تتعامل معها شرقًا وغربًا ، ومن المعروف أن الهدف من رحلة بنيامين التطيلى هو عملية إحصاء لأعداد اليهود فى كل مدينة زارها ، وعلى هذا فرحلته تعتبر ذات طابع دينى ، وفى نفس الوقت أخذت الأهمية التجارية لمدينة الإسكندرية تحتل جانبًا كبيرًا من وصفه ، فلا نجده مثلاً يذكر أسوار المدينة وتحصيناتها مثله فى ذلك مثل اركولف ، وعلى هذا فرحلته تعتبر ذات طابع دينى .

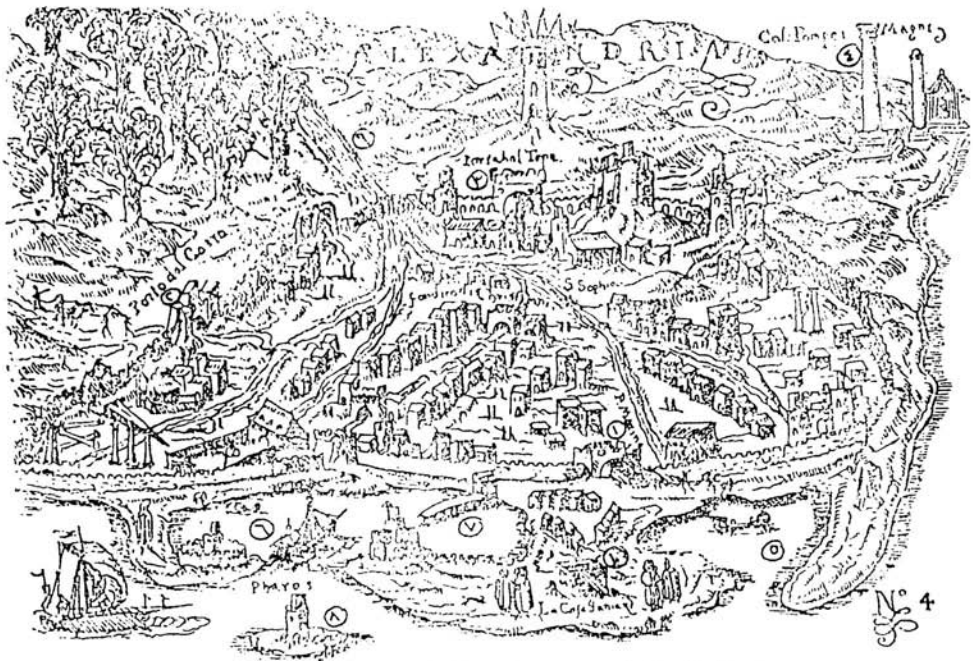
أما الفئة الثانية من الرحالة والتى تبدأ بالرحالة فون ساشم من منتصف القرن الرابع عشر الميلادى وحتى بدايـات العصـر الحديـث ، فقـد اهتمـوا اهتمامًـا بالغًـا بوصف تحصينات المدينة كما سبق أن ذكرنا وربمـا دفعهـم إلى ذلـك موقـع المدينـة وأهميتهـا بالنسـبة للتجـارة العالميـة ، وقـد رأينـا فـى ثنايـا هـذا البحـث كيـف أن اهتمامهم قد أخذ شـكلاً جديـدًا ، ممـا يؤكـد الـرأى الـذى خرجنـا بـه مـن هـذه الدراسة، بأن اهتمامهم كان بدافع التجسس والتخابر لصالح دولهـم ، وربمـا كـان هذا سببا للدقة التى اتصفت بها كتاباتهم التى زودوها بالرسـومات والخرائـط وأن كتاباتهم كانت أساسًا لعلماء الحملة الفرنسية على مصر فاستمدوا منها كثـير مـن المعلومات عن مدينة الإسكندرية وهذا ثـابت مـن تأسـفهم علـى مـا أصـاب هـذه المدينة العريقة من خراب ودمار فى كثير من أحياءها .

وخلاصة القول أن الرحالة الأوروبيين الذين زاروا الإسـكندرية فـى العصـور الوسطى وحتى بدايات العصور الحديثة ، قد التزموا جانب الموضوعيـة والدقـة فـى وصـف هـذه المدينـة العريقـة ، وجـاء تركـيزهم بشـكل أساسـى علـى الأهميـة الاقتصادية ، ثم تطور الأمر بعد ذلك إلى التركيز على الناحيـة التحصينيـة والـتزموا فى ذلك الدقة لدرجة جعلتنا نتشكك فى نواياهم ويؤكد على الفكـرة التـى يـدور البحث حولها ، وهى التجسس لصالح دولهم .



خريطة رقم (١) لبيلون Belon (سنة ١٥٤٧)

(١) باب البحر . (٢) باب القاهرة (باب رشيد) . (٣) باب البهار (باب السدرة) . (٤) خليج الإسكندرية . (٥) البرج الجديد (كوم وعلة / كوم الناضورة)
(٦) الحصن القديم (قصر السلطان) . (٧) المنار (٨) الميناء القديم (الميناء الغربى) . (٩) الميناء الشرقى . (١٠) الجزيرة (١١) قصر الإسكندر .
(١٢) عمود بومبى (عمود السوارى) . (١٣) بحيرة مريوط .



خريطة رقم (٢) لبرتين Bretten (سنة ١٥٨٥ - ١٥٨٦)

(١) باب البحر . (٢) باب القاهرة (باب رشيد) (٣) باب البهار (باب السدرة) . (٤) عمود بومبى (عمود السوارى) . (٥) الميناء الغربى .
(٦) الميناء الشرقى. (٧) مرسى قوارب الديوان (٨) المنار . (٩) خليج الإسكندرية . (١٠) الجزيرة

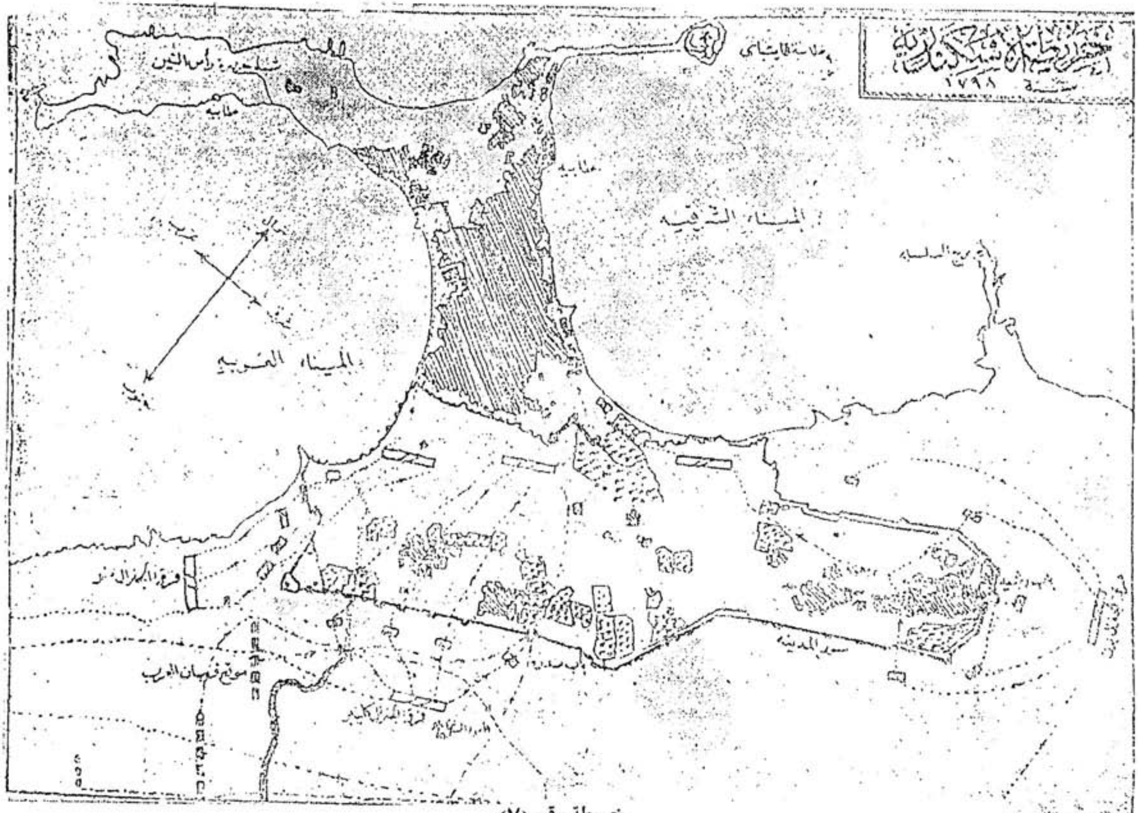




خريطة رقم (٦)

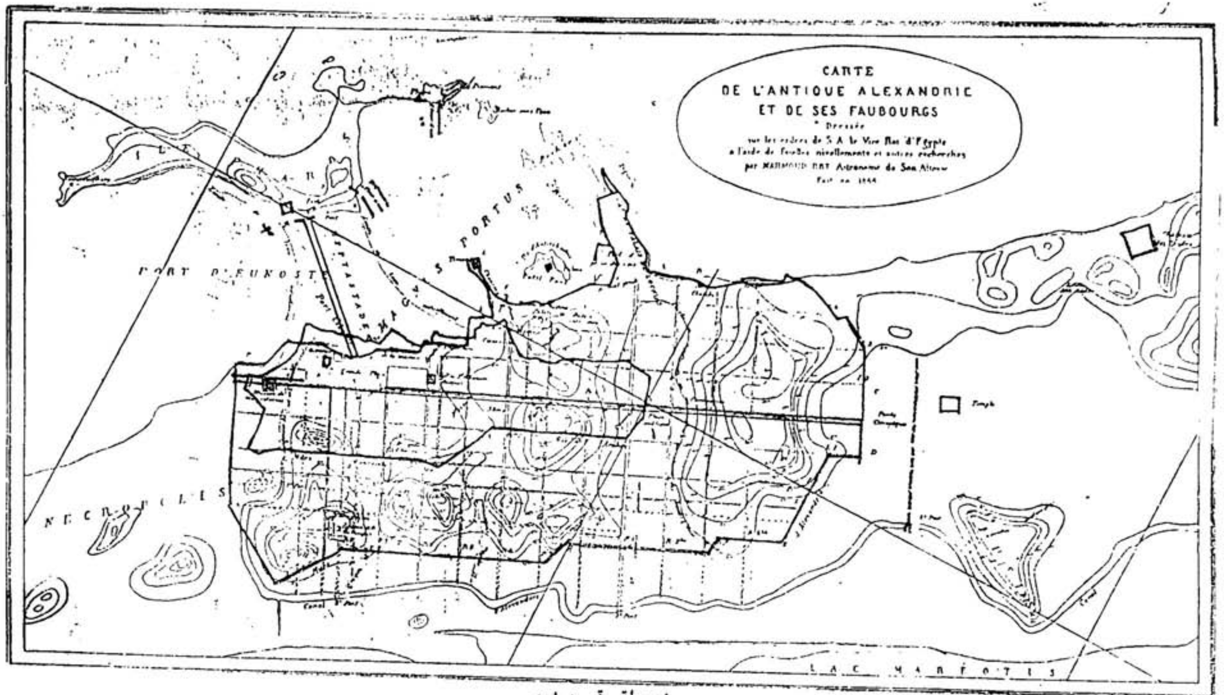
الإسكندرية عند الفتح العربى لمصر

(من كتاب وصف مصر لعلماء الحملة الفرنسية - ج٣)



خريطة رقم (٧)

الإسكندرية وقت الحملة الفرنسية (من كتاب : وصف مصر لعلماء الحملة الفرنسية ، ج٣)



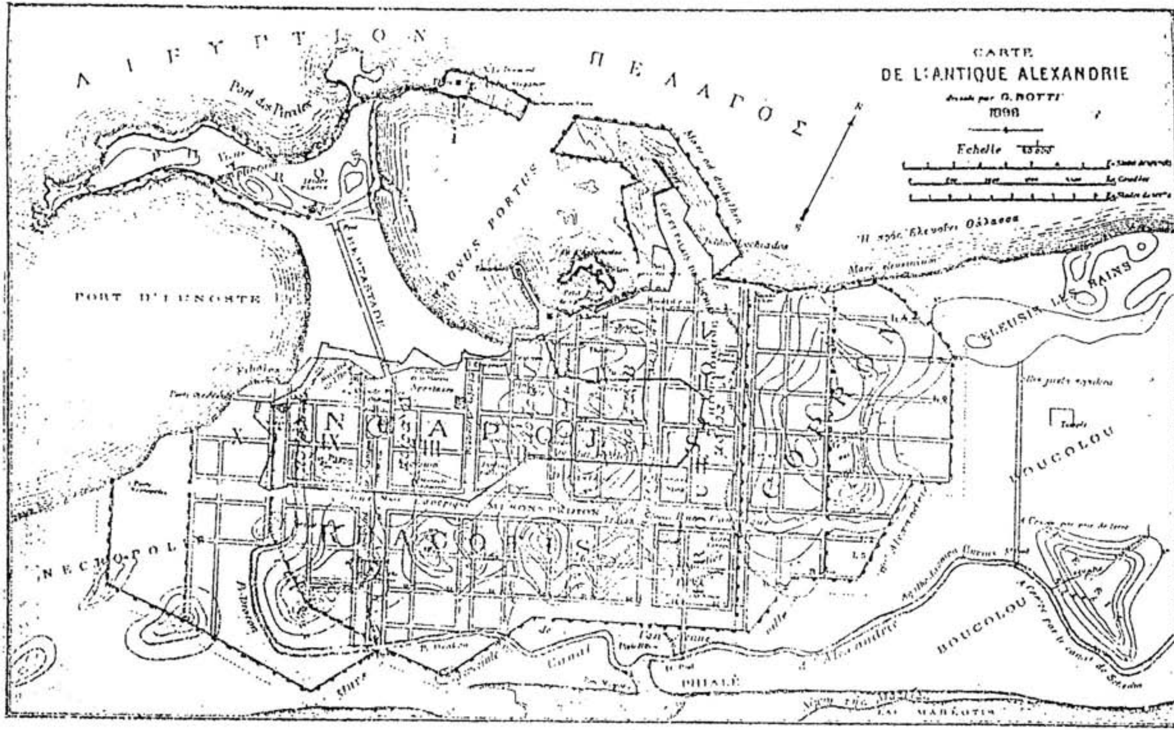
خريطة رقم (٨)

خريطة الإسكندرية

كما رسمها محمود الفلكى باشا للمقارنة بين حدود المدينة ومعالمها فى العصور القديمة (وقد رسمت باللون الأحمر)

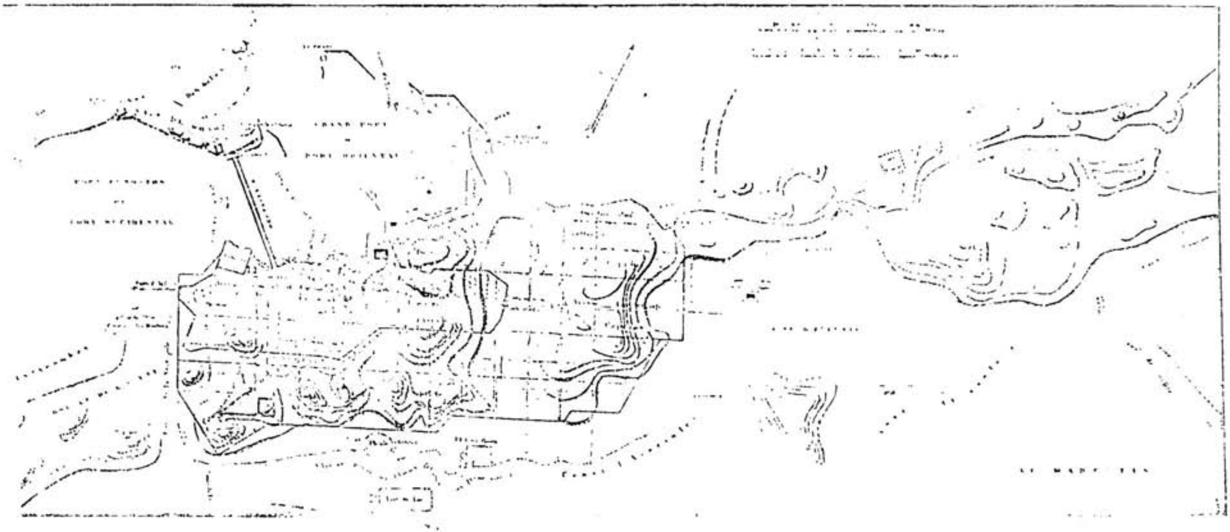
وحدود المدينة ومعالمها فى العصور الوسيطة (وقد رسمت باللون الأسود)

(من : الإسكندرية ، طبوغرافية المدينة وتطورها للدكتور / جمال الدين الشيال)



خريطة رقم (٩) لبوتى Botti (سنة ١٨٩٨)

« من كتاب Alexandrea ad Aegyptum لبريشيا Breccia »



خريطة رقم (١٠) لنيروتسوس (سنة ١٨٨٨) Néroutsos

« من كتاب Alexandrea ad Aegyptum لبريشيا Breccia »

الهوامش

(١) الفلكى (محمود باشا) رسالة عن الإسكندرية القديمة وضواحيها والجهات القريبة منها التى اكتشفت بالحفريات وأعمال سبر الغور والمسح وطرق البحث الآخرى ، والترجمة العربية لمحمود صالح الفلكى ، مراجعة د. محمد عواد حسين ، دار نشر الثقافة ، الإسكندرية ١٩٦٧ ، ص ١٢٩ - ١٣٠ وفيه : يتمثل النمو الذى ذكره ديودور الصقلى - كما قال لترون - فى زيادة عدد المبانى لملء المحيط الشاسع الذى رسمه دينوقرات وفى ذلك يقول أميين مارسللين باللاتينية :

Alexandira, Non Sensim Utaliaeubes, sedinter initia prima, auctae spatiosos ambitus

بمعنى « نمت الإسكندرية منذ البداية واتسعت بفضل طموح أهلها العظيم و لم يكن نموها بالتدريج مثل المدن الأخرى »

(٢) وصفت الإسكندرية فى الأزمنة القديمة ولمدة طويلة من الزمن بأنها أجمل مدينة : راجع على سبيل المثال :

Arculf's, Narrative About the Holy places, Written by Adamnan. Book II in p.p.t.s, vol. III, p.p 48- 50;

ابن جبير : (أبو الحسن محمد بن أحمد الأندلسى) ، رحلة ابن جبير ، نشر دى غوية) ط ٢ . مطبعة بريل ، ليدن ١٩٠٧ ، ص ٤٠ ....

(3) Arculf, op.cit.p.49;

بنامين التطيلى (بن يونة النبارى الأندلس) ، الرحلة - ترجمها من العبرية إلى العربية عزار حداد ، بغداد ، ١٩٤٥ / ص ١٧٨ - ١٧٩ ؛ ماركوبولو ، رحلات ماركوبولو ، الترجمة العربية (عن الترجمة الإنجيليزية لويلم مارسون) عبد العزيز جاويد ، المؤسسة المصرية العامة لكتاب سنة ١٩٧٧ م ، ص ٣٣٧ .

(٤) من المؤرخين المحدثين راجع : الفلكى ، الإسكندرية القديمة ؛ جمال الدين الشيال ، الإسكندرية طبوغرافية المدينة وتطورها من أقدم العصور إلى الوقت الحاضر ، فصلة من المجلة التاريخية المصرية (١٩٥٢) ، دار المعارف بمصر ، ١٩٥٢ ؛ تاريخ مدينة الإسكندرية فى العصر الإسلامى ، دار المعارف مطبعة دون بسكو ، الإسكندرية ١٩٦٧ ؛ السيد عبد العزيز سالم : تاريخ الإسكندرية وحضارتها فى العصر الإسلامى ، ط ٢ ، دار المعارف ، مطبعة دون بسكو ، الإسكندرية ١٩٦٩ ؛ دوريش النخيلى ، دراسة جديدة فى

طبوغرافية مدينة الإسكندرية زمن الملك الأشرف شعبان (٧٦٤ - ٧٧٨هـ / ١٣٦٣ - ١٣٧٧هـ) الإسكندرية ١٩٨٨م.

(٥) راجع على سبيل المثال : ابن رستة (أبو على أحمد بن عمر) الاعلاق النفسية/ نشر دى غوية مطبعة بريل ، لندن ، ١٨٩١م ، ص ٧٩ ، ص ١١٨؛ ابن فضل الله العمرى (شهاب الدين أبو العباس أحمد بن يحيى) مسالك الإبصار فى ممالك الامصار ، دولة المماليك الأولى ، دارسة وتحقيق دوروتيا كرافولسكى ، المركز الإسلامى للبحوث ، بيروت ١٩٨٥ م ص ١٥٠ . وغيرهم كثيرين لا يتسع المجال هنا لذكرهم .

(6) Arculf, op. cit. p. 48,49.

وخليج الإسكندرية هو مصدر المياه العذبة إليها ، ونشأ به الطريق التجارى الموصل إلى داخل البلاد وكان يسير محاذيـًا لسور الإسكندرية الجنوبى وعلى بعد ثلاثة أمتار منه إلى أن يصب فى الميناء الغربى أسفل حوض الميناء المقفل (الصندوق Kibotos) ، راجع : على مبارك : الخطط التوفيقية الجديدة ، جـ ٧ ، ط أولى ، المطبعة الكبرى الاميرية ، بولاق مصر المحمية ، ١٣٠٥م ، ص ٤٥ ؛

Breccia (E) Alexandria and Aegyptum, Bergamo, 1914. p. 67.

وكان هذا الخليج يمد المدينة بالمياة العذبة عن طريق ما يتفرع عنه من قنوات تملأ الصهاريج التى كانت تنتشر بالمدينة : راجع خرائط رقم ١ ، ٢ الملحقة بهذه الدراسة .

(7) Arculf, op. cit, p. 48.

ذكر أركولف الميناء المقفل (الميناء القديم أو ميناء الصندوق) بأنه يحتوى على أحواض السفن وكانت تصب فيه ترعة صالحة للملاحة وتمتد حتى بحيرة مريوط . راجع تعليقات ناشر رحلة أركولف فى p.p.t.s,III,p.49 ؛ وانظر ايضـًا الفلكى : الإسكندرية القديمة ص ١١١.

(٨) أشار أركولف إلى الميناء الشرقى الذى كان مخصصـًا للاجانب وإلى الميناء الغربى (الميناء الحربى) ، ولكنه لم يحدد المسافة التى يرى منها ضوء المنار . ويعدو وصفه للمنار وصفـًا موجزاً إذا ما قارناه بوصف الرحالة والجغرافيين المسلمين . راجع على سبيل المثال لا الحصر : ابن رستة : الاعلاق النفيسة ، ص ٧٩ ؛ ابن الفقية (أبو بكر أحمد إبراهيم الهمزانى) كتاب البلدان ، نشر دى غويه ، بريل ١٨٨٥ م ، ص ٧١ ؛ المسعودى (أبو الحسن على بن الحسين) ، مروج الذهب ومعادن الجوهر ، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ، الطبعة الخامسة ، دار الفكر للطباعة والنشر ، القاهرة ١٢٩٣ هـ ١٩٧٣م ، ٣٧٥ ، ٣٧٦. وقد أورد قصة ترددت كثيراً فى غالبية المصادر العربية وهو ما تحايل به

الروم على هدم المنار أيام الخليفة الاموى الوليد بن عبد الملك (٨٦ - ٩٦م) / ٧٠٥ - ٧١٥هـ) ونجحوا فى إزلة مرآته الضخمة التى يمكن من خلالها - فيما يقال - رؤية من يأتى فى البحر إلى مسافات طويلة للغاية تصل إلى ٥٠ ميلا أو مسيرة ثلاثة أيام وقتها ؛ راجع كاتب مراكش مجهول ، كتاب الاستبصار فى عجايب الامصار ، نشر وتعليق سعد زغلول عبد الحميد ، مطبعة جامعة الإسكندرية ، ١٩٥٨م ، ص ٩٥ - ٩٩ ؛ وانظر دراسة مفردة لناشر تحفة الألباب لأبى حامد الأندلسى عن جانب من آثار (عجايب) مصر فى القرن الثانى عشر وفيها ترجمة فرنسية لنص أبى حامد عن منار الإسكندرية .

Ferrand (Gabreil), "Les Monuments de l' Egypte au XIIe siecle d'Apres Abu Hamid Al- Andalusi", dans: Melanges Mespero,III, Orient Islamiquie, Tom LXVIII(1940), Imprimerie de l'instiut Francais d'Archeologie Orientale, le Cairo 1940, pp.58-61

(٩) وحدة القياس تساوى ٢٢٠ ياردة Arulf, op. cit, p.48 and N.4

(10) Arcuf, op. cit, p. 49.

(١١) بنيامين التطيلى ، الرحلة ، ص ١٧٦ ، ١٧٧ .

(١٢) المصدر السابق ، ص ١٧٧ ، حاشية رقم (١) إذ يذكر ناشر رحلة بنيامين أن هذه المدرسة كانت تحتوى على مكتبة الإسكندرية الشهيرة والتى تأسست سنة ٢٨٤ ق م ، واحترقت مرة سنة ٤٧ ق م ومرة أخرى سنة ٢٥٠ م - ومن المعروف أن يوليوس قيصر قد أشعل النار فى سفن الإسكندرية التى كانت لا تزال فى الترسانة ، وكذلك السفن فى الميناء لأنه لم يكن لدية من الجنود العدد الكافى لحراسة تلك السفن الكثيرة كما قال هو نفسه ، ويقال أن النيران قد التهمت جانبًا من المكتبة طبقًا لما ذكره بعض الكتاب القدماء وبناء على ذلك فإن المكتبة مع كونها من القصر - فلابد أنها كانت قريبة من الترسانة راجع : الفلكى ، الإسكندرية القديمة ، ص ١١٨ نقلاً عن سترابون، ترجمة لترون جـ ٥ ص ٣٣٩ .

(١٣) من الواضح أن بنيامين التطيلى لم ير مبنى المدرسة أو المكتبة وإنما استقى روايته من مصادر قديمة سابقة على رحلته ، وهذا ما يشير إليه ناشر رحلته إذ يذكر أن بنيامين قد قام بتدوين ما شاهده عيانًا فى الامصار التى مر بها وما نقله عن الثقات ذوى الأمانة

المعروفين لدى يهود أسبانية ، راجع الرحلة ، ص ٢٢ من مقدمة ناشر كتابه عزار حداد . وأساطين بمعنى أعمدة .

(١٤) المصدر السابق ، ص ١٧٧ . وربما ينطبق هذا الوصف على وصف رحالة القرن الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين ، حيث ذكروا فى وصفهم للأسوار المزدوجة أنها كانت مزودة بأروقة مقنطرة مسقوفة وكانت مجهزة بعقود قباب صغيرة ينعقد بعضها فوق بعض فيما لا نهاية له وتلتصق هكذا بنفس الشكل بأبراج الاسوار . راجع على سبيل المثال :

Palerne: (Jean Foresien), (1581) dans Voyage en Egypt, Le caire 1871, 9; Neitzchitz (George chr; von), 1636. dans: Voyage en Egypt des annees 1634, 1635 et 1636, Le caire 1974, p. 197.

(١٥) بنيامين التطيلى ، الرحلة ، ص ١٧٧ . ويجيء بنيامين لطول المدينة بحوالى ميل تحديداً غير دقيق ، فالميل = ١٦٠٩,٥ متراً فإذا كان الفلكى قد طول المدينة القديمة بمقدار ٥٠٩٠ متراً ومتوسط عرض المدينة ١٧٠٠ متراً والراجح لدينا أن بنيامين قد قصد طول المدينة العربية وهو أقل بكثير من طول المدينة القديمة راجع : الفلكى ، الإسكندرية القديمة ، ص ٦٣ - ٦٤ ، ٦٦ - ٦٧؛ Brecciap.cit,p59.

ولكن راجع عن محيط أسوار الإسكندرية القديمة بعد بناءها مرورا بالعصور البطلمى والرومانى والبيزنطى : لوبير (جراتيان) دراسة عن مدينة الإسكندرية فى كتاب وصف مصر (لعلماء الحملة الفرنسية) مجلد ٣ ، المدن والاقاليم المصرية ، ترجمة زهير الشايب ، الطبعة الإولى ، نشر مكتبة الخانجى بمصر ، ١٩٧٨ م ، ص ٣٦٥ ، ٣٦٧ ، ٣٦٩ - ٣٧٠ وخريطة الإسكندرية فى العهد الاغريقى والرومانى وعند الفتح العربى فى ص ٣٨٤. وهى ملحقة فى آخر هذه الدراسة :

(١٦) بنيامين التطيلى ، الرحلة ، ص ١٧٧ وهو يقصد هنا ، رصيف الهيباستاد الذى كان يصل ما بين المدينة وجزيرة فاروس ومعروف أن طوله يبلغ ٧ ستاد ومن هنا كانت تسميته ، وعلى ذلك يصبح تقدير بنيامين غير دقيق إذا علمنا أن الميل الرومانى يساوى ١٤٧٩ متراً بينما ٧ ستاد تساوى ١١٥٠ متراً على أساس أن الاستاد يساوى ١٦٥ متراً. راجع الفلكى ، الإسكندرية القديمة ، ص ٦٨ ، ص ٩٩ حيث يحدد طول الهيبا ستاد بـ ١٢٣,٥ متراً

(١٧) يذكر ابن جبير والذى تزامنت رحلته مع رحلة بنيامين (بعد حوالى خمسة عشر سنة) أن ضوء المنار يرى على أكثر من سبعين ميلا. ولكن الرأى المتفق عليه من المحققين هو ٢٥ ميلا فقط راجع : ابن جبير ، الرحلة ، ص ٣٨ ، ٤١ ؛ بنيامين : الرحلة ، ص ١٧٨ ، هـ ١ .

(١٨) من الممالك التى احصاها بنيامين ، البندقية - بلنسية ، وتسكانيا وافوليه - وأمالفى وصقلية - وقلورية (قطلونية) ورومانية وخزرية والجناقية وهنغارية- وبلغارية وراغوسة وخرواتية وصقلابونية وروسية - وإلمانيا وسكسونية والدانمرك وكورلندة والنورجة وفريزية واسكونية وانكلترة ويلز وفلندر وهينولث ونورمندية وفرنسا وبواتو وانجو وبرجونية وبروفلسيه وجنوه وبيزة وغسقونية ، وار غون نبارة وعدوه الغرب وافريقية وجزيرة العرب ونواحى الهند وزويله والحبشة وليبية واليمن والعراق والشا واليونان المعروفين بالروم والترك) ، الرحلة ، ص ١٧٨ ، ١٧٩ . ويتفق معه ليون الافريقى فى القرن السادس عشر الميلادى ، العاشر الهجرى ، من ورود السفن التجارية إلى ميناء الإسكندرية الشرقى من مختلف الاقطار ويقول «وفيه ترسو أكثر السفن جمالا وكذلك أكثرها أهمية ، كراكب البندقية والسفن الجنوبية والراقوزية وكذلك المراكب الأوربية الأخرى ، ونشاهد عادة فى الإسكندرية سفن قادمة حتى من الفلاندز وانكلترة وبسكاوى ، والبرتغال ومن كل السواحل الأوربية ... ولكن أكثرها عدداً هى السفن الإيطالية . راجع : ليون الافريقى (جان) - الحسن بن محمد الوزان الزياتى) وصف أفريقية ، ترجمة عبد الرحمن حميدة عن الترجمة الفرنسية . أ.ايبولار منشورات كلية العلوم الاجتماعية بجامعة الإمام محمد بن مسعود الإسلامية ، المملكة العربية السعودية ، الرياض ١٣٩٩م ، ص ٥٧١ .

(١٩) بنيامين التطيلى ، الرحلة ، ص ١٧٩ .

(20) Ludolfi Rectoris ecclesiae parochialis in Suchem: Deitinere Terrae liber. Nach alten Hands chriflen berichtigt heran spegebenvon Friedrich Deych, Bibliothek des Litteraisehen Vereins in stuttgart XXV, 1851, s. 35

فى صورة عن وقعة الإسكندرية فى عام ٧٦٧ هـ / ١٣٦٥م من مخطوطة «الالمام» للنويرى السكندرى . د. بول كالة ، ترجمة وتعليق درويش النخيلى، وأحمد قدرى محمد أسعد، مطبوعات جميعة الاثار بالاسكندرية، ١٩٦٩، ص ٣٧، هـ ٣، ص٥٦.

(٢١) راجع : كالة (بول) ، المرجع السابق ، ص ٣٧ . ويضيف كالة بأنه مما لاشك فيه أن ثمة تطورا سريعًا حدث فى المدينة ويبنى كلامه هذا على التقرير الذى بعث به أحد الحجاج اللاتين الذى قضى أكثر من ثلاثين عامًا فى أراضى المسلمين ، قضى معظمها فى الإسكندرية وكتب إلى البابا يوجين الرابع Eugen IV (٤٣١ - ١٤٤٧م) بالمبادرة بمديد المساعدة للمسيحين فى مصر .

Traite sur das Le Terre Saint dans Mouments Pour Servira L'Histoire des provinces de Namur, de Hainot et de Luxembourg, t. IV, Bruxelles 1846, p. 351F.

(٢٢) للمزيد من المعلومات عن هذه النقطة راجع : رنسيمان (ستيفن) تاريخ الحروب الصليبية ، ثلاثة أجزاء ، ترجمة السيد الباز العرينى ، دار الثقافة ، بيروت ، لبنان بدون تاريخ ح ٣ ص ٧٢٢ ؛ باركر (إرنست) : الحروب الصليبية ، ترجمة السيد الباز العرينى ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة بدون تاريخ ص ١٧١ ؛ عزيز سوريال : العلاقات بين الشرق والغرب (تجارية - ثقافية - صليبية) ترجمة فيليب صابر سيف ، الطبعة الأولى ، دار الثقافة القاهرة ١٩٧٢م ، ص ٨٢ ؛

Atiya (Aziz Suryal) The Later Middle Ages, Oxford 1938, p.p 31 - 39 - 44, 114 - 116. and also;

عاشور الحركة الصليبية صفحة مشرقة فى تاريخ الجهاد العربى فى العصور الوسطى ، ح ٢ ، ط ٣ مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة ١٩٧٦م ، ص ١١٢٩ وما بعدها ؛ سهير نعينع ، حملة بطرس الأول لوسيان الصليبية على الإسكندرية ، رسالة ماجستير لم تنشر بعد الإسكندرية ١٩٨٨م ص ١٠٧ - ٤٧ فى هذه الصفحات استعراض لأهم مشاريع الدعاة اللاتين . واقتراحاتهم حول قيام حرب صليبية يكون الاتجاه فيها إلى مصر لضرب دولة المماليك اقتصاديًا ، وهذا ما تمخضت عنه حملة بطرس ملك قبرص على الإسكندرية فى ٧٦٧هـ / ١٣٦٥م .

(٢٣) وعن أحدث الكتابات فى هذا الصدد مقالة :

Franco (Caqrdini), The Memory of salem Remarks About Th Diarf of Aprilgrim Florence to the Holy Sepulchre (1384 - 85), p. 7.

وهى مقالة القيت فى مؤتمر المؤرخين العرب الذى أقيم فى القاهرة بتاريخ ١٩٩٥/١١/٢٧ م وضمن مجموعة الأبحاث الخاصة بالمؤتمر (تحت الطبع) وهى عبارة عن مذكرات حاج من فلورنسا يدعى فريسكو بالدى قام بزيارة الأراضى المقدسة فى

الفترة من ١٣٨٤ - ١٣٨٥م بهدف الحج وأيضًا لأغراض عسكرية حيث كان مكلفا بجمع معلومات عسكرية عن الموانئ الإسلامية والتحصينات وقدم تقريره للملك شارل الثانى ملك نابولى .

(24) Atiya (aziz) The Crusade, p.p. 114 - 115 :

جوزيف نسيم ، دراسات فى تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى نشر مؤسسة شباب الجامعة ، الإسكندرية ١٩٨٣ ، ث ٨٠ ، ١١١ - ١١٣ ؛ عمر كمال ، الجاليات الأوربية فى الإسكندرية فى العصور الوسطى ، فصلة من كتاب مجتمع الإسكندرية عبد العصور ، مطبعة الإسكندرية ١٩٧٥م ، ص ٢٨١ وما بعدها .

(25) Ghistele, (Joos, Van), (1482 - 1483), dans les Voyages en Egypte. Le Caire 1976. pp. 111, 124.

(26) Ghistele, (1482 - 1483), op. cit. pp. 124, 125.

وانظر موقع هذا الحصن فى السور الغربى فى خريطة بيلون Belon سنة ١٥٤٧ ضمن الخرائط الملحقة فى نهاية هذه الدراسة : خريطة رقم(١) .

(27) Fabri (Felix), (1483), dans les Voyage en Egypt, Le Caire 1975. II, p.p. 658, 660, 773.

(28) Farbri (1483), op.cit.p.p.950, 953.

(٢٩) برجيات ومفردها بريجم Echangette وهو برج صغير مخروطى الشكل يكون فى أعلى الحصن ، أما Donjons فهو البرج الرئيسى فى القصر أو الحصن . راجع يحيى الشهابى ، معجم المصطلحات الأثرية (بالفرنسية والعربية) ، دمشق ١٩٦٧ فى صفحات ١٥٣ ، ١٥٤ .

(30) Fabri (1483) op.cit.p.p.950, 953.

ويؤيده فى ذلك :

Lubenan, (R.), (1588), dans: Voyage en Egypt, Le Caire 1972. p. 212; Morison (Athoine), (1697), dans les Voyage en Egypt, Le Caire 1976, p.6.;Kiechel(S.), (1588), dans Voyages en Egypt. pendant Le annees 1587 - 1588, Le Caire 1972, p. 31.

(31) Coppin (Jean),(1636 - 1646), dans les Voyage en Egypt, Le Caire 1971. p.p. 22 - 3

(32) Coppin, op.cit.p.22.

(٣٣) يقول علماء الحملة الفرنسية : أن آثار الإسكندرية لاتومى إلا بحزن مرير وعميق فهى تقدم صورة بشعة وكئيبة للدمار التام الذى يصيب الإنسان ومنجزاته راجع : وصف مصر ، مج ٣ (المدن والأقاليم) ، ص ٣١٧.

(٣٤) انظر فى :

Pitts (J.), (1685), dans : Voyagyes en Egypt Pendant les annees 1678 - 1701, le caire 1981, p. 116n. 200.

(35) Palerne(Jean Foreslen), (1581), dans les Voyage en Egypte, le Cairo 1977. p. 9; Neitzschitz, (1636), op. Cit. p. 196.

(36) Monconys (Balhasar de), (1646 - 1647), dans les Voyages en Egypte, pp. 17 - 8 ;

ومن الرحالة الذين نصوا على ازدواج سور الإسكندرية راجع .

Lubenau (1588), op. cit., p. 212; Gonzales (1665 - 1666), op. cit, p. 311 ; Veryard (1678), dans : Voyages Pendant les annees (1678 - 1701), dans les Voyages en Egypte, le Caire 1981, p. 3; Morison (1697), op. cit. p. 6.

(37) Sandys (George), (1677), dans : voyages en Egypte deannees 1611 et 1612, dans les Voyages en Egypte, le Caire. 1973, p. 106.

(38) Blunt (Henry), (1634), dans : Voyages en Egypte des annees 1634, 1636. dans les Voyages en Egypte, le Caire 1974, p. 23; Neitzshcitz (16360, op. cit. p. 197).

(39) Monconys (1646 - 1647), op. cit, p. 14.

(٤٠) ذكر ساندى الأبراج الصغيرة فقط وحددها بثمانية وستين برجًا راجع :

Sandy (1677), op. cit, p. 106.

(41) Bremond (Gabried), (1643 1645), dans les Voyages en Egypte, le Caire 1974, p. 14.

لم يحدد بريمون ومونكوتى عدد هذه الأبراج وأنما اكتفيا بذكر المسافة بين كل برج وآخر حدداه بخمسين Gonzales خطوة أى نحو ٥٧٠ مترًا وهذا بحساب الخطوة فى المقياس الرومانى ١,٥ متر أما جوانز اليس (1665 1666) Gonzales فقد حدد الأبراج فى السورين مجتمعين (خمسمائة برج) راجع : بالن على عد هذه الأبراج بانها أكثر من ستين برجًا فى السورين مجتمعين راجع : Veryard واكتفى فيربار ,(1678) Veryard op. cit, p. 16.

(٤٢) لاحظ نتزشتز Neitzshitz سنة ١٦٣٦م أن السورين المزدوجين كان لا يزلان كاملين وفى حالة جيدة :

Neitzshitz (1636), op. cit, p. 196.

(43) Bremond (1643 - 1645), op. cit, p. 18 .

(44) Monconys (1646 - 1647), op. cit., p. 23.

(45) Gonzales (1665 - 1666), op. cit., p. 311.

وعلى الرغم مما تردد فى كلام الرحالة الغربيين عن حصانة مدينة الإسكندرية وعن أسوارها الجميلة الحصينة وأبراج الأسوار وأبوابها وما يمتاز به مظهرها الخارجى من جمال

يغرى بالتطلع إليه ، إلا أن ذلك لم يمنعهم من أبداء مشاعر الرثاء لما \كـانت عليه المدينة من خراب فى بعض أجزائها ، وقد أدرك بعضهم أسبابه فأشاروا صراحة إلى غـارة ملك قبرص بطرس لوزنيان على الإسكندرية ، كما أرجعوا سـبب هـذا الخراب إلى الزلازل، فسجلوا لنا من النصف الثـانى مـن القـرن الخامس عشـر إلى نهاية القـرن السـابع عشـر الميلاديين انطباعاتهم التى تعبر عن دهشتهم البالغة لما انتـاب المدينـة مـن تدهـور عمرانـى على الرغم من مظهرها الخارجى الخلاب .

راجع عن انطباعات هؤلاء الرحالة :

Gistele (1482 - 1484), op. cit, p. 114; Fabri (1484) , op. cit, II pp. 665 et n. 434, 725 et n. 1012; II, pp. 953, 967 et n. 1278.

حيث أشار صراحة إلى أثر حملة الملك بطرس فـى تدمير المدينـة وأن أخطـأ فـى تـاريخ الحملة، كما أشار إلى عدم تعرض رحال الملك بطرس لمساجد المدينة بالهرم .

وللمزيد من المعلومات عما أصاب مدينة الإسكندرية على يـد القبارصـة راجـع : سـهير نعينع ، حملة بطرس لوسينان ، رسالة ماجستير لم تنشر بعد ، ص ٢٤٣ ، ٢٤٤ ، ٢٤٥، ٢٤٦ ، ٢٤٧ ، ٢٤٨ ، ٢٤٩ ، ٢٥٠ ، ٢٥١، ٢٥٢ ، ٢٥٣ ، ٢٥٤ ، ٢٥٥.

(46) Belon du Mans (Pierre, Le Voyage en Egypte de pierre Belon du Mans (1547), Imprime Par L' Institt Farancais d'Archeologue oriental au Caire dans Voyags en Egypte le Caire 1970. p. 91 et n. 57; Palerne (1581), op. cit, p. 9 et n. 25;

وأشار بالبرن صراحة إلى حملة ملك قبرص .

Bretten (Michael Heberer, Von), (1585 - 1586), dans les Voyage en Egypte le Caire 1976, p. 36.

وتنبأ بلون أن المدينة سوف يهجرها سكانها كلية : Blunt (1634), op. cit, p. 23.

(47) Brown, (1673 - 1674), op, cit, p. 18.
(48) Veryard (1678), op. cit, p.3.
(49) Pitts, (1685) op. cit, p. 116.
(50) Huntington (1695), op, cit., p. 18.
(51) Morison, (1697), op. cit, p. 16.

(٥٢) تم تجديد ما تخرب من أجزاء السور الغربى الذى تعرض للهدم نتيجة عملية الاقتحام أثناء الحملة ، خاصة عند باب الديوان ، فتم عمل أبراج من الخشب فوق أعلى أبـواب المدينـة والبست هذه الأبراج بجلود الجمال والبقر صيانة لها من المهـاجمين عنـد رميهـم لهـا بالنـار وبالإضافة إلى هذا تم تغليق الصخور الصوانة المقنطرة المثبت عليهـا الحديـد المدبـب كمـا رشقت الأبواب المتجهة إلى البحـر بـالحراب المدببـة تدعيمهـا لهـا ، وتم تكسـير الحجـارة بشراريف القلاع والأسـوار لـلرمى بالمجـانيق ووزعـت هـذه الأحجـار علـى دائـر السـور

وزودت الأسوار بالنفط ومدافع البارود ، كما قام ابن عرام والى المدينة وقت الحملة بتعمير خندق من جهة الميناء الغربى ووصله ببحر الميناء الشرقى .
راجع : النويرى السكندرى ، الإلمام ، ح٣ ص ٢١٢ - ٢١٣ ، ٢١٤ ح٢ ص ١٥٧ ، ح٦ ص ٣ ، ٤٠٢ .

(٥٣) استنتج الفلكى بين أسوار الإسكندرية القديمة والأسوار العربية فقام البعض بضم أجزاء من سور الإسكندرية القديمة إلى أسوراها العربية هذا إلى جانب عدم اهتمامهم بحساب تعريجات السور وهذا مما أوجد الخلاف بين ما ذكره الرحالة من أطوال مختلفة راجع : الفلكى ، الإسكندرية القديمة ، ص ٦٦ - ٦٧ ؛ Breccia, op. cit., p. 59.
وقد نص الرحالة بريتون (١٥٨٥ - ١٥٨٦م) على طول وعرض المدينة القديمة لا العربية فالمحيط عنده بعد حساب التقديرات حوالى ٩٠٠٠ متر ويساوى ٢٨٠٠ مترًا ، عند الرحالة هارن أما الرحالة ساندى فهو يذكره بما يوازى ١٤١٠٠ مترا أما جوانزاليس فيقدره بحوالى ٧٢٤٣مترا ويقدره براون ٤٨٣٠ مترا وهينتجتون يحدده ٨٠٥٠٠ مترا فى حين اكتفى موريون (١٦٩٧) بتقدير طول المدينة وقدره ٤٨٢٨و ٥٥ مترا وفى الفلكى لمحيط سور الإسكندرية القديم (حدده ١٥٩٠٠ مترا) . وهذا يؤيد علمية الخلط بين سور المدينة القديم والأسوار العربية راجع عن هؤلاء الرحالة :

Brettem (1585 - 1586), op.cit, p. 23; Harant (15p8), op. cit, p. 266; Sandys (1611), op. cit., p. 90; Gonzales (1665 - 1666), op. cit, p. 335; Brown (1673 - 1674), op, cit, p. 21; Huntington (1695) op, cit, p. 18.

(54) Fabri (1483), op. cit. p. 656;

ولكن راجع ماشو : إذ يذكر أن مدينة الإسكندرية واسعة وعريضة ذات أبراج وأسوار عالية وحصينة ، وكل باب من أبوابها تدعمه أبراج تضفى عليها حصانة ، ويحيط بالمدينة خنادق كبيرة واسعة وعتيقة :

Machaut (Guillame, de) La Pris d'Alexandria ou Chronique du Roi Pierr et de Lusignonn Publier par M. t de Ras Latrie, Genere 1877, p. 16.

(٥٥) بنيامين التطيلى ، الرحلة ، الترجمة العربية ص ١٧٧ .

(٥٦) راجع خريطة رقم (١) Belon (1547), op. cit, p. 926 .

(٥٧) راجع خريطة رقم (٢) Belon (1585 - 1586), op. cit, p. 25

(58) Fabri (1483), pp. 683 - 684.

ويطلق على الميناء القديم اسم الميناء الغربى . راجع :

Debbane (Max. A propos de Deux colonnes Atrivuces A'l'Eglise de The onase, dans Bulletinode la societe Archeologque d'Alexandria. No 42 (1967), Imprimerie de L'instiut Francais d'Arceologie Oriantale. Le Caire 1967, p. 83.
(59) Fabri (1483),op. cit., pp. 661- 663.
(60) Fabri, op. cit., pp. 655 - 636, 773 - 775.

وقد وصف المستشرق كامب الطريقة التى كانت ترفع بها البضائع من خارج مبنى الديوان حيث توجد رافعة رحوية Cabuston راجع : Combe, les lere ... op. cit., p. 55 et n.1 والملاحظ أن ماشو قد وصف باب الديوان بأنه باب صغير ضعيف يكاد يخلو من الحماية وقد حرق أثناء حملة الملك بطرس ، ولكن تم تجديده بعد ذلك وازددات ضخامته وتم تحصينه وهذا ما يؤكده وصف فيلكس فابرى له .

Machaut (Guillaune) op. cit., pp. 84 - 85.
(61) Fabri, op. cit., pp.683 - 685.

(٦٢) ذكره ابن بطوطة بالباب الأخضر ، وقد زار ابن بطوطة الإسكندرية فى سنة ١٣٢٦م / ٧٢٦هـ، ثم فى سنة ١٣٤٩م / ٧٥٠ هـ راجع : ح١ ، ص ٢٦ ، ٢٧ ، ٣٠ .

وترجع أصل تسمية الباب الأخضر نسبة إلى جامع الأخضر المعروف بالجامع الغربى والمعروف أيضًا بجامع الألف عمود ، وقد كان فى الأصل كنيسة أقامها القديس ثيوناس Theonas (٢٨٢ - ٣٠٠) م قرب ساحل الميناء الغربى ، ثم أعيد بناؤها مع توسيعها على يد البطريق الكسندر Alexandre (٣١٣ - ٣٢٦م) فكانت تسمى كتدرائية القديسة مريم Saint Mariem إلى نهاية القرن الرابع الميلادى ، ثم تحول إل جامع عند دخول عمرو بن العاص الإسكندرية وأطلق عليه الجامع الغربى أو جامع الألف عمود نسبة الأعمدة الجراتينية ذات اللون الأخضر التى كانت مقامة فى الكنيسة راجع :

Breccia , p. 45;

على مبارك (الخطط التوفيقية) ٧ / ٤٣ .

راجع عن تسمية الباب الغربى ، بباب القمر أو باب برقة أو باب الصحارى :

Sandys (1677), op. cit., p. 96;
Villamont (1589 - 1590), op. cit., p. 233;

ليدن الإفريقى / وصف إفريقيا ، ص ٥٧١ ؛

Morison (1697), op. cit., p. 16; Bremond (1643 - 1645), pp. 18, 33.

(٦٣) لم يذكر هذا الباب بهذا الاسم عند الرحالة الغربيين سوى ذكره محرفًا بعض الشىء Laporte Issidir عند كل من فريار Veryard وثيفند Thevenot راجع :

Thenenot (1664), Dans ; combe; les leves .. p. 58
Veryard (1678), op. cit., p. 7.

(٦٤) Comb, ole la colonne .. p. 105 وذلك نسبة إلى كنيسة صغيرة عثر عليها فى الشـارع المقابل للباب .

(٦٥) Machant, p. 91 جاءت هذه التسمية عند ماشو .

وجاءت تحت اسم La porte du poivre بمعنى البهار بالإيطالية فى

Villamont (1589 - 1!90!), op. cit., p. 233.

(66) Fabri (1583), op. cit., II, 656 - 657.

(67) Harant (1598), op. cit., p. 268;

Sandys (1611), op. cit., p. 96. (٦٨) ليون الإفريقى ، وصف إفريقيا ، ص٥٧١

(69) Bremond (1643 - 1645) op. cit., p. 18. Bad habudi Rosseto

وهى فى الأصل الإيطالى مرحلة بريمو

(70) Villamont (1589 - 1590), op. cit., p. 233.

(٧١) راجع من موضع كل من المنار الجديد والقديم ما ذكره الرحالة البرت فى سـنة ١٦٣٤م الشروح التى أتى بها ناشر رحلته :

Albert (1634), op. cit., pp. 94 - 5 et 165 (note).

وراجع أيضًا : على مبارك ، الخطط التوفيقية ، ج٧ ص ٣٩ - ٤٠ .

(72) Monconys (1646 - 1647), op. cit., p. 23.

(73) Veryad (1678), op. cit., pp. 6 - 7 et n. 10; Morison (1696), op. cit., p. 13 .

(٧٤) راجع موقع الحصن فى خريطة رقم (١) لبيلون وهو نفس ما ذكره الرحالة فابرى وبريتى

راجع : Tabri (1483), op. cit., p. 724; Brette (1585 - 1586), op. cit.,p. 29.

وراجع أيضًا ليون الإفريقى ، وصف إفريقيا ص ٥٧٢ .

(٧٥) Sevitacilpxe seton 166 - 165 pp. te 95 p. cit. po, (1634) Albert وهنـاك قلعـة أخرى لم يتكلم عنها الرحالة وهى قلعة ضرغام أو (برج ضرغـام) الأمـير أبـو الاشـبال ضرغام بن سوار فى وزارة العادل بن رزيك أيام الخليفـة العـاضد لديـن الله الفـاطمى ، وذلك فى سنة ٥٧٧ هـ (١١٦٣م) ، راجع المقريزى : (تقى الدين أحمد بـن علـى) ، اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمـة الفـاطميين الخلفـاء ، الجـزءان الثـانى والثـالث ، تحقيـق محمـد حلمى محمد أحمد ، القاهرة ١٩٧١م و ١٩٧٣م ، ج٣ ص ٢٥٦ وراجـع أيضًـا الخرائـط الملحقة بهذه الدراسة .

(٧٦) وصف مصر ، لعلماء الحملـة الفرنسـية ، مـج ٣ ، المـدن والإقـاليم المصريـة ، ص٣١٧، واضح من كلام علماء الحملة الفرنسية أن أسوار الإسكندرية المزدوجة مـازالت موجـودة وتعلوها الأبراج .

المصادر والمراجع

أولاً : المصادر العربية والمترجمة :

- **ابن بطوطة** : (أبو عبد الله محمد بن عبد الله ، اللواتى الطنجى) .
الرحلة ، أربعة أجزاء ، نشر د . فرموى Defremery ، وسنجوينتى Sanguintti ، الطبعة الرابعة ، باريس ١٩٢٨ - ١٩٤٩م .

- **بنيامين التطيلى** : (ابن يونه النبارى الأندلسى) .
الرحلة - ترجمها عن العبرية إلى العربية ، عزار حداد ، بغداد ١٩٤٥م .

- **ابن جبير** : (أبو الحسن محمد بن أحمد الأندلسى) .
رحلة ابن خبير ، نشر دى غويه M. J. DE الطبعة الثانية ، مطبعة بريل ، ليدن ١٩٠٧م .

- **أبو حامد الأندلسى** : (محمد بن عبد الرحيم الغرناطى ، الملقب بالشيخ عبد الله).
كتاب تحفة الألباب ، نشر جبريل فيران .
Gabriel Ferrand, dans, Journal Assiat que (Juillet Septembre 1925) paris 1925 .

- **ابن رستة** (أبو على أحمد بن عمر) .
الإعلاق النفيسة ، نشر ٦ غوية M. J. De ، مطبعة بريل ، ليدن ١٨٩١م .

- **ابن فضل الله العمرى** : (شهاب الدين أبو العباس أحمد بن يحيى) .
مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار ، دولة المماليك الأولى ، دراسة وتحقيق دوروتيا كرافولسكى ، المركز الإسلامى للبحوث ، بيروت ١٩٨٦م .

- **ابن الفقيه** : (أبو بكر أحمد بن إبراهيم الهمدانى) .
كتاب البلدان ، نشر دى غويه ، بريل ١٨٨٥م .

- **كاتب مراكشى مجهول** : (من كتاب القرن السادس الهجرى) .
كتاب الاستبصار فى عجائب الأمصار ، نشر وتعليق سعد زغلول عبد الحميد، مطبعة جامعة الإسكندرية ، ١٩٥٨م .

– **ليون الأفريقى** (جان : الحسن بن محمد الوزان الزياتى) .
وصف أفريقيا ، ألف بالإسطالية ، وترجمة إلى الفرنسية أ . أيبولار أو ترجمة من الفرنسية إلى العربية ، عبد الحميد حميدة ، منشورات كلية العلوم الاجتماعية بجامع الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، المملكة العربية السعودية ، الرياض ١٣٩٩هـ .

– **ماركو بولو** : رحلات ماركو بولو ، ترجمة عبد العزيز جاويد (عن الترجمة الإنجليزية لوليم مارسون) ، الهيئة المصرية للكتاب ، القاهرة ١٩٧٧م .

– **المسعودى** : (أبو السن على بن الحسن) .
مروج الذهب ومعادن الجوهر ، أربعة أجزاء فى مجلدين ، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ، الطبعة الخامسة ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، القاهرة ١٣٩٣هـ / ١٩٧٣م .

– **المقريزى** : (تقى الدين أحمد بن على) .
أتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء ، الجزاءن الثانى والثالث ، تحقيق محمد حلمى محمد أحمد ، القاهرة ١٩٧١ ، ١٩٧٣م .

– **النويرى السكندرى** : (محمد بن قاسم بن محمد) .
الإلمام بالإعلام فيما جرت بـه الأحكام المقضية فى وقعة الإسكندرية سبعة أجزاء، تحقيق عزيز سوريال عطية الطبعة الأولى ، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن - الهند ، ١٩٦٨ - ١٩٧٦م .

ثانيًا المصادر غير العربية :

Albert (Jacques), 1634, dans : Voyages en Egypt des annees 1634, 1635 et 1936, dans les voyages en Egyptes le Caire 1974.

Arcul F (the Bishop). Narrative Abut the places, Witten By Adannan Book II in . pp.t. s, vol III.

Belon Du Mans (Pierre)

Le Voyage en Egypte de pierre Bleon du Mans (1547), Inprine parlinstilut Francais d'Archedogie oriental au Caire, le Caire1970

Blunt (Henry), (1634), dans: Voyages en Egypte des annees 1634, 1635 et 1636, lecaire 1974.

Bremond (Gabriell), (1643 - 1645), dans les Voyage en Egypte, Le Caire 1974.

Bretten(Michael Heberer, Von), (1585 - 1586), (IFAO), le Caire 1976.

Brown (Edward), (1673 - 1674), (IFAO), le Caire 1974.

Coppin (Jean), (1636 - 1646).

(IFAO), le Caire 1971.

Fobri (Felix),(1483), (IFAO), le Caire 1975.

Fauvel (Hobert),(1631), Annexe dans:

Voyages en Egypte de Vincent Stochove(1631), (IFAO), le Caire 1975

Ghistele (Joos, van), (1482 - 1483), (IFAO), le Caire 1976

Gonzales (Pere Antonius), (1665 - 1666), (IFAO), le Caire 1977.

Harant (Christophe), (1598), (IFAO), le Caire 1972.

Huntingon (R), (1695), dans: Voyages en Egypte Pendant les annees 1678 - 1701 (IFAO), LE CAIRE 1987.

Kiechel (S.), (1588), dans · Voyages en Egypte Pendant annees 1587 - 1588, (IFAO),le Caire 1972.

Lithgow (William), (1612), dans: Voyages en Egypte des annees 1677 et 1612, (IFAO), le Caire 1973.

Lubenau (R.), (1588), dans: Voyages:

en Egypte Pendant les annees 1587 - 1588, (IFAO), le Caire 1972.

Machaut (Guillaume, de)

= la prise d'Alexandrie ou chronique du Roipierre ler de lusignan, publiee par M.L. de Maslatrie, Geneve 1877.

Monconys (Balthasar de), (1646 - 1647), (IFAO), Le Caire 1973.

Morison (Athoine), (1697), (IFAO),le Caire 1976

Neitzschitz (George chr., von), (1636),
dans : Voyages en Egypte des annees 1634, 1635 et 1636, (IFAO), le Caire 1974.

palerne (Jean Foresien), (1581), (IFAO), le Caire 1971

Pitts (J.), (1685), dans: Voyages en Egypte Pendant les annees 1678 - 1701, (IFAO), le Caire 1987.

Rocchetta (Agvilante), (1599), dans:
Voyages en Egypte des annees 1597 - 1607, (IFAO), le Caire 1974.

Sandys (George), (1617), dans: Voyages en Egypte des annees 1677 et 1612, (IFAO), le Caire 1973.

Teufel (H.Chr.), (1588), dans:

Voyages en Egypte Pendant les annees 1587 - 1588, (IFAO), le Caire 1972.

Veryard (E.), (1678), dans: Voyages en Egypte Pendant les annees 1678 - 1701, (IFAO), le Caire 1981.

Villamont (le seigneur de), (1589 - 1590), dans: Voyages en Egypte des annees 1589, 1590, 1591, (IFAO), le Caire 1971

Voyages en Egypte des annees 1587 - 1601, (IFAO), le Caire 1974.

Wild (Johann), (1606 - 1610), (IFAO), le Caire 1973.

ثالثًا : المراجع العربية والمترجمة :

باركر (أرنست Ernest Barker) :

- الحروب الصليبية ، ترجمة السيد الباز العريني ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة (بدون تاريخ) .

جبور عبد النور : (بالاشتراك مع سهيل أدريس)

- المنهل ، قاموس فرنسي عربي ، الطبعة السادسة ، دار العلم للملايين ، دار الأدب ، بيروت ١٩٨٠ .

جمال الدين الشيال (دكتور)

- الإسكندرية : طبوغرافية المدينة وتطورها من أقدم العصور إلى الوقت الحاضر ، فصلة من المجلةالتاريخية المصرية (١٩٥٢) ، دار المعارف بمصر ، ١٩٥٢م .(ص ١٩١ - ٢٧١) .

- تاريخ مدينة الإسكندرية فى العصر الإسلامى ، دار المعارف ، مطبعة دون بوسكو ، الإسكندرية ١٩٦٧م .

جوزيف نسيم يوسف (دكتور) :

- دراسات فى تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى ، نشر مؤسسة شباب الجامعة الإسكندرية ، ١٩٨٣م.

درويش النخيلى (دكتور) :

- دراسة جديدة فى طبوغرافية مدينة الإسكندرية زمن الملك الإشرف شعبان (٧٦٤ - ٧٧٨ هـ / ١٣٦٣ - ١٣٧٧م) الإسكندرية ، ١٩٨٨م.

رنسيمان (ستيفن Steven Runciman) :

- تاريخ الحروب الصليبية ،ثلاثة أجزاء ترجمة السيد الباز العرينى ، دار الثقافة ، بيروت - لبنان بدون تاريخ .

سعيد عبد الفتاح عاشور (دكتور) :

- الحركة الصليبية ، صفحة مشرقة فى تاريخ الجهاد العربى فى العصور الوسطى ، الجزء الثانى ، الطبعة الثالثة ، مكتبة الإنجلو المصرية ، القاهرة ١٩٧٦ م.

السيد عبد العزيز سالم (دكتور) :

- تاريخ الإسكندرية وحضارتها فى العصر الإسلامى ، الطبعة الثانية ، دار المعارف ، مطبعة معهد الدون Aوسكو ، الإسكندرية ١٩٦٩ م .

سهير نعينع (دكتورة) :

- حملة بطرس الأول لوسينان الصليبيـة علـى الإسـكندرية سـنة ١٤٦٥ م / ٧٦٧هـ رسالة ماجيستير لم تنشر بعد ، الإسكندرية ١٩٨٨م .

عزيز سوريال عطية (دكتور) :

- العلاقات بين الشرق والغرب ، تجارية - ثقافية - صليبية ، ترجمة فيليـب صابر سيف ، الطبعة الأولى ، دار الثقافة ، القاهرة ١٩٧٢ م .

على مبارك :

- الخطط التوفيقية الجديدة، ج٧ ، الطبعة الأولى ، الطبعـة الكـبرى الأميريـة ببولاق مصر المحمية ، ١٣٠٥ هـ .

عمر كمال توفيق (دكتور) :

- الجاليات الأوربية فى الإسكندرية فى العصور الوسطى (فصلة من كتاب مجتمـع الإسـكندرية عـبر العصــور) ، مطبعـة جامعـة الإسـكندرية ، الإسكندرية ١٩٧٥م. (ص ٢٧٣ - ٣٠٥) .

كالة (بول Paul Kahle) :

- صورة عن وقعة الإسكندرية فى عام ٧٦٧هـ - ١٣٦٥م ، مـن مخطوطـة « الإلمام » للنويرى السكندرى ، ترجمة وتعليق درويش النخيلـى وأحمـد قدرى محمد أسعد ، فى دراسات أثرية وتاريخية ، مطبوعات جميعة الآثار بالإسكندرية، العـدد(٣) ، مطبعـة الإسـكندرية ١٩٦٩ م ،(ص ٣٦ - ٩٤)

لوبير (جراتيان) :

- دراسة عن مدينة الإسكندرية فى : كتاب وصف مصر (لعلمـاء الحملـة الفرنسية) مجلد ٣ ، المدن والأقاليم المصرية) ، ترجمـة زهـير الشـايب ، الطبعة الأولى ، نشر مكتبة الخانجى بمصر ، ١٩٧٨ م .

محمود الفلكى :

- الإسكندرية القديمة ، ترجمة محمود صالح ، دار النشر الثقافية ، الإسكندرية ١٩٦٧ م .

وستنفلد (ف) :

- جداول السنين الهجرية بلياليها وشهورها بما يوافقها من السنين الميلادية بأيامها وشهورها ، ترجمة عبد المنعم ماجد وعبد المحسن رمضان ، الطبعة الأولى مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ١٩٨٠ م .

يحيى الشابى :

- معجم المصطلحات الأثرية (بالفرنسية والعربية) ، دمشق ١٩٦٧ م.

رابعًا : المراجع غير العربية :

Atiya (AZIZ Suryal) :

= The Crusade in the later Miedle Ages. Oxford 1938.

Bornecque (H.) et Canat (F.) :

= Le Dictionnaire latin - Francais, Deuxieme Edition, Paris 1936.

Breccia (E.) :

= Alexandrea ad Aegyptum, Bergamo, 1914.

Clarke (D.) :

= Alexandrea ad Aegyptum. Asurvrey, in : Bulletin of the Faculty of Art, Alexandria Uinversity, vol. v (1949), Alexandria Imprimeries, 1949, (pp. 99 - 102).

Combe (Et.) :

= « Leslaves de Gravier d'ortieres A Alexandrie (1986) », dans: Bulletin of the Faculty of Arts, Alexandria University, vol. 7 (May 1943), Association of Athorship. Translation and publication pres, Cairo 1943, (pp. 52 - 67).

Ferand (Gabriel) :

= « Les Monuments de L'Egypte au XIIe Siecle dApres Abu Hamid Al - Andalusi », dans : Melanges Mespero, III, Orient

Islamique, tome LxvIII (1940), imprimerie del' institut Francais d'Archclogie orientale. le Caire 1940, (pp. 57 - 66).

Franco (Cardini),

= The Memory of Jerusalem Remarks About the Diary of Apllgrim Fram Florence to the Holy sepulckre (1384 - 85)

وهذه المقالة تحت النشر ضمن مجموعة المقالات الخاصة بمؤتمر المؤرخين العرب الذى إقيم فى القاهرة فى ٢٧ /١١/١٩٩٥م .

Levi - Provencal (E.) :

= une Description Arabe Inedite du phare d' Alexandrie dans Melange Mespero, III, orient Islamique, Tome LxvIII (1940), Imprimerie de l'Institut Francais d'Archeologie oriental, le Caire 1940. (pp. 161 - 178).

النظام النقدى فى الدولة الإسلامية وأثره فى تطور السوق

د. على منصور نصر
أستاذ التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية المشارك
كلية الآداب – جامعة البحرين

المقدمة :

إن قيام الدولة العربية الإسلامية المترامية الأطراف فى رقعة شاسعة امتدت من الصحراء الكبرى وأقاليم السودان جنوبًا إلى تخوم روسيا وأوربا الجنوبية شمالاً، ومن أواسط آسيا شرقًا إلى البحر المحيط غربًا كان حافزًا قويًا على النشاط التجارى وتبادل السلع بين شعوب هذه المناطق ، حيث أدى إلى تنشيط التجارة وتداول العملات .

إن حركة الفتوح الإسلامية ضمن ما أدت إليه هو إقامة البنية الأساسية للدولة وأحدث زيادة مضطردة فى موارد الدولة إضافة إلى أن التطور الاقتصادى الكبير الذى ينتج عن زيادة الموارد جعل الحاجة ماسة للغاية لسك نقود عربية وذلك لإكمال المتطلبات الأساسية التى استدعتها ظروف الدولة الجديدة ، ولتسهيل عمليات المبادلة الواسعة حجمًا والمتزايدة باستمرار .

وأهمية المسكوكات تبرز فى كونها أحد أركان الدولة وشارة من شاراتها وعنوان مجدها . تتصل باقتصادياتها وتشريعاتها وسائر أوضاعها وعلاقاتها بالدول المجاورة والمعاصرة لها ، فهى مميط اللثام عن قضايا كثيرة وتعد صفحة كاشفة عن حكومات الدولة المتعاقبة لا يستغنى عنها فى تاريخ الدولة وفى تعيين ميزانيتها ولو على وجه التقريب .

وتعد صناعة المسكوكات جانبًا من أوجه الحضارة الإنسانية ، فهى بالإضافة إلى ما تكشفه من قابليات تقنية وفنية تتمثل فى صناعتها ، وأوجه إدارية

وتنظيمية تتمثل فى الإشراف عليها وضبط أوزانها فإنها تعد وثائق تاريخية مهمة ، تعين الباحثين فى الوصول لأى حقائق الأحداث التاريخية بعيدًا عن بهرجة الألفاظ المنمقة للسجلات الرسمية أو الكتابات التاريخية .

و لم يقتصر ضرب المسكوكات منذ ظهورها على التعامل والتبادل التجارى، حيث الدراسات العملية أن للنقود دورًا لا يقل أهمية عن الدور التجارى وهو الدور الإعلامى حيث كان دور هذا النوع من النقود شبيهًا بالدور الذى تلعبه الصحافة والإذاعة والتلفزيون والمؤتمرات فى الوقت الحاضر .

من هنا يتضح أهمية النقود كأداة لا يمكن الاستغناء عنها ؛ لا سيما فى حالة قيام الدولة المتحضرة كالدولة العربية الإسلامية والتى أنشأت رقابة مالية بحكم ملكيتها للمال العام وإدارته نيابة عن الرعية .

ومن هنا جاء اختيارنا لهذا الموضوع الهام والذى وضعنا له عنوان : « النظام النقدى فى الحضارة الإسلامية وأثره فى تطور السوق » حيث قسمت الموضوع إلى أربعة فصول تناول الفصل الأول جذور النظام النقدى عند العرب ، أما الفصل الثانى فقد تناول تعريف النظام النقدى فى الدولة الإسلامية ، أما الفصل الثالث فقد تحدثت فيه عن تطور النقود خلال العصر العباسى ، أما الفصل الأخير فقد تناولت فيه المؤسسات العربية وأثرها فى تطور السوق وأهمها دور ضرب النقود السفتجة والصكوك واختتمت البحث بالحديث عن أعمال الصيرفة فى الدولة الإسلامية وأثرها فى تطور الدولة الإسلامية وغيرها من الدول .

الفصل الأول

جذور النظام النقدى عند العرب

النقد فى اللغة يطلق على تمييز الدراهم ، وإخراج الزيف منها ، ويطلق على إعطاء الدراهم وأخذها ، ومنه حديث جابر وجمله ، حين اشتراه رسول الله ﷺ منه قال : « فنقدنى ثمنه » أى اعطانيه نقدًا معجلاً . كما يطلق النقد على العملة نفسها .

وتعرف النقود(١) بأنها الشيء الذى اصطلح الناس على جعله ثمنًا للسلع ، وأجرة للجهود والخدمات ، سواء أكان معدنًا أم غير معدن وبه تقاس جميع السلع وجميع الجهود والخدمات(١) .

وقد عاشت البشرية عصورًا طويلة فى تاريخها القديم بدون تعامل بالمسكوكات حيث لم تكن الحاجة إلى المسكوكات كسلعة وسيطة قائمة . ومع خطوات الإنسان الأولى صوب الاستقرار والزراعة وتدجين الحيوانات وظهور بوادر التخصص الحرفى فى المجتمعات الزراعية ، أصبحت الحاجة إلى التبادل السلعى قائمة بين الاختصاصات والمهارات المختلفة فى المكان الواحد ، كذلك نشأت الحاجة للحصول على مواد وسلع من أماكن أخرى قريبة أو بعيدة ، بعدها برزت الحاجة إلى السلع الوسيطة لتكون أساسًا لقيمة السلع المتبادلة(٣) .

وقال الدكتور/ عبد الرحمن فهمى : « لم يعرف الإنسان التعامل بالنقود فى الغابات ولكن بعد حياة الاستقرار واشتغاله بالزراعة وانخراطه فى سلك الجماعة وجد الإنسان نفسه مضطرًا إلى التفكير فى الأخذ والعطاء ، وساعد على ذلك رغبته الفطرية فى المبادلة ، وهى عنده تقويم وقبول يخرج المسألة من مجرد استلاب لحاجة الغير إلى حيث تصير نفعًا لا غنى عنه(٤) .

وعرف ابن خلدون السكة فقال : « هى الختم على الدنانير والدراهم المتعامل بهما بين الناس بطابع جديد ينقش فيه صور أو كلمات مقلوبة ويضرب بها على الدينار أو الدرهم فتخرج رسوم تلك النقوش عليها ظاهرة مستقيمة بعد

أن يعتبر عيار النقد من ذلك الجنس فى خلوصه بالسبك مرة بعد أخرى وبعد تقدير أشخاص الدراهم والدنانير بوزن معين صحيح يصطلح عليه فيكون التعامل بها عددًا وإن لم تقدر أشخاصها يكون التعامل بها وزنًا ولفظ السكة كان اسمًا للطابع وهى الحديدة المتخذة لذلك ثم نقل إلى أثرها وهى النقوش الماثلة على الدنانير والدراهم ثم نقل إلى القيام على ذلك والنظر فى حاجات وشروطه(٥) .

ويعرف علم دراسة النقود والمسكوكات بعلم (النميات) ، وهو فرع من فروع التاريخ وعلمًا من العلوم المساعدة(٦) .

العملة المتداولة فى بلاد العرب قبل الإسلام :

اتخذت الدولة البيزنطية والبلاد التابعة لها الذهب أساسًا لعملتها ، فسكت منه الدنانير الهرقلية ، وجعلتها على شكل ووزن معينين ، كما اتخذت الدولة الفارسية والبلاد التابعة لها الفضة أساسًا لعملتها ، وسكت منها الدراهم ، وجعلتها على شكل ووزن معينين ، وكانت دنانير الروم على شكل ووزن واحد لا يختلف ، وأما دراهم الفرس فكانت على عدة أشكال وأوزان(٧) .

أصبح هناك ثلاثة أنظمة نقدية سائدة قبل الإسلام فبالإضافة إلى الدينار الذهبى البيزنطى، والدرهم الفضى الساسانى، هناك المسكوكات الفضية اليمنية(٨).

(أ) **الدنانير الذهبية** : وهى عبارة عن قطعة نقدية ذهبية مستديرة الشكل نقشت على أحد جوانبها صورة للملك الحاكم هرقل أما لوحده أو مع ولديه (هرقليوناس وقسطنطين) وقد أمسك كل منهم صليبًا طويلاً وتوج رأس الصليب بصليب آخر ، أما الوجه الثانى للدينار البيزنطى فقد حمل نقش الصليب قائمًا على مدرجات أربعة تحيط بها العبارات باللاتينية تذكر تاريخ السك .

وذكر المؤرخ السيوطى(٩) ، نوعًا آخر من الدنانير الذهبية البيزنطية نقش عليها ما يلى : « اسم الأب والابن وروح القدس » بالحروف اللاتينية وقد صهرها الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان ونقش عليها بالنصوص العربية اسم الله وآيات من القرآن الكريم .

(ب) المسكوكات الفضية الساسانية : وكانت عبارة عن قطعة نقدية ذات وزن معلوم نقشت على أحد جوانبها صورة نصفية بوضع جانبى للملك الساسانى الحاكم وقد اعتمر التاج الساسانى ، وعلى الجانب الآخر ظهرت دكة النار المجوسية ويقف على جانبيها حارسان مدججان بالسلاح ، وقد توزعت النصوص الفهلوية المتضمنة سنة ومكان السك إضافة إلى العبارات الدعائية على الوجهين ، كما توزعت حواشى الجانبين أربعة أهلة كل هلال نجمة ، وكانت المسكوكات الفضية الساسانية على نوعين ، النوع الأول كانت تسمى (البغلية) وتزن ثمانية دوانق ، أما النوع الآخر فكانت تسمى (الطبرية) وتزن أربعة دوانق .

(جـ) المسكوكات الفضية اليمنية : كانت الجزيرة العربية ، خاصة أجزاءها الجنوبية ذات نشاط تجارى واسع ، وقد ذكرت فى القرآن الكريم عن رحلة الشتاء والصيف ، حيث قامت حضارات منها المعينية والسبئية والحميرية . وقد سك اليمنيون قبيل الإسلام مسكوكات تميزت بحملها صورة ضفائر وهو حليف وقد أمسك بيده اليمنى طيرًا وأمسك بيده اليسرى عصا طويلة وخلفه اسمه وقد طبع بحروف واضحة بارزة بالمسند، وهو (أب يشع) وأمامه الحروف الأولى من اسمه، وهو الحرف (أ) بحرف المسند ، دلالة على أنه الأمر بضرب تلك القطعة(١٠) .

هذه الأنظمة النقدية الثلاثة التى كانت معروفة قبيل الإسلام . وقد سكت الدولة البيزنطية نقودها من الذهب فى حين سكت الدولة الساسانية واليمن نقودها من الفضة . وقد يكون السبب الرئيسى فى ذلك هو كثرة مناجم الذهب فى المناطق التى كانت تسيطر عليها السلطة البيزنطية ، لا سيما أفريقيا ، والتى كانت الممول الرئيسى لمعدن الذهب . فى حين تندر مناجم الذهب فى الشرق وكثر مناجم الفضة ، ونفس الشيء يذكر بالنسبة للجزيرة العربية وبلاد اليمن ، لكن الأسواق العربية التى كانت قائمة قبل الإسلام كانت على ما يبدو تقبل التعامل بجميع الأنظمة النقدية على أساس الوزن والعيار . وقد استخدم القسطاط آلة لوزن النقود ، وكانت لهم أوزان خاصة(١١) .

قال البلاذرى فى بعض رواياته : « كانت لقريش أوزان فى الجاهلية ، فدخل الإسلام فأقرت على ما كانت عليه : كانت قريش تزن الفضة بوزن تسميه درهمًا ، وتزن الذهب بوزن تسميه دينارًا . فكل عشرة من أوزان الدراهم سبعة أوزان الدنانير . وكان لهم وزن الشعيرة - وهو واحد من الستين من وزن الدراهم . وكانت لهم الأوقية : وزن أربعين درهمًا والنش : وزن عشرين درهمًا وكانت لهم النواة ؛ وهى وزن خمسة دراهم . فكانوا يتبايعون على هذه الأوزان . فلما قدم النبى ﷺ مكة أقرهم على ذلك(١٢) .

وأورد البلاذرى رواية أخرى قال : « كانت دنانير ترد على أهل مكة فى الجاهلية ، وترد عليهم دراهم الفرس البغلية . فكانوا لا يتبايعون إلا على أنها تبر (أى غير مضروبة) . وكان المثقال عندهم معروف لوزن : وزنه اثنان وعشرون قيراطًا إلا كسرًا . ووزن العشرة الدارهم سبعة مثاقيل . فكان الرطل اثنى عشر أوقية ، وكل أوقية أربعين درهمًا .

وكانت الدراهم الواردة من بلاد فارس مختلفة الأوزان : صغارًا وكبارًا . روى البلاذى عن الحسين بن صالح أنهم « كانوا يضربون منها مثقالاً - وهو وزن عشرين قيراطًا ، ويضربون منها وزن اثنى عشر قيراطًا ويضربون عشرة قراريط وهى أنصاف المثاقيل » . وقال غير الحسن بن صالح « كانت دراهم الأعاجم : فالعشرة منها وزن عشرة مثاقيل ؛ وما العشرة منها وزن ستة مثاقيل ؛ وما العشرة منها وزن خمسة مثاقيل ومعنى القولين واحد(١٣) .

وقال الماوردى : « إن الدراهم كانت فى أيام الفرس مضروبة على ثلاثة أوزان : منها درهم على وزن المثقال عشرون قيراطًا ، ودرهم وزنه عشرة قراريط ، ودرهم وزنه اثنى عشر قيراطًا(١٤) وهذا مطابق لما قاله البلاذرى .

وقال جواد على : إن أهل العربية الجنوبية استعملوا النقود فى معاملاتهم ، استعملوا نقودًا سكت من ذهب ، ونقودًا سكت فى فضة ، وأخرى سكت من نحاس ومن معادن أخرى . وقد عثر على نماذج من كل نوع من هذه الأنواع .

كما تعاملوا بالنقود الأجنبية كذلك ، مثل النقود اليونانية والرومانية والمصرية والحبشية والفارسية . وقد عثر على نماذج من هذه النقود فى مواضع متعددة من العربية الجنوبية : فى اليمن وفى حضرموت ، وفى مواضع أخرى . وقد زاد تعامل أهل اليمن بالنقود الحبشية والساسانية فى أثناء احتلال الأحباش والساسانيين لليمن(١٥) .

وقد حكى لنا كسماس Cosmas ، الرحالة الهندى ، فى منتصف القرن السادس الميلادى خبر مناظرات جرت فى مجلس ملك سرنديب بين تاجر رومى وآخر فارسى ، وأراد كل منهما أن يثبت أن ملك بلاده أقوى ، وغلب التاجر الرومى صاحبه آخر الأمر ، وذلك بأن أخرج قطعة ذهبية جميلة من العملة البيزنطية التى يتعامل بها فى جميع أنحاء البلاد على حين أن الفارسى لم يستطيع أن يخرج إلا عملة من الفضة ومن الصحيح فى هذه الحكاية أنه بين البيزنطيين وبين الدولة الساسانية معاهدة خاصة بالعملة ، تقضى بأن يضرب الساسانيون نقودًا من الفضة فقط ، ويتخذوا العملة الرومية الذهبية عملة لهم(١٦) .

وفى خيبر كانت العملة المتداولة بين سكان الواحة هى الدنانير والدراهم ، كما كانت هى المتداولة فى سوق خيبر ومتاجرها فى الجاهلية وعند ظهور الإسلام(١٧) ، فقد كانت العملة السائدة بين سكان الحجاز الدينار والدرهم(١٨)، ويذكر صاحب « المغازى » أن يهود خيبر وهم أصحاب ثروات طائلة « كانوا قد غيبوا نقودهم وعين مالهم »(١٩) يوم خيبر ، ولذلك لم يغنم المسلمون شيئًا منها(٢٠) ، حتى إذا صالحهم النبى ﷺ ، وأمنهم ، وأقيمت السوق ، كان من اليهود من « يقبلون ويدبرون ، ويبيعون ويشترون . لقد أنفقوا عامة المغنم مما يشترون من الثياب والمتاع » بما كانوا قد غيبوه من النقود وعين المال(٢١) والعين هو الدينار والذهب بعامة ، ويعبر عن الذهب بلفظ (الصفراء) . كما يعبر عن الفضة بـ (البيضاء) وبالأبيض لبياض الفضة ، ومنها تصنع الدراهم(٢٢) .

ولم يرد فى الإخبار ما يفيد أهل العربية الغربية أو أى مكان آخر فى جزيرة العرب بضرب النقود الجاهلية فيها(٢٣) .

المسكوكات فى صدر الإسلام :

بعد قيام الدولة العربية الإسلامية أقر الرسول ﷺ المسكوكات السابقة على الإسلام(٢٤) ، (الدنانير الذهبية البيزنطية والمسكوكات الفضية الساسانية واليمانية) . وفرض ﷺ زكاة الأموال على ذلك ، فجعل فى كل خمس أوراق من الفضة الخالصة التى لم تغش خمسة دراهم ، وفرض فى كل عشرين دينارًا نصف دينار(٢٥) ، وأقر الرسول ﷺ التعامل بالدنانير والدراهم باعتبارها نقدًا ، كما أقر الأوزان التى كانت قريش تزن بها هذه الدنانير والدراهم . عن طاووس عن ابن عمر قال : « قال رسول الله ﷺ الوزن وزن أهل مكة ، والمكيال مكيال أهل المدينة »(٢٦) .

ذكر ابن سلام فى كتابه (الأموال) أن الرسول ﷺ كان قد قبل الزكاة والجزية بقدر معلوم من تلك المسكوكات الذهبية والفضية السابقة على الإسلام ، كما وافق على صداق ابنته فاطمة من الإمام على بن أبى طالب بقدر معلوم من المسكوكات الساسانية ، وهو أربعمائة وثمانون درهمًا وزن ستة دوانق (وهو الوزن الشرعى للمسكوكات الساسانية بعد الإسلام) إذ جعلها المسلمون بهذا الوزن واعتمدوها فى دفع الزكاة والجزية والمعاملات كما وزع الرسول ﷺ الدنانير الذهبية التى بعثها قيصر الروم بين أصحابه(٢٧) .

ولقد حذا حذو الرسول ﷺ الخليفة الأول أبو بكر الصديق(٢٨) وصار الناس يتعاملون بها عددًا ، ومن هنا أفتى بعض الفقهاء بمنع كسر النقود(٢٩) وعدوا ذلك من جملة الفساد فى الأرض . وروى عن الرسول ﷺ أنه نهى عن كسر النقود(٣٠) وبما كان ذلك بداوفع اقتصادية ، وأن النبى ﷺ يرمى من وراء ذلك ألا تعود الدنانير تبرًا فيتخذ منها أوان ، فتكون والحالة هذه أرصدة بعيدة عن التداول ، الأمر الذى سيؤدى إلى قلة السيولة النقدية فى الأسواق ، هذا فضلاً عن أن عملية الكسر قد تؤدى إلى التزييف والتدليس والالتباس التى نهى عنها الشرع(٣١) .

ولما تولى عمر بن الخطاب الخلافة توسعت الدولة العربية الإسلامية بفتح بلاد الشام والعراق ومصر . وقد كانت تلك الأقطار غنية ، مما جعل واردات الدولة العربية بازدياد .

وكان لفتح العراق فى القادسية الأولى أثر كبير على الدولة الساسانية ، إذا استمر تحرير المزيد من مدن المشرق ، فكانت معركة نهاوند التى سميت (فتح الفتوح) ، وقد انعكست تلك الفتوحات على المسكوكات فأضاف العرب المسلمون كلمات عربية منها البسملة (بسم الله) و(محمد) و(بركة) وغيرها على المسكوكات الساسانية . هذه العملية أكدت انهيار الدولة الساسانية ، إذ أن تغير مسكوكات دولة ما يعنى ضعفها ، وقد اعتبرت المسكوكات منذ أقدم الأزمنة من مستلزمات الدولة ، وأن أى تلاعب أو تغيير بهيئتها يعنى ضعف سلطة تلك الدولة(٣٢) .

رأى عمر بن الخطاب أن الدراهم المتداولة فى الأسواق مختلفة الأوزان(٣٣) منها (البغلى)(٣٤) وهو ثمانية دوانيق ، ومنها الطبرى وهو أربعة دوانيق ، ومنها المغربى وهو ثلاثة دوانيق ، ومنها اليمنى وهو دانق قال : أنظروا الأغلب مما يتعامل به الناس من أعلاها وأدناها ، مكان الدرهم البغلى والدرهم الطبرى ، فجمع بينهما فكان اثنى عشر دانقًا ، فأخذ نصفها ، فكان ستة دوانيق ، فجعل الدرهم الإسلامى فى ستة دوانيق(٣٥) .

واستمر المسلمون فى استعمال الدنانير على الطراز البيزنطى والدراهم على الطراز الساسانى مع كتابة بعض الكلمات الإسلامية بالحروف العربية زمن الخليفة عثمان بن عفان (٢٣ - ٣٥هـ) حيث شملت (بسم الله - ربى) و(بسم الله- الملك) وضرب الخليفة عثمان دراهم نقش عليها « الله أكبر »(٣٦) ، كذلك حملت المسكوكات زمن الخليفة على بن أبى طالب (٣٥ - ٤٠هـ) نفس العبارات السابقة إضافة إلى (ولى الله) ، كما ضربت سنة ٣٩هـ/٦٥٩م نقش عليها (بسم الله ربى)(٣٧) . ولكننا نفتقر إلى نماذج من هذه النقود . وربما يعود ذلك إلى احتمال صهرها عند إصلاح السكة زمن الخليفة عبد الملك بن مروان .

المسكوكات الأموية قبل تعريب النظام النقدى :

لعبت المسكوكات الأموية زمن الخليفة الأموى معاوية بن أبى سفيان (٤٠ - ٦٠هـ / ٦٦٠ - ٦٧٩م) دراهمًا ، فقد نقش عبارة (معاوية أمير أورشنكان) بالخط الفهلوى على المسكوكات الساسانية ، وترجمتها (معاوية أمير المؤمنين) ، وذلك لاشعار العامة والخاصة بأنه هو الخليفة الشرعى . وتذكر المصادر التاريخية أن معاوية كان قد نقش صورته على المسكوكات متقلدًا سيفًا(٣٨) .

ونقل عن معاوية بن أبى سفيان أنه سك فى خلافته دراهم زنة كل منها ستة دوانيق ، وأوعز لواليه على العراق زياد بن أبيه بضرب الدراهم . وأضاف ابنه عبيد الله بن زياد(٣٩) الذى كان أميرًا على البصرة والكوفة فى السنوات (٥٣ - ٦٤هـ) على المسكوكات عبارة « بسم الله - ربى » وأضاف بن عبد العاص بن أمية الثقفى مسكوكة سنة ٥٨هـ حملت عبارة « الله رب الحكم » و« بسم الله رب الحكم » بالحروف العربية « طلحة لله » . وأصدر عبد الملك بن عامر مسكوكة فى نيسابور سنة ٦٦ هـ نقش عليها بالحروف العربية ما يلى : « بسم الله محمد رسول الله »(٤٠) .

ولما قام عبد الله بن الزبير بمكة ، ضرب دراهم ، ويقال أنه أول من ضرب الدراهم المستديرة ونقش على أحد الوجهين « محمد رسول الله » ، وعلى الآخر « أمره الله بالوفاء والعدل » . كذلك ضرب مصعب بن الزبير دراهم بالعراق سنة ٧٠هـ/٦٩٠م وعليها لفظة « بركة »فى جانب ، و« الله » فى الجانب الآخر ، وأعطاها للناس فى العطاء(٤١) . وظل التعامل بها جاريًا هناك حتى أبطله الحجاج(٤٢) . وقيل أن مصعب ضرب مع الدراهم دنانير أيضًا(٤٣) .

ويعتبر الأمير حمدان بن أبان أول من نقش اسمه كاملاً وبالحروف العربية على المسكوكات الساسانية : « بسم الله / حمدان بن أبان » . وسك الحجاج بن

يوسف الثقفى الذى كان واليـًا على البصرة والكوفة العديد من المسكوكات الساسانية ونقش عليها بالخط العربى « الحجاج بن يوسف » فى الوسط ، وعلى الطوق « بسم الله لا إله إلا وحده محمد رسول الله » وكان ذلك سنة ٧٦ هـ ، ويبدو بأنها كانت الخطوة الأخيرة نحو التعريب الشامل .

ويبدو أن كل هذه الأنواع كانت نقودًا قليلة العدد ، ولم يعم التعامل بها ، ثم أنها كانت على سمة الضرب القديم للأكاسرة أو الروم ، دون أن تحقق جديدًا فى الوزن ودرجة النقاء(٤٤) .

ولم يكن فى الأمصار الإسلامية فى العهد الأموى وقبل مجيء عبد الملك بن مروان سكة عربية إسلامية معترف بها بل كان لأمراء الولايات دور سك خاصة يسكون فيها العملة حسب احتياجاتهم ولهذا كانت قيم النقد غير مستقرة ، الأمر الذى شجع على التزييف والتلاعب(٤٥) .

ويمكن القول فى هذا الصدد ، أن الدولة العربية الإسلامية وقتئذ كانت ذات نسبة نقدية منخفضة بمعنى أن نسبة عرض النقد إلى الدخل القومى فيها نسبة منخفضة عمومًا ، إذا ما قورنت بتلك النسبة التى كانت سائدة فى الدول المعاصرة لها . ويعود ذلك إلى حداثة الدولة ، والى الافتقار إلى سوق نقدية ومالية متطورة .

وقد لعبت المسكوكات دورًا اعلاميًا منذ ذلك الوقت ، فقد استغل زعماء الحركات الانفصالية فى الدولة الأموية المسكوكات عندما نقشوا عبارات مثل (عبد الله أمير أورشنكان) و(القطرى أمير أورشنكان) وقد نقش القطرى بن الفجاءة زعيم الخوارج والذى كان مناوئًا للخلافة الأموية شعارهم (لا حكم إلا لله وغيرها من العبارات التى حملتها المسكوكات الساسانية بالخطين العربى والفهلوى(٤٦) .

الفصل الثانى

تعريب النظام النقدى فى الدولة العربية الإسلامية

إن النقود التى ضربها خلفاء الدولة العربية الإسلامية وأمراؤها لم تثبت على وزن واحد ، بل كانت متغيرة الأوزان أحيانـًا وظل العرب المسلمون يتعاملون بالنقود الأجنبية ، جنبًا إلى جنب مع النقود العربية الإسلامية المحدودة الكمية ، إلى أن استقر الأمر للأمويين الذين وقعوا تحت تأثيرات قومية ، ودوافع مالية ودينية ضاغطة ، عندئذ رأوا ضرورة سك عملة جديدة ، فضية وذهبية ، خالية تمامًا من الشارات الأجنبية .

وتتفق الروايات التاريخية على أن الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان (٦٥ - ٨٦هـ/٦٨٥ - ٧٠٥) هو أول من ضرب النقود العربية على مراحل بشكلها المتميز تمامًا من النقود الأجنبية(٤٧) .

وروى أن سعيد بن المسيب سئل : من أول من ضرب الدنانير المنقوشة ؟ فأجاب عبد الملك بن مروان ، وكانت الدنانير ترد رومية والدراهم ترد كسرويه وحمرية قليلة(٤٨) .

وأورد البلاذرى عن محمد بن عمر (الواقدى) عمن حدثه أن عبد الملك أول من ضرب الذهب عام الجماعة سنة ٧٤هـ ، وعن المدائنى أنه قال : ضرب الحجاج الدراهم آخر سنة ٧٥ هـ ثم أمر بضربها فى جميع النواحى سنة ٧٦هـ . كما روى البلاذرى أيضًا عن أبو الزبير الناقد قال : ضرب عبد الملك شيئًا من الدنانير فى سنة ٧٢هـ ثم ضربها سنة ٧٥هـ(٤٩) .فهذه الروايات كلها متفقة على أن ضرب الدنانير بدأ فى سنة ٧٤هـ ، ثم أعيد ضربها بعد ذلك .

ويعتبر عبد الملك بن مروان أول من نقش بالعربية على الدراهم(٥٠) ، فعد عمله هذا إصلاحًا جذريًا حاسمًا ، إذ أنه حدد عيارًا ثابتًا لكل من النقدين بنسبة معينة وفق ما أقره الشرع(٥١) وكانت أوزان النقد العربى الذى ضربه عبد الملك للفضة والذهب والدراهم والدينار (مثقال ذهب) اتخذ هذه الأوزان أساسًا للدرهم الشرعى وللدينار والنسبة بين الوزنين هى ١٠ دراهم - ٧ دنانير(٥٢) .

إن سياسة التعريب التى انتهجها عبد الملك كانت ناجحة وأدت إلى نشر اللغة العربية من خلال المراسلات وجعلها لغة الأمور الإدارية والمالية ومختلف النشاطات الرسمية ، ولإتمام هذه السياسة لم يكن هناك مناص من تعريب المسكوكات وتخليصها من التبعية الأجنبية كالساسانية بالنسبة للدراهم الفضية ، والبيزنطية بالنسبة للدنانير الذهبية . والغاية المهمة من تعريب المسكوكات هى استكمال استقلال الدولة العربية الإسلامية استقلالاً تامًا .

إن سياسة التعريب هذه أغضبت ملك الروم ، الذى بعث إلى عبد الملك يهدده ويتوعده بالإساءة إلى الإسلام(٥٣) .

بدأ عبد الملك التعريب بالدنانير الذهبية منذ سنة ٧٤هـ/٦٩٣م(٥٤) ، بإضافة بعض النصوص العربية ، حتى وصلت العملية ذروتها سنة ٧٧هـ/ ٦٩٦م بتعريب الدينار تعريبًا كاملاً .

كانت الدنانير البيزنطية تحمل الحرفين (IB) فكان التغير الأول للدنانير سنة ٧٤هـ عندما أبدل وضع الحرفين (B1) ومهما يكن من تفسيرات حول ما يعنيه هذان الحرفان ، إلا أن الغاية من إبدال وضعهما جاء لمجرد تمييز الدنانير العربية الإسلامية عن الدنانير البيزنطية .

وجاء التغير الثانى على شكل الصليب ، فحذف الجزء الأعلى منه ليصبح على شكل حرف (T) تحيط به عبارات التوحيد باللغة العربية .

وفى سنة ٧٦هـ/٦٩٥م حذفت صورة الملك البيزنطى من الدنانير وحلت محلها صورة يعتقد أنها للخليفة عبد الملك بن مروان(٥٥) ، ويبدو الخليفة واقفًا متمنقطًا بالسيف العربى المستقيم ، وقد اعتمد كوفية تتدلى على كتفيه وله لحية طويلة . ثم جاءت الخطوة الأخيرة من خطوات التعريب عندما أعلن استقلالها كليًا حيث كتبت بالخط العربى الكوفى وحذفت جميع التأثيرات البيزنطية فأصبح الدينار منذ سنة ٧٧هـ/٦٩٦م عربيًا خالصًا تساوى فى الوزن مع الدينار البيزنطى . وكان الدينار البيزنطى يزن مثقالاً والمثقال ثمانية دوانق ، ووزنه عشرون قيراطًا ، أو اثنان إلا كسرًا ، والوزنان شيء واحد ، لأن القراريط فيها مختلفة ،

وقدروا المثقال باثنين وسبعين حبة شعير من الشعير الوسط ، المقطوع مادق من طرفيه ، كما قدروه بستة آلاف حبة من حب الخردل البرى المعتدل .

أصدر عبد الملك بن مروان العملة الرسمية بطابعها الخاص جاعلاً حق إصدارها مقصورًا على دور الضرب الحكومية المعتمدة ، وإن كان (أذن للتجار وغيرهم أن يضربوا بها النقود لحسابهم ، نظير أجرة قدرت واحد فى المائة(٥٦) عن ثمن الحطب وأجر الضرب . ومع ذلك جرى أحيانًا ضرب نقود تلك الدور ، إلا أنه ساد اعتقاد مفاده أن الدراهم الجياد هى التى كانت تضرب فى دور الضرب الحكومية ، إذ هى مستوفية الشروط اللازمة أكثر من غيرها(٥٧) .

أما الدراهم الفضية فقد خضعت للتعريب منذ سنة ١٨هـ وفى زمن الخليفة عمر بن الخطاب عندما حملت المسكوكات الساسانية كلمات عربية منها البسملة ومحمد وبركة وغيرها من الكلمات ومنذ ذلك الوقت بدأت بالازدياد حتى خلافة عبد الملك بن مروان عندما زادت نصوصها العربية سنة ٧٣هـ وحملت ما يلى : «بسم الله لا إله إلا هو وحده محمد رسول الله - دمشق ثلث وسبعين» .

وقد ذكر علماء اللغة أن لفظة الدرهم فارسية الأصل ، قد عربت ، وقالوا فى جمعها دراهم ودراهيم وهو نقد من الفضة . وقد عرف بـ (درم) Diram فى الفارسية وبـ (درخمة) Drachma فى اليونانية . والظاهر أن العرب أخذوا بالتسمية الفارسية . وقد استعملوا فى تعاملهم دراهم الفرس ودراهم اليونان(٥٨).

وفى سنة ٧٦هـ بدأ ضرب الدراهم فى العراق على يد الحجاج بن يوسف الثقفى وبإيعاز من الخليفة عبد الملك بن مروان فى سنة أربع وسبعين للهجرة(٥٩)، وقيل خمس وسبعين للهجرة . وقد نقش الحجاج اسمه وبالخط العربى على مسكوكة فضية مضروبة فى مدينة أردشير خره : « الحجاج بن يوسف » وبذلك يكون الحجاج أول وال فى الدولة العربية الإسلامية يكتب اسمه على الدراهم .

وكانت الدراهم مختلفة الأوزان ، وكان للفرس ثلاثة أنواع من الدراهم الكبار ، وكان وزنها وزن المثقال ، أى عشرين قيراطًا . والصغار وكان وزنها

نصف مثال ، أى عشرة قراريط والوسط ، وكان العشرة منها وزن ستة مثاقيل ، أى اثنى عشر قيراطًا . روى البلاذرى عن الحسن بن صالح قال : « كانت الدراهم من ضرب الأعاجم مختلفة ، كبارًا أو صغارًا ، فكانوا يضربون بوزن عشرة قراريط ، ويضربون منها وزن اثنى عشر قيراطًا ، ويضربون بوزن عشرة قراريط ، وهى أنصاف المثاقيل(٦٠) .

وكان الخليفة عبد الملك قد نقش على أحد وجهى الدراهم (قل هو الله أحد) وعلى الوجه الآخر (لا إله إلا الله) وطوق الدرهم على وجهيه بطوقين : الأول : (ضرب هذا الدرهم بمدينة كذا) وفى الطوق الآخر : (محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون)(٦١) .

وربما تكون الدراهم عربت بنفس السنة التى عربت بها الدنانير أى سنة ٧٧هـ ، وإن عدم حصولنا على دراهم معربة قبل هذا الدرهم لا يعنى أنها لم تعرب وربما ستكشف التنقيبات الآثارية فى مواقع الآثار ، أو الصدفة عن دراهم عربية قبل سنة ٧٨هـ ، لأن من المنطق أن الذى يرغب بنشر مبدأ التعريب ، يعمد على نشره بأوسع نطاق ، وبالتالى يكون الدرهم أوسع انتشارًا من الدينار ، كما أن الدراهم حملت الكلمات والعبارات العربية منذ صدر الإسلام ، وأن أرمينية التى حصلنا منها على أول درهم عربى معروف لدينا الآن لم تكن على جانب كبير من الأهمية كما كانت عليه مدن أخرى مثل دمشق العاصمة أو البصرة أو الكوفة أو غيرها من المدن ، وقد تكون الدراهم العربية الأولى التى سكت فى أرمينية كانت لتخليد الانتصار الكبير للجيوش العربية على الجيوش البيزنطية سنة ٧٣هـ(٦٢) .

وسحب عبد الملك بن مروان النقود القديمة التى كان يجرى التعامل بها فبطل منذ ذلك الوقت التعامل بالنقود الساسانية والبيزنطية ، لا بل حظر على الناس التعامل بها ، ولم يكتف بذلك ، وإنما أحضر العملات القديمة إلى دور الضرب لإعادة سكها من جديد طبقًا للشكل العربى الإسلامى الجديد(٦٣) وصارت العملة موحدة فى جميع الأقاليم والأقطار(٦٤) .

ونستطيع أن نجزم ، بأن الخليفة عبد الملك بن مروان ، هو أول من أوجد النقد العربى بخصائصه المميزة ، للدولة العربية الإسلامية رغم ما ادعاه Lavoix(٦٥) أن عملية تعريب النقود فى الدولة العربية الإسلامية التى قام بها عبد الملك بن مروان ، لا يوجد لها تاريخ محدود وأن المؤرخين العرب لا يتفقون عند هذه النقطة . لكن بلا شك أن خطوة عبد الملك هذه كتب لها البقاء والاستمرار لأنها قامت على أسس ناضجة(٦٦) . وكان لهذا العمل شأن فى إرضاء الشعور الدينى والقومى .

دوافع تعريب النقود :

أولاً الدوافع الساسية : إن ما قام به الخليفة عبد الملك بن مروان نحو التعريب هو بمثابة التعبير السليم والخط السياسى العام الذى اعتمده الخليفة وكان يرجى من ورائه إلى تحقيق الأهداف الكبرى لتلك المرحلة التاريخية . وهو فى نفس الوقت محاولة لتحدى مكانة الدينار البيزنطى وسيادته المالية ، كما كان يرجى من وراء ذلك إظهار الدور الذى يمكن أن تلعبه القوة العربية الجديدة فى الميدان الاقتصادى المالى ، بعد أن أثبتت تفوقها الكبير فى المجال العسكرى ، وإزاء ذلك زاد اهتمامه فى بناء مؤسسات الدولة الحيوية واستكمال سيادتها .

وكان من الطبيعى أن ينصرف جزء من هذا الاهتمام إلى التفكير فى تعريب النقود وأن يكون هذا الغرض هدفه المرحج ، وهو بعد هذا كله يريد أن يمهد السبل لصيغ الدولة الإسلامية بالصفة العربية وفق سياسة مرسومة رسمًا متقنًا . وهنا يبرز سر نجاح الخليفة عبد الملك بن مروان فى إتمام السكة الإسلامية ، وجعلها طرازًا عربيًا خالصًا . ولأجل أن يتم هذه المهمة ، لم تقتصر إصلاحاته تلك على الأمور المالية ، إنما تعدتها إلى الشئون الإدارية الأخرى(٦٧) .

ثانيًا : الدوافع المالية : أن الخليفة عبد الملك استهدف أيضًا فيما يبدو مواكبة النمو الاقتصادى الذى شهدته الدولة وتلمس العوامل والمتغيرات الاقتصادية والمالية والمهمة المؤثرة فى تلك الفترة كذلك النمو الاقتصادى ينبغى ألا يهمل دور

عملية إصلاح النظام النقدى ، ليس فى خلق النمو فحسب ، وإنما فى خلق الظروف الملائمة لتسهيل عملية النمو هذه ، وحينئذ بات من الضرورى التوسع فى سك النقود الجديدة لكى تحقق إشباع الطلب على النقد . وتغطى حاجات المعاملات الجارية فى الأسواق من قبل المتعاملين فى قطاع التبادل النقدى الذى توسع على حساب المقايضة العينية ، فحين تحل المعاملات النقدية محل المقايضة سيحتاج السوق إلى كميات من النقود لمواجهة المعاملات التجارية التى يزداد حجمها بتوسع حجم السلع المتبادلة باستمرار . وهكذا ينمو حجم العملة المتداولة لدى الجمهور .

وقد ثبت أن عام أربعة وسبعين للهجرة هو التاريخ المرجح والمقبول الذى بدأت فيه عملية تعريب النقود ، رغم ما ذكره الطبرى من أن عبد الملك أمر بضرب الدارهم والدنانير فى عام ٧٦هـ(٦٨) . فهذا محمول على أن المراد الأمر بتعميمها ، وليس البدء فى ذلك ، خاصة أن تلك الخطوة أتت بعد وقوع الحرب بين الدولة الإسلامية والدولة البيزنطية فى عام ٧٣هـ ، وقد قرر المؤرخون أن هناك صلة بين سوء العلاقات بين الدولتين وبين التفكير فى وضع عملية إسلامية لها الاستقلال التام .

وكان السبب المباشر للحرب التى وقعت فى سنة ٧٣هـ بين الطرفين هو إيقاف عبد الملك دفع المال ، الذى اتفق على أدائه مع الإمبراطور البيزنطى (جستينان الثانى) ، إذ صالح الخليفة عبد الملك بن مروان جستنيان على أن يؤدى إليه فى كل جمعة ألف دينار خوفًا منه على المسلمين . وقد كان ذلك متوقعًا ، حيث أن الخليفة ما كان قبل الصلح إلا للضرورة . أما بعد انتهاء الفتنة ونجاحه فى التغلب على خصومه وتوحيد الدولة ، فلم يعد هناك ما يدعو لأن يستمر فى هذا الأداء الذى كان يرمز إلى الخضوع ، بل يتنافى وشعوره بالعزة ولا يقره ضميره الدينى(٦٩) .

وهذا السبب فى تعريب النقود يتفق مع ما ذكره المؤرخ « جبون »(٧٠) ويرجحه كثير من المؤرخين مع عدم إهمال ما ذكره Lovoix(٧١) من أن ظهور

النقود العربية بطابعها الجديد كان من العوامل الأساسية فى إنهاء معاهدة السلام بين العرب المسلمين والبيزنطيين ، التى استمرت عشر سنوات ، ذلك أن جستنيان الثانى رفض أن يستلم المبلغ المتفق عليه بنقود تختلف عن ذى قبل ، ولم يعد رؤيتها ، ولم يألف التعامل بها ، وفى مقابل ذلك أكد الخليفة عبد الملك بن مروان لملك البيزنطيين ، أن العرب المسلمين لم يعودوا يقبلون على نقودهم أشكالاً ذات طابع بيزنطى .

وهذا السبب يتعارض مع ما ذكره « ثيوفانيس »(٧٢) من أن ذلك كان لعدم قبول ملك الروم الدنانير الدمشقية التى ضربها عبد الملك ؛ فإنها لم تكن قد طبقت بعد . ثم لا يعقل أن يرفض « جستنيان الثانى » ما قدم إليه من دنانير لمجرد اختلاف النقش ، إذ أن قيمة الذهب محفوظة وأن اختلفت الصورة . وقد استاء جستنيان الذى وصفه المؤرخون بالحمق والطغيان(٧٣) من فعل عبد الملك فبدأ بالعدوان . ولكن جيوش المسلمين لاقته ، فأنزلت به هزائم فادحة فقد على أثرها « أرمينية » كلها(٧٤) .

وأورد بعض المؤرخين(٧٥) الأسباب التى دعت الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان لتعريب المسكوكات وتخليصها من التبعية الأجنبية يرجع لاعتراض ملك الروم جستنيان الثانى على أوراق البردى التى كانت تصل إلى بيزنطة من مصر وهى تحمل عبارات التوحيد بالعربية بدلاً من عبارة الإيمان المسيحية : « باسم الأب والابن والروح القدس » مما أغضب جستنيان الثانى وهدد بكتابة عبارات تسيء للمسلمين على الدنانير البيزنطية ، الأمر الذى حدا بالخليفة عبد الملك إلى جمع عدد من الفقهاء فأشار عليه أحدهم وهو الإمام محمد الباقر (أحد الأئمة الاثنى عشر) وكان يقيم فى المدينة ، فلم يشأ عبد الملك أن يستنجد أحد أئمة بنى هاشم - وهم مناظروه فى الملك - لكنه لم ير بدأ من استقدامه ، فكتب إلى عامله فى المدينة أن « أشخص إلى محمد بن على بن الحسين مكرماً ومتعه بمائة ألف درهم لجهازه و ٣٠٠٠٠ لنفقته وارح عليه فى جهازه من يخرج من أصحابه » . فلما قدم الإمام محمد إلى دمشق استشاره عبد الملك فيما ينويه الملك البيزنطى فى

الإساءة إلى الإسلام ، فقال الإمام محمد : « لا يعظم هذا عليك : ادع هذه الساعة صناعًا فيضربون بين يديك سككًا للدراهم والدنانير ، ويجعل النقش عليها صورة التوحيد وذكر رسول الله ﷺ أحدهما في وجه الدرهم أو الدينار والآخر في الوجه الثاني ، وتجعل في مدار الدرهم والدينار ذكر البلد الذي يضرب فيه والسنة التي تضرب فيها تلك الدراهم والدنانير(٧٦) .

وذكر أن خالد بن يزيد بن معاوية أشار على الخليفة عبد الملك بقوله : « يا أمير المؤمنين : إن العلماء من أهل الكتاب الأوائل يذكرون أنهم يجدون في كتبهم ، أن أطول الخلفاء عمرًا من قدس الله تعالى في درهمه .

الدافع القومي :

إن الشعور القومي العربي الذي كان يمتلكه الخليفة عبد الملك ، إضافة إلى الاستقرار السياسي الذي حدث بعد أن استطاع عبد الملك القضاء على الحركات الإنفصالية والذي أدى إلى ازدهار اقتصادي زادت في وتيرة الاعتزاز بالشعور العربي فدفعت بالخليفة الأموي لبناء الدولة بشخصية عربية قوية مستقلة كل الاستقلال عن السلطة الأجنبية ، هذه هي أحد الأسباب التي دفعت عبد الملك وحفزته لتعريب السكة وإخراجها بصورة مميزة .

وباتساع الدولة العربية الإسلامية ، كان لا يمكن أن تظل معتمدة في نشاطها المالي والاقتصادي المتزايد على نقد أجنبي محدود الكمية ، متبق من أيام ما قبل الإسلام ، أو يورد من بلاد أجنبية بوسيلة تجارية وبكميات ضئيلة تهددها الحرب بالإنقطاع من آن لآخر . هذا ما يخص الدنانير البيزنطية ، أما الدراهم فإن كثيرًا من العملة الفضية الساسانية كان مغشوشًا(٧٧) . فضلاً عن وضع النقود في الدولة الأموية كان يستدعي النظر به ، حيث كانت العملة مختلفة الأوزان والقيم ، دون أن يكون هناك مقياس ثابت يمكن الركون إليه(٧٨) .

ويمكن الاستنتاج أن حالة النقود هذه ، كانت تشكل عائقًا كبيرًا أمام النشاط التجاري المتزايد ، الذي شهدته مؤسسات الدولة ، كما أن العرب

المسلمين كانون يلاقون حرجًا عند أداء فريضة الزكـاة ، وأن الدولـة كـانت تجـد صعوبة كبيرة إذا أرادت أن تستوفى حقوقها(٧٩) .

ولقد ثبت أن الأوزان التى عليها دراهم ودنانير الخليفة عبد الملك بن مـروان مطابقة للأوزان الشرعية تقريبًا ، وبذا استقر الإجمـاع علـى أنهـا النقـود الشـرعية وحصلت موافقة الفقهاء عليها ، وعلى أنها هى التى تؤخذ بها الزكاة وتؤدى بهـا كل الحقوق التى أوجبها(٨٠) .

وقد كان الخليفة عبـد الملـك متشـددًا فـى التعـامل بـالنقود الإسـلامية التـى ضربها فقد بعث نقوده إلى جميع البلاد الإسلامية ، وفرض على الناس التعامل بها، حتى أنه هدد بقتل من يتعامل بغير تلك النقود من الدراهـم والدنانـير وغيرهـا وأن تبطل تلك النقود كل نقد سابق والذى فرض على من يملك منه شيئًا أن يعـاد إلى مواضع العمل حتى إلى السكة الإسلامية(٨١) . وبذلك يعتبر عبد الملك أول خليفة أوجد النقد القومى العربى للدولة العربية الإسلامية .

لقـد بقـى دينـار الخليفـة عبـد الملـك بـن مـروان علـى وضعـه حتـــى عـــام ٩٢هـ/ ٧١٠م ثم اعتراه بعض التحوير فى الكتابة والنقش ، وأضيفت إليه البسـملة كاملة . وفى سنة أربع وتسعين للهجرة حصـل تطـور آخـر علـى نقـش الدينـار . وبقى الدينار على هذا النمط إلى آخر العصر الأموى .

وشدد الخلفـاء الأمويـون الرقابـة والإشـراف علـى دور ضـرب النقـود فـى حاضرة الخلافة الأموية . فقد وضع الخليفة عبد الملك بن مـروان للدنانـير صنجـًا من الزجاج لئلا تتعرض إلى زيادة أو نقصان . وعاقب الخليفة عمر بن عبـد العزيـز (٩٩ - ١٠١هـ) رجلاً لأنه ضرب النقود على غير سكة المسلمين .

وضرب عمر بن هبيرة والى العراق فـى عهـد الخليفـة يزيـد بـن عبـد الملـك الدراهم وكانت أكثر جودة ، وخلص الفضـة مـن جميـع الشـوائب ، فكـان عيـار الدرهم فى عهده على وزن ستة دوانيق ، وضرب بعـد الـوالى خـالد بـن عبـد الله القسرى النقود وكذلك الوالى يوسف بـن عمـر الثقفـى وكـانت النقـود الهبيريـة ، والخالدية ، واليوسفية ، أجود نقود بنى أمية ورغم ذلك لم يكـن الخليفـة العباسـى المنصور يقبل فى الخراج من نقود بنى أمية(٨٢) .

الفصل الثالث

تطور النقود خلال العصر العباسى

(١٣٢هـ - ٦٥٦هـ/٧٤٩ - ١٢٥٨م)

١ - المسكوكات فى العصر العباسى الأول ١٣٢هـ-٢٣٢هـ :

تغيرت نصوص المسكوكات (الدنانير والدراهم والفلوس) فى عهد أول خليفة عباسى وهو أبو العباس السفاح (١٣٢ - ١٣٦هـ) حيث أبدلت سورة الإخلاص : ﴿ قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحدًا ﴾ بعبارة « محمد رسول الله » .

وقد سكت الدنانير الذهبية منذ بداية الخلافة العباسية ، كذلك الدراهم الفضية ، وحتى وفاة الخليفة السفاح . وسكت الدراهم الفضية فى عدة مدن حملت أسمائها مثل الهاشمية ، البصرة ، الكوفة ، دمشق ، واسط وغيرها من المدن . ويبدو أن الأنبار كانت دارًا مركزية لضرب النقود ، كما أنقصوا الدرهم المتداول فى الأسواق حبة . ويبدو أنه كانت وراء هذه الخطوة اعتبارات اقتصادية أملتها ظروف الدولة الجديدة على الخليفة العباسى الأول ، فوقع تحت تأثيرها ، فأمر بانقاص وزن الدرهم حبة واحدة(٨٣) . ولما اشتدت عليه الظروف اضطر إلى إنقاص وزن الدرهم مرة أخرى حبة خلال مدة عهده القصير(٨٤) .

أما فى عهد الخليفة العباسى الثانى أبو جعفر المنصور (١٣٦ - ١٥٨هـ) فقد استمرت الدنانير كما كانت أيام أخيه بدون اسم مدينة الضرب . وكذلك سكت الدراهم الفضية فى زمن المنصور فى العديد من المدن العربية الإسلامية .

ويبدو أن الظروف الضاغطة استمرت إلى بداية حكم الخليفة العباسى الثانى أبى جعفر حيث أقدم هو الآخر على انقاص الوزن بالنسبة للدرهم حبة أخرى . وفى سنة ١٤٥هـ حملت دراهم المنصور المضروبة بمدينة بالمشرق اسم ابنه (محمد المهدى) بعد تنصيبه بمنصب ولى العهد ، إذ وجدت نقود نقش عليها : « مما أمر

به المهدى بن أمير المؤمنين » . كما نقش العباسيون آية على الدينار توضح حقهم فى الخلافة ، وقرابتهم من الرسول ﷺ « قل لا أسألكم عليه أجرًا إلا المودة فى القربى »(٨٥) . وكان الهدف من ذلك إظهار حق العباسيين فى الحكم .

ومنذ سنة ١٤٦هـ سكت الدراهم فى عاصمة الدولة الجديدة والتى بناها المنصور وهى بغداد أو مدينة السلام ، ويبدو أن الخليفة المنصور كان قد نقل صناع المسكوكات من هاشمية الكوفة ، حيث تبدو التأثيرات الفنية التى كانت سائدة هناك على مسكوكة مدينة السلام .

وظلت العملة المتداولة فى الأسواق على هذه الحال حتى تقلد محمد المهدى الخلافة (١٥٨ - ١٦٩هـ) فضرب دراهم مدورة فيها نقطة ، وعليها اسمه(٨٦) . واستمر المهدى بسك الدنانير الذهبية بنفس الطراز الذى كان زمن المنصور ، وكانت تسك الدنانير بالعاصمة مدينة السلام ، على الرغم من أن ذلك غير مدون عليها لأن الدنانير الذهبية كانت تسك بإشراف الخليفة بنفسه . والخليفة المهدى هو أول خليفة عباسى ظهر اسمه على الدراهم ، ثم اتبع ذلك اسم ولديه موسى وهارون فى حين كان الرشيد (وقبل الأمين أو المأمون) أول خليفة عباسى ذكر اسمه على العملة الذهبية (الدينار)(٨٧) .

وقد أحدث الخليفة الهادى سنة ١٧٠هـ بعض التغييرات على المسكوكات الذهبية حيث نقش اسم ابنه (جعفر) على الدنانير الذهبية المضروبة بعد أن نصبه وليًا للعهد بدلاً من هارون وبذلك كانت الدنانير الذهبية من وسائل الإعلام لإشعار العامة والخاصة .

ونستطيع أن نتلمس اهتمام الدولة بالنقود المتداولة فى الأسواق ، من أن الخلفاء أنفسهم كانوا يشرفون بصورة مباشرة على دور الضرب لكى يتحققوا من ضبط وزن النقود ، وليبعدوا عنها احتمالات الغش والتزييف . ويعد الخليفة هارون الرشيد (١٧٠ - ١٩٣هـ) أول خليفة امتنع عن مباشرة العيار بنفسه عندما تخلى عن الإشراف بنفسه على ضرب النقود وصير هذه المهمة إلى من كان

يثق به . وقد سك هارون دنانير ذهبية منذ الأيام الأولى لخلافته نقش عليها اسمه ولقبه « عبد الله هارون أمير المؤمنين » .

وراجت فى مصر فى العصر العباسى الأول الدنانير العباسية التى سكها خلفاء بنى العباس فى العراق ، ولقى دينار الرشيد ودينار المأمون بعد ذلك إقبالاً زائدًا من الناس فى مصر وذلك بسبب احتوائها على ٩٨٪ من حجمها ذهبًا(٨٨).

وضربت الدولة العباسية فى عهد الرشيد نقودًا ذهبية ذات وزن كبير سميت (دنانير الصلة) ، أو (دنانير الخريطة) . ويعتقد بأن هذه الدنانير هى التى ينعم منها الخليفة على العلماء والفقهاء والشعراء ونحوهم . ومن المؤكد أن مثل هذا الدنانير كانت تقبل فى الأسواق بغرض التداول بعد أن يتولى التجار أو المصرفون تحويلها إلى فئات نقدية أقل قيمة .

وقد سكت دراهم فضية للخليفة هارون الرشيد فى العديد من المدن منها أفريقية ، بلخ ، سمر قند ، بخارا ، إضافة إلى بغداد ، وقد أهدى الخليفة من ضمن الهدايا إلى شارلمان ملك الأفرنج بعض الدنانير الذهبية الذى شاع استعمالها فى بعض الولايات الإسلامية . أما بلاد فارس فعملتها الدراهم الفضية ، وكذلك الحال فى العراق(٨٩) . ويقول الاصطخرى : أن نقود أهل بخارى الدراهم ولا يتعاملون بالدينار فيما بينهم(٩٠) .

وإبان خلافة محمد الأمين (١٩٣ - ١٩٨هـ) نصب منذ خلافته العباس بن فضل بن الربيع مشرفًا لدور السك . وضرب الدنانير والدراهم باسم ولده موسى الذى نصبه وليًا للعهد ، وتذكر المصادر التاريخية أن الخليفة العباسى الأمين كان قد سك دنانير ودراهم نقش عليها ألقاب ولى العهد الجديد ، وهى « الناطق بالحق المظفر بالله » وبوزن عشرة أضعاف فى الوزن المعتاد للواحد منها ، ونقش عليها:

كل عز ومفخر فلموسى المظفر

ملك خص ذكره فى الكتاب المسطر(٩١)

وفى نفس سنة ١٩٦هـ سك المأمون (١٩٨ - ٢١٨هـ/٨١٣- ٨٣٣م) دنانير ذهبية قبل وصوله للخلافة ، فقد كان المأمون فى مرور بالشرق حين إعلانه العصيان على أخيه الأمين ، وقد سك دنانيره ونقش عليها ألقابه واسمه ، منها الخليفة ، ومن دون أن يشير إلى وجود الأمين كخليفة(٩٢) .

وقد حملت دنانير المأمون الذهبية لقب وزيره الفضل بن سهل « ذو الرياستين » منذ السنة الأولى لخلافته ١٩٨هـ . كذلك نقش اسم أحد قادته (طاهر بن الحسين) . ومن الكلمات التى أضافها المأمون على نقوده لفظة (عدل). وصرنا نشهد أحيانًا أسماء بعض الصناع تنقش على النقود التى يقومون بصنعها(٩٣) .

وقد سمح المأمون بسك الدنانير فى عدة أقاليم بعد أن كان مقتصرًا على العاصمة بغداد مقر الخلافة ، لذلك لم تكن هناك حاجة لنقشها على الدنانير(٩٤).

واستمرت الدنانير العباسية فى حمل أسماء الخلفاء الذين أعقبوا المأمون ، وأصبح ذلك من مستلزمات الخلافة حيث يثبت اسم الخليفة على الدنانير مع ألقابه وكناه وألقاب وكنى ولاة العهد .

وظهر على النقود فى عهد الخليفة المأمون اسم وزيره الفضل بن سهل واسم أحد قادته «طاهر بن الحسين » . كذلك نقش المأمون اسم على بن موسى الرضا الذى نصبه وليًا فى السنوات ٢٠٢ - ٢٠٤هـ/٨١٧-٨١٩م . ومن الكلمات الجديدة التى أضافها المأمون على نقوده لفظة « عدل » .

وبعد وفاة الخليفة المأمون سنة ٢١٨هـ/٨٣٣م استمرت الدراهم الفضية بنفس الطراز وهى تحمل اسم الخليفة الحاكم ومدينة السك وتاريخ السك حتى نهاية عهد الواثق .

المسكوكات فى العصور العباسية المتأخرة (٢٣٢-٦٥٦هـ/٨٤٧-١٢٥٨م):

فى هذا العصر تلقب الخلفاء العباسيون ووزراءهم بالعديد من الألقاب ، ظهرت على المسكوكات الفضية ، منها « المفوض إلى الله » و« الموفق بالله »

و« ذو الوزارتين » على مسكوكات الخليفة المعتمد على الله سنة ٢٥٦هـ/٨٦٩م ولقب « ولى الدولة » و« عميد الدولة » على مسكوكات الخليفة العباسى المقتدر بالله ، وبعض الألقاب الأخرى . كما ظهرت على دراهم الخليفة القاهر ٣٢٠-٣٢٢هـ ، كما قام الخليفة المتوكل على الله (٢٣٢ - ٢٤٧هـ) بضرب نقود على وجهها صورته ، ونقش على ظهرها صورة رجل يقود جملاً .

وكانت (قبيحة) أم المعتز بالله (٢٥٢ - ٢٥٥هـ) قد تقدمت بضرب دراهم مكتوب عليها : « بركة من الله لأعذار أبى عبد الله المعتز بالله »(٩٥) وفى سنة ٢٨٢هـ/٨٩٥م ضربت دراهم ذات فئة خاصة لأجل أن تهديها قطر الندى إلى زوجها الخليفة المعتضد بالله (٢٧٩ - ٢٨٩هـ) ، وكان كل درهم من هذه الدراهم يساوى ثلاثة دراهم عادية(٩٦) .

واستمر خلفاء بنى العباس على هذه الحال وهو نقش ألقابهم ونعوتهم على العملة فى عصر نفوذ الأتراك الذى تميز به العصر العباسى الثانى ، فنقش القاهرة (٣٢٠ - ٣٢٢هـ) لقبه « المنتقم من أعداء الله لدين الله ، ونقش المستكفى بالله (٣٣٣-٣٣٤هـ) لقبه « إمام الحق على العملة(٩٧) . كما نقش على العملات فى تلك الفترة أسماء الوزراء وألقابهم(٩٨) كما ظهر نقش لأسماء بعض من تولى امرة الأمراء على العملة(٩٩) .

لما استقلت بعض أقاليم الدولة الإسلامية ، عمد امراؤها إلى ضرب السكة ، ونقش أسمائهم عليها مع أسماء الخلفاء العباسيين فظهرت على العملات أسماء الأسر التى انتمت إليها تلك الدويلات(١٠٠) .

فى مصر والشام استطاع أحمد بن طولون تأسيس الدولة الطولونية (٢٥٤-٢٩٢هـ/٨٦٨-٩٠٥) وقام بضرب دنانير ذهبية نقية عرفت بالأحمدية ، وكانت نسبة الذهب فيها ٩٨٪ من وزنها .

وقد ساد التعامل بهذه الدنانير الأحمدية ولقيت تقدير الناس لتفاوتها وانتشرت فى كل البلدان . وظل الدينار الأحمدى قاعدة التعامل فى مصر طوال

العهدين الطولونى والإخشيدى (٣٢٣-٣٥٨هـ/٩٣٥-٩٦٩م)(١٠١) . وذلك على الرغم من أن الأخشيديين سكوا دنانير نقية على عيار كامل ومساوية فى قيمتها الدينار الطولونى وضربت دنانير فى عهد الخليفة المتقى سنة ٣٢٩هـ نقش عليها اسم محمد بن طغج وحجه ومعه الأمير الإخشيدى . كذلك ضربت دنانير فى عهد أونوجور من سنة ٣٣٦هـ إلى سنة ٣٤٧هـ كان ينقش عليها اسم الخليفة المطيع واسم أبو القاسم بن الإخشيد . كذلك وجدت دنانير لعلى بن الإخشيد من سنة ٣٥٠ إلى ٣٥٥هـ كان ينقش عليها اسمه واسم الخليفة المطيع(١٠٢) .

وفى العصر السلجوقى (٤٤٧-٥٩٠هـ/١٠٥٥-١٢٥٨م) وضعت ألقاب الحكام وكناهم على الدنانير والدراهم . وحملت المسكوكات البويهية الكثير من الألقاب الرنانة التى منحوها لأنفسهم . وقد سك السلاجقة مسكوكاتهم من الذهب والفضة والنحاس ، وقد حملت كثيرًا من الألقاب لسلاطينهم .

نلاحظ أن هؤلاء المتغلبين على الرغم مما بلغوه من مكانة فى مركز الخلافة كانوا يشعرون بالأهمية الكبرى التى تأتيهم من جراء ألقابهم وكناهم على الدنانير والدراهم الشرعية ، حيث أنهم اعتقدوا بأن ذلك قد يسبغ على مركزهم شيئًا من الشرعية .

ومما زاد الأمر سوءًا أن هؤلاء المتغلبين أشرفوا بأنفسهم على دور ضرب النقود فكثر التزييف والغش والتدليس ، لأنهم عمدوا على خلط المعادن الرخيصة بالذهب والفضة ، فقلت القدرة الشرائية للدينار والدرهم .

وعندما قامت الدولة الحمدانية فى منطقة الموصل ثم حلب (٣١٧-٣٩٤هـ) ضربت مسكوكات من الدينار والدرهم ، وأشارت المراجع إلى ظهور مسكوكات حمدانية ضربت لأول مرة فى مدن (القلعة وبيزنطة وخزانة أبى تغلب(١٠٣) .

كذلك ضرب سيف الدولة الحمدانى دنانير الصلات نقش عليها اسمه وصورته ، وكانت قيمة الدينار الواحد تساوى عشرة دنانير ، كما ضرب ناصر الدولة عشرة دنانير خمسمائة مثقال أهداها إلى أبى إسحاق الصابى(١٠٤) الذى استخف بوجود الألقاب والكنى على المسكوكات فقال : « لا جرم أن الرتب قد

نزلت لما تساوت وسقطت لما توزات ولم يبق لها طلاوة يشار إليها ، ولا حلاوة يحافظ عليها ، حتى بلغنى عن مولانا القائم بأمر الله - أطال الله بقائه - أنه قال: « لم تبق رتبة لمستحق »(١٠٥) .

وفى مصر ظل الدينار قاعدة التعامل حتى بعد الفتح الفاطمى سنة ٣٥٨هـ/٩٦٩م وبدأ الفاطميون إصلاحاتهم الاقتصادية فى مصر برفع قيمة الدينار إلى ما كانت علية العملة الفاطمية فى أفريقيا بحيث تترواح وزنه بين ٤جرام و٤,٠٦جرام(١٠٦) . وبادر جوهر الصقلى إلى سك دنانير جديدة ، أطلق عليها المعزية . ولم يمنع الحكومة الفاطمية التعامل بالدينار الراضى (نسبة إلى الخليفة الراضى) وبالدنانير والدراهم التى ضربت فى عهد الأمين والمأمون وسميت الرباعيات (لأن وزنها كان أربع حبات) وبالدينار الأبيض الذى كان متداولاً فيه عند الأمويين . وكان صرف الدينار المعزى خمسة عشر درهمًا ونصف . ورغم تداول العملات الغير فاطمية إلا أن الحكومة الفاطمية حملت أهالى البلاد المصرية على التعامل بنقودها(١٠٧) .

ولم تكتف الحكومة الفاطمية بأن يكون الدينار المعزى وحده للتعامل ، فأصدرت دراهم جديدة فى عهد الخليفة الحاكم بأمر الله سنة ٣٩٩هـ وقررت أن يكون كل ثمانية عشرة درهمًا بدينار . ومن المرجح أن ضرب الدراهم الفضية فى ذلك العهد إنما أريد به تيسير التعامل فى السلع القليلة الثمن . وهكذا أصبحت مصر تتعامل بالدنانير الذهبية والدراهم الفضية(١٠٨) .

ولوزن الدينار أهمية كبرى ، فإنه كلما زاد وزنه دل ذلك على غنى الدولة ورفاهيتها وعنايتها بالعملة ويؤدى إلى ثقة الناس بها ، أما إذا نقص وزن الدينار فإن ذلك يدل على اضطراب الحالة الاقتصادية فى البلاد . وإذ ذاك يعمد الخليفة إلى إنقاص وزن العملة حتى يقلل من نفقات الدولة(١٠٩) .

وجدير بالذكر أنه لم يوجد أى دينار ضرب بعد سنة ٥١٨هـ/١١٢٤م (وهو تاريخ أول دينار ضرب بدار ضرب القاهرة) به نسبة أقل من ٩٠٪ من الذهب . فقد أدت عمليات الاستكشاف التى توصل إليها فى زمن الآمر ، « إلى

أن صار دينار الضرب المصرية أعلى عيارًا من جميع ما يضرب بجميع الأمصار ، حتى أصبح كما أطلق عليه Ehrenkteutz « الدولار الإسلامى فى العصور الوسطى ، ويعكس الرخاء الاقتصادى الذى عرفته مصر فى عصر الفاطميين(١١٠) .

وكانت دراهم بنى زيرى المغربية تتداول فى أسواق مصر الفاطمية وكان الطلب عليها كثيرًا حين كانت كمية الفضة بها كبيرة . لكن هذه الدراهم فقدت قيمتها فى أسواق مصر فى أواخر حكم الزيريين بسبب نقصان كمية الفضة بها نقصانًا شديدًا . وبلغ من سوء حال هذه الدراهم أنها لم تعد تقبل فى أسواق مصر ولم يكن التجار يتعاملون بها فى الأسواق . ووصل السوء بهذه العملة إلى أن الدينار المصرى الواحد كان يساوى مائتى درهم منها(١١١) . وهذا دليل على المستوى الاقتصادى الجيد الذى عاشته مصر فى هذه الفترة التاريخية .

أما فى بلاد المشرق الإسلامى ، فقد ضرب السامانيون (٢٦١-٣٨٩هـ) سكتهم على نمط الدينار العباسى وذكر عليها أسماء الخلفاء العباسيين مع الحكام السامانيين ، وذلك فى مدن الشاش (طشقند) ونيسابور وسمر قند ، وقد ضربت أول عملة ذهبية باسم إسماعيل بن أحمد سنة ٢٩٥هـ/٩٠٧م ، كذلك ضرب نصر بن أحمد بمدينة المحمدية (الرى) الدنانير باسمه منذ سنة ٣١٤ إلى سنة ٣٣١هـ ، كما ضرب نوح بن نصر دينارًا سنة ٣٣٣هـ/٩٤٤م بهذه المدينة(١١٢) .

استقر أمراء السامانيون فى ضرب نقودهم التى انتشرت انتشارًا واسعًا حتى أن معظم النقود العربية التى اكتشفت فى شمال أوربا وترجع إلى القرن الرابع الهجرى كان أكثر من ثلثيها للسامانيين(١١٣) .

وضرب الغزنويون (٣٥١ - ٥٨٢هـ/٩٦٢ - ١١٨٦م) دنانير فى الرى، ويظهر ذلك على دينار ضرب على عهد السلطان محمود سنة ٤٢٠هـ ، كما ضرب هذا السلطان فى نفس السنة دينارًا عليه ألقابه واسم الخليفة القادر وألحق به اسم ابنه مسعود(١١٤) ، ولما ولى السلطان مسعود بعد وفاة أبيه سنة ٤٢١هـ ضرب دينارًا بنيسابور سنة ٤٢٣هـ منقوشًا عليه ألقابه(١١٥) .

من ذلك نجد أن الدولة العربية الإسلامية تعـاملت بالدينـار والدرهـم معـًا واعترفت بهما . وكان يمكن تحويل أى من النقديـن إلى النـوع الآخـر بحسب سعر الصرف السائد فى السوق الذى تحدده الأحوال التجاريـة دون تدخل الحكومة وكان باستطاعة الناس أن يبيعـوا دراهـم للصرافـين بدنانـير جديدة حسان(١١٦) .

ويبدو أن عملية وزن النقود كانت مـأخوذًا بهـا فـى التعـامل التجـارى فـى كثير من الأسواق، حتى فى حالة كون تلك النقود ذهبًا، ومما يعزز هذا الاستنتاج أنه لما تقررت مصادرة أموال الوزير المعزول الفضل بن الفرات بـــ (عشرين ألـف دينار) سنة ٣٢٠هـ/١٣٢م من قبــل الخليفـة القاهــر بـا لله ، قـال القـائد مؤنـس المظفر : « أنا أزن هذا المال عنه ، فإنه ثقة عفيف »(١١٧) .

ومن المؤكد أن الدولة العربية الإسلامية عامة ، كانت شديدة الحـرص علـى الاحتفاظ بسلامة النقود وجودتها . فالدينار كان يضرب بكـل دقـة وفقـًا لمعيـار المثقال . أما الدراهم فـإن المسـؤولين كـانوا حريصـين أشـد الحـرص علـى تخليـص الفضة من كل شائبة. وكان الخراج لا يؤخذ إلا بالنقود الموثوق بوزنها(١١٨).

لقد جرت دراسات على النقود العربيــة الإسـلامية ، فـأظهرت أن الدراهـم المضروبة فى دور الضـرب الحكوميـة خـلال الفـترة (٨٥ - ١٢٤هـ) تـرواحـت نسبة نقاوة المعدن الثمين فيها مـا بـين (٨٤ و٩١ - ٣٦و٩٨٪) . وفـى العصـر العباسى وصلت نسبة النقاوة عام ١٨٨هـ/ إلى ٢٤ -٩٩٪ . فـى حـين أجريـت دراسة على ١٢١ قطعة نقدية ذهبية ضربت خلال العصر العباسى فى حقب مختلفة امتدت من عام ١٣٢هـ حتى النصف الأول من القرن الرابع الهجـرى ، فاستدلت هذه الدراسة على أن أكثر من الدنانير العباسية التى ضربت ببغـداد وصـل عيارهـا من الذهب إلى ٩٦٪ ، وأن دينارًا وصل عياره إلى ١٠٠٪ ودينار آخر ضرب فـى سامراء عام ٢٢٦هـ وصلت نسبة النقاوة فيه إلى ٩٨٪ .

الفصل الرابع

المؤسسات النقدية وأثرها فى تطور السوق

١ - دور ضرب النقود :

اهتمت الدولة العربية الإسلامية بإقامة دور ضرب النقود وهى الدور التى تضرب فيها السكة أو العملة حيث يسبك فيها ما يحمل إليها من الذهب(١١٩) ، فى المدن الكبرى والأمصار فإلى جانب دار الضرب فى حاضرة الخلافة ، وجدت دور للضرب فى الأقاليم ، فكان بالعراق دور للضرب فى بغداد وسامراء وواسط والبصرة والكوفة والموصل(١٢٠) وبلغ عدد دور الضرب فى العهد العباسى ١٥٠ دارًا للضرب(١٢١) ، وكان فى مصر دور للضرب فى الفسطاط والإسكندرية(١٢٢) ، كما كان بكل من همدان والرى دارًا للضرب كما وجدت دار للضرب أيضًا فى نيسابور(١٢٣) ، وكانت دار للضرب بفارس موجودة بشيراز(١٢٤) . وبذلك نجد أن دور الضرب منتشرة فى أنحاء الدولة العربية الإسلامية .

وأصبحت دور الضرب هذه تؤدى مهمات جليلة لا تقل شأنًا عما تؤديه مصارف الإصدار ومؤسسات النقد اليوم . فهى كانت تتولى ضرب الكميات اللازمة من النقود الجارية فى التعامل حينذاك ، واللازمة لتنشيط الحركة التجارية . وهى التى تزيد فى إنتاجها ، أو تقلل منه ، حسب حاجة السوق المحلية ، ومقدار ماهو متوفر من المعدن المضروبة منه النقود ، كما تولت دور ضرب النقود استبدال النقود القديمة التى بطل استعمالها .

اهتم خلفاء بنى العباس الأوائل فى العصر العباسى الأول بالإشراف على دور الضرب ومنذ عهد الخليفة الرشيد أصبح أمر الإشراف على دور الضرب يعهد به للوزراء أو لأحد كبار الدولة وأحيانًا لأولياء العهد(١٢٥) ، كما باشر القاضى والمحتسب الإشراف على دور الضرب فى بعض الأحيان(١٢٦) .

وقد عنى البويهيون (٣٣٤- ٤٤٧هـ/٩٤٥- ١٠٥٥م) عناية فائقة بمراقبة دور الضرب(١٢٧) . فيذكر ياقوت(١٢٨) : أن القاضى التنوخى كان قاضيًا وناظرًا لدا الضرب فى بغداد . وقد منع البويهيون سك النقود خارج دور الضرب الحكومية حرصًا على سلامة عيار العملة وعدم فسادها(١٢٩) وأحكمت الرقابة على دور الضرب وشدد الأمراء والولاة فى ضرورة أن ينوط العيار فى دور الضرب بمن يجمع إلى ديانته فقهًا ومع ورعه فهمًا بتصفية عين الدرهم والدينار من كل خبث وتخليصها من كل غش دينى وضربهما على الأمام(١٣٠) (أصل الدرهم والدينار من حيث الشكل والوزن والعيار) الذى يضرب عليه العين والورق (الذهب والفضة) بمدينة السلام (بغداد) ومنع التجار الذين يوردون الذهب والفضة إلى دور الضرب من تجاوز ذلك وأن ينقش اسم أمير المؤمنين على ما يضرب من السكة(١٣١) .

لم يكن ضرب الدراهم والدنانير فى دور الضرب يتم طوال السنة ، وإنما كان العمل فى هذه الدور وبخاصة فى المشرق الإسلامى يتم فى مواسم معينة(١٣٢) .

وكانت الدولة تتقاضى إيرادات عالية من دور الضرب وهى عبارة عن نسبة من قيمة المعادن التى ترد إلى دار الضرب(١٣٣) .

ورفدت دور الضرب الحكومية ببيت المال بموارد مالية هامة ، لأنها كانت بسك ما يقدمه الأفراد من سبائك طبقًا للوزن المقرر شرعًا ، نظير تقاضى رسوم معينة تدعى ثم الوقود وحق الضرب(١٣٤) .

وأسست فى مصر دارًا لضرب النقود على يد أحمد بن طولون ، ويبدوا أنها لم تكن كبيرة أو معقدة فى نظامها ، وأن الختم على الدنانير والدراهم وعيارها كان يقوم به نفر قليل من الموظفين يعرف باسم المعدلين ويعرف الآخرون باسم السباكين . ويشرف عليهم متولى دار الضرب . وكان الأمير فى بعض الأحيان يعهد بالإشراف على دار الضرب إلى القاضى(١٣٥) .

ولعل السبب فى توكيل القاضى للإشراف على دار الضرب فى الدولة الإسلامية هو ضمان شرعية النقود التى تصدر عن دار السكة سواء من حيث جواز العيار ، أو الوزن . إلا أن الإشراف المباشر كان موكلاً إلى شخص يسمى «متولى دار الضرب» الذى كانت سلطته مباشرة على العمال فى الدار ، وهو والحالة هذه لم يكن وجوده يتعارض مع إشراف القاضى من الوجهة الإدارية(١٣٦).

وتعددت دور ضرب النقود فى مصر والشام طوال العهدين الإخشيدى والفاطمى ففى العهد الأول فى مصر (الفسطاط) وفلسطين (الرملة) ودمشق ، أما فى العهد الثانى فقد صارت مصر فى العصر الفاطمى مركزًا لضرب العملة وانتشرت فى طول البلاد مراكز الضرب منها القاهرة والإسكندرية وتنيس وقوص وفى الشام ، (صور وعسقلان وطبريا ودمشق) وغيرها مثل صقلية والمهدية والمنصورية(١٣٧) والقيروان ومكة والمدينة وصنعاء وزبيد فى اليمن(١٣٨) .

وأخضعت دور ضرب النقود لنظام وإشراف كامل من قبل الدولة حيث وجد (المشارف) الموكل إليه حفظ جميع المحتويات من فضة وذهب وسكك وآلات ومنها الصنج (أى العيار) ، وختم الأقداح وتحرير وزن عيارى الذهب فهو شخصية فنية بدار الضرب ، موكل إليه حفظ عيار الذهب وسبائكه التى ترد إلى دار ضرب النقود . ويوجد (نقاش) مهمته نقش السكة ، أى حفر الكتابات المزمع إبرازها على السبيكة . ويحضر السباك وزن المعدن قبل طرحه فى البوتقة فى حالة السبك(١٣٩) ، وكان على رأس هؤلاء متولى دار الضرب ، وكانت له السلطة المباشرة على العمال الذين يمنحون الأجور العالية(١٤٠) .

٢ - السفاتج والصكوك :

وهى من وسائل المعاملات المالية ويعرف الخوارزمى(١٤١) السفتجة(١٤٢) بأنها « حوالة » أى ورقة أو خطاب ضمان يكتب بواسطة الجهابذة والصرافين فى البلاد الإسلامية بعد قبض قيمتها ، وهى تحمل أمرًا بدفع قيمتها إلى شخص معين(١٤٣) .

تطلبت المعاملات المالية وسائل للدفع مأمونة من الضياع خفيفة الحمل وبعيدة عن متناول اللصوص . ومن هذه الوسائل السفاتج والحوالات(١٤٤) وهو نظام فارسى الأصل دخل العالم الإسلامى حيث وفد تجار الفرس إلى بغداد فى العصر العباسى الأول واستخدموا هذا النظام المالى المتبع عندهم منذ أمد بعيد(١٤٥) .

وبعد أن عرفت السفاتج منذ بداية العصر العباسى شاع استعمالها فى القرنين الثالث والرابع الهجريين، فكان النشاط التجارى ، وازدياد المعاملات المالية خلال هذين القرنين أثره فى ازدياد حجم التعامل المالى ، وكانت الأخطار التى تواجه نقل المال من بلد لآخر أثره فى لجوء التجار وأصحاب الأموال إلى استعمال السفاتج(١٤٦) .

إن الحديث عن أن الأسواق العربية عرفت السفاتج والحوالات منذ وقت مبكر منذ قيام الدولة العربية الإسلامية لا تسنده دلائل تاريخية ، رغم ما قيل من أن الزبير كان يأخذ الورق من التجار فيكتب لهم سفاتج إلى فروع بنكه فى البصرة والكوفة فيأخذون أجور من ورقهم . وعن عبد الله بن عباس أنه كان يأخذ الورق بمكة من التجار والمسافرين على أن يكتب لهم إلى الكوفة ليأخذوا مثل ورقهم(١٤٧) .

وكان الناس يدخلون إلى السوق ويودعون لدى الصراف ما معهم من دنانير ويأخذون سفتجة أى خطاب اعتماد بهذا المبلغ ، ثم يشترون ما يريدون ما ويشاؤون من التجار ولا يدفعون شيئًا ، وإنما تقيد أثمان ما يشترونه فى السفتجة وفى دفتر التاجر ، وفى نهاية اليوم أو الأسبوع تكون المقاصة فيدفع الصراف إلى التجار أثمان ما اشتراه التاجر ويخصمها من السفتجة ويعطى للتاجر الباقى . وكان التجار يفضلون ذلك حتى تكون أموالهم فى أمان(١٤٨) ويحكى ناصرى خسرو ، الرحالة الفارسى أنه لما خرج من أسوان بمصر أخذ خطابًا من صديق له ، كتبه إلى وكيله فى عيذاب بأن يعطى ناصرًا كل ما يريد ويأخذ منه مستندًا ليضاف إلى حساب الصديق(١٤٩) .

كان للسفتجة ميعاد محدد تصرف فيه قيمتها كاملة وكان هذا الميعاد يحل بعد أربعين يومًا من تحريرها ، وكان يمكن لصاحب السفتجة أن يصرف قيمتها دفعة واحدة أو على أقساط(١٥٠) ، كما كان يمكنه أن يصرف قيمتها قبل حلول موعدها مقابل خصم عشر قيمتها(١٥١) .

وأتاح نظام السفتجة تحويل الدين من شخص إلى آخر وتصفية الحساب بين أقاليم متعددة دون الحاجة إلى نقل النقود . وكان بمقدور التاجر أن يقترض سفاتج من بيت المال ليشترى بها بضائع من ذلك الإقليم ثم يدفع ما اقترضه إلى بيت مال إقليم آخر(١٥٢) وبدون شك أن هذا النظام سهل إجراء التعامل التجارى فى الأسواق ، ورفع بعض الضغط عن استعمال النقود(١٥٣) .

ولجأت الدولة إلى استعمال السفاتج فى نقل أموال الجبايات التى كانت ترسل من الولايات إلى حاضرة الخلافة . وكان الوزير على بن عيسى عندما تتعرض الدولة لنقص فى إيراداتها يقترض التجار على سفاتج وإذا حان موعد صرفها كان يدفع مقابل ذلك عشر من المبلغ الذى اقترضه(١٥٤) .

أما الصحكوك فقد كانت تستعمل كوسيلة من وسائل دفع المال إلى جانب التعامل بالعملة النقدية من الدنانير والدراهم ، وعرف الخوارزمى الصك (بأنه يعمل لكل طمع يجمع منه أسامى المستحقين وعدتهم ومبلغ مالهم ، ويوقع للسلطان فى آخره بإطلاق الرزق لهم »(١٥٥) . والصك أمر بدفع مبلغ معين من النقود إلى الشخص الوارد اسمه فيه(١٥٦) .

عرفت الصحكوك فى الدولة العربية الإسلامية منذ عهد الخيفة عمر بن الخطاب ، حيث أن الخليفة هو أول من صك وختم الصكاك(١٥٧) ، واستعملت الصكوك خلال العصر الأموى(١٥٨) ، والعصر العباسى(١٥٩) ، غير أن استعمال الصكوك شاع بدرجة كبيرة خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين ، فكانت رواتب الجند وعمال الدولة وموظفيها تدفع لهم بالصكوك التى تكتب على بيت المال(١٦٠) . وشهد النشاط التجارى والمالى فى الدولة العربية استعمال الصكوك

فى ميادين مختلفة ، ولم يقتصر على القطاع الرسمى وإنما القطاع الشعبى أيضًا ، إذ استخدم الصك كوسيلة للتعويض عن دفع النقود ، حيث أن الشخص يرسل الصك إلى التاجر واسم السلع التى يريدها وثمنها وعليها توقيعه ، فيرسل له التاجر ما يريد ويحتفظ بهذه الصكوك ، ثم يسلمها له ويتقاضى منه ثمن ما أخذ من بضائع(١٦١) .

ويجرى تحرير الصك بدقة ، ويدرج فيه اسم صاحبه ، ومقدار المبلغ الواجب الدفع (رقمًا وكتابة) ، وموعد الاستيفاء ، وقد يؤرخ ويختم بخاتم ويصدق عليه(١٦٢) .

ويتم دفع المنح المالية التى كان يهبها المسئولون فى الدولة إلى الشعراء والفقهاء ، والمقربين منهم فى بعض الأحيان بالصكوك(١٦٣) ، وتصرف هذه الصكوك ، أما عند الصيارفة أو فى بيت المال(١٦٤) . ويبدو أن الصكوك عندما كانت تعطى إلى شخص ما كانت تثبت فى سجل خاص فى الدواوين ، وصرف الصك من قبل الصيرفى كان يقتضى أخذ عمولة عليه ، وكان الرسم أحيانًا يقضى أن ينقص فى كل دينار درهمًا(١٦٥) .

وكانت هذه الصكوك تستلزم مراجعتها للتأكد من صحتها وكان الخليفة المعتضد يتشدد فى هذا الأمر فعين أحد الكتاب للتأكد من صحة الصكوك وأمر صاحب بيت المال العام ألا يصرف صكًا إلا بعد التأكد من وجود علامة هذا الكاتب عليه(١٦٦) .

ونظرًا لما تقوم به الصكوك من تسهيل قضايا البيع والشراء فى الوقت الذى لا تتوفر فيه الأموال نقدًا من جهة ، ولكونها وثيق ائتمان مضمون لتقرير الديون واستيفائها ، فقد تطور استعمالها فى أقاليم الدولة على نطاق واسع ، بشكل مثير للانتباه ، وحل محل التعامل النقدى فى كثير من الأحيان(١٦٧) رغم ما قاله كليمون هو(١٦٨) الذى نفى استعمال الصكوك حينذاك نفيًا قاطعًا ، وهو رأى قديم (١٩١٢) رفضته الدراسات التاريخية الحديثة(١٦٩) .

٣ - أعمال الصيرفة :

ضربت النقود من المعادن الثمينة ، الفضة والذهب ، نتيجة لندرة هذين المعدنين ، ومحدودية مناجمها فى العالم قديمًا وحديثًا ، وتزايد الإقبال العالمى على اقتنائهما ، نجد أن النقود التى ضربت منهما قد تعرضت إلى أنواع شتى من الغش، والتدليس والتزييف ، سواء فى وزنها ، أو فى نسبة نقاوة المعدن الثمين المضروبة منه . إزاء هذا الأمر تكون مهمة الصيرفى فى إجراء التفاضل بينهما لتحديد درجة جودته أوزنًا ونقاوة .

وعرفت الصرافة فى فارس منذ العهد الساسانى ، وكان يقوم بها اليهود ، وفى بداية العهد الإسلامى هاجر هؤلاء الصيارفة اليهود إلى الكوفة واستقروا بها(١٧٠) .

إن انتعاش النشاط الاقتصادى فى الدولة الإسلامية وازدياد المعاملات التجارية أدى إلى تداول كثير من العملات الأجنبية وتعدد دور الضرب بها وأثر ذلك إلى درجة كبيرة فى انتعاش أعمال الصيرفة(١٧١) ، وظهور طبقة ليس لها اشتغال إلا بشئون المال وهم الصيارفة والجهابذة .

وكان يطلق على الصراف الجهبذ (أى الشخص العارف بأمور النقد والمتمكن منه)(١٧٢) ، وعمل هؤلاء كان يعتمد على الثقة ، أى لا بد أن يكتسبوا ثقة الناس فى التعامل ، فكان الناس يودعون أموالهم من الذهب والفضة عند الصراف ، الذى كان يعطى كل من يودع عنده مقدارًا من الذهب وثيقة يثبت فيها ما تسلمه من مال ، ثم تطور الأمر فأصبح الناس يتعاملون بهذه الوثائق فى البيع ووفاء الديون وتصفية الحسابات(١٧٣) ، وقام الجهابذة والصرافون فى ذلك العصر مقام البنوك(١٧٤) وكانوا يقومون بالاحتفاظ بما يودع لديهم من أموال لتكون تحت طلب مودعيها ، وتحويل العملات المختلفة إلى العملة الموحدة ، ونقل الأموال من مكان إلى آخر يدفع سنويًا(١٧٥) ، وكانت الصفقات التجارية والمالية بين المراكز التجارية تتم تحت إشرافهم(١٧٦) ، كما ساعدوا على حل كثير

من مشاكل العملات لمعادلتها ، وذلك لتعدد أوزانها وأنواعها بسبب تعدد دور الضرب فى أنحاء الدولة وكان الصيارفة يقومون بهذه الأعمال مقابل تقاضى عمولة ، وكانت هذه الأعمال تدر عليهم أرباحًا كثيرة إلى درجة الثراء الفاحش ، حيث أن اللصوص لما كبسوا منزل أبى عيسى الناقد الصيرفى واستولوا على ما قيمته ٣٠,٠٠٠ دينارًا(١٧٧) .

وكان يتولى أعمال الصيرفة فى بادىء الأمر صيارفة وجهابذة من اليهود ، ثم اشتغل بها بعض المسلمين فظهر منهم عدد غير قليل ، ولما كان الإسلام قد حرم الربا فإن الصيارفة المسلمين كانوا يجمعون بين الصيرفة والتجارة . فصاروا يبيعون ما لديهم من بضائع وسلع بسعر أعلى بكثير من سعر السوق ويكون الدفع مؤجلاً(١٧٨) . وقد انتشرت أعمال الصيرفة فى معظم مدن الدولة العباسية الهامة، ففى العراق نشطت أعمالهم فى بغداد والبصرة والكوفة وسامراء(١٧٩) ، وكانت أعمال الصيرفة تتم بين مصر وبغداد وسر من رأى فى عهد أحمد بن طولون ، وكان لابن طولون وكيلاً ببغداد يأخذ ما يحتاجه من صيارفة بغداد وسر من رأى لينفق منها على هدايا ابن طولون التى يقدمها للقواد بحاضرة الخلافة ، ثم يذكر أن هذه الأموال كان يؤخذ عوضها فى مصر(١٨٠) . وفى العصر الفاطمى أصبحت القاهرة مركزًا رئيسيًا للمعاملات المالية بسبب نشاطها التجارى كمركز للصادر والوارد(١٨١) .

وكان السوق يخضع لإشراف حكومى بما فى ذلك عمل الصيارفة ويتضح ذلك مما رواه الصولى من أن ناصر الدولة الحمدانى أمير الأمراء بلغه « أن الصيارفة يربون رباء ظاهرًا، فأحضرهم وحذرهم وأحلفهم ، فتحسن أمرهم قليلاً »(١٨٢).

وبحكم تعلق اختصاص الصيارفة بالنظام النقدى ، فقد بذلوا جهودًا فاعلة فى تسهيل أمر تبادل النقود فى الأسواق إما نقدًا أو بموجب وثائق مالية قابلة للصرف . وبلا ريب ، فإن عملية تبادل النقود مهمة أساسية يتطلبها النشاط الاقتصادى والمالى فى المدن ، بفعل ارتياد التجار الأجانب الذين يحملون معهم

نقودًا قد تختلف عن النقود المتداولة فى أسواق الدولة العربية الإسلامية . وقد انتشر الصرافون الذين انتشروا فى جميع أسواق الدولة حتى أن ناصرى خسرو رأى فى أصبهان سوقًا من أسواق الصرافين به مائتا صراف(١٨٣) كما كانت بخارى مركزًا هامًا للصيرفة يستبدل فيه سكان آسيا الشرقية والغربية سكتهم بوساطة أهلها(١٨٤) .

أن كثرة أسواق الصرافين دليل على انتعاش النشاط الاقتصادى فى أسواق الدولة وكذلك دليل على ازدهار هذا القطاع ازدهارًا ينم على تطوره الحياة الاقتصادية .

إن تطور الحالة الاقتصادية فى الدولة الإسلامية وانتعاش السوق أدى إلى أن يعطى الثقة للعملة العربية فقد كان للدينار العربى أثر كبير على اقتصاد أوربا ولعب دورًا رئيسيًا فى المبادلات التجارية الدولية وقلده الأوربيون فى عملاتهم كالفلورين والدوقة الإيطاليتين ، كما قلد الصليبيون فى المشرق الدنانير الفاطمية . وانتشرت النقود العربية خارج نطاق العالم الإسلامى فأصبحت منافسة قوية للعملة البيزنطية فى جنوب روسيا وغرب أوربا .

وكالدينار ، كان للدرهم العربى تأثير اقتصادى كبير على بيزنطة والغرب . والعملة البيزنطية الفضية المعروفة باسم Miliaresid ، التى بدىء بسكها فى أوائل القرن الثامن الميلادى ، كانت بوحى من الدرهم الأموى ، وأن كثيرًا من الدراهم البيزنطية فى القرنين الثامن والتاسع الميلاديين ضرب على أقراص ضرب الدراهم العربية ذاتها(١٨٥) .

الهوامش

(١) أطلق على جميع ما تتعامل به الشعوب من دنانير ذهبية ، ودراهم فضية وفلوس نحاسية بـ (النقود) انظر المقريزى ، شذور العقود فى ذكر النقود ، ص٤٤ .

(٢) عبد القديم زلوم ، الأموال فى دولة الخلافة ، ص١٩٩ .

(٣) د . ناهض عبد الرزاق ، المسكوكات وكتابة التاريخ ، ص٦ .

(٤) تقى الدين المقريزى ، شذور العقود فى ذكر النقود ، ص٤٤ .

(٥) ابن خلدون ، العبر ، جـ١ ، ص٢١٦ .

(٦) سالم الألوسى : علم تحقيق الوثائق - المعروف بعلم الدبلوماتيك ، ص٧ .

(٧) عبد القديم زلوم ، الأموال فى دولة الخلافة ، ص٢٠٠ .

(٨) الماوردى، الأحكام السلطانية ، ص١٧٥ ، والبلاذرى ، فتوح البلدان ، ص٤٧١ ، ٤٧٢.

(٩) السيوطى ، حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة ، جـ٢ ، ص١٧٤ .

(١٠) د. جواد على ، المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام ، جـ٢ ، ص١١٢ .

(١١) أبو يوسف ، الخراج ، ص١٥ وكذلك الماوردى ، الأحكام السلطانية ، ص١٨٤ .

(١٢) البلاذرى ، فتوح البلدان ، ص٤٧٢ .

(١٣) نفس المصدر ، ص١٧٠ - ٤٧١ .

(١٤) الماوردى ، الأحكام السلطانية ، ص١٧٥ .

(١٥) د. جواد على ، المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام ، جـ٧ ، ص٤٨٧ .

(١٦) آدم متز ، الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى ، المجلد الثانى ، ص٣٧٥ .

(١٧) ابن نجويه ، الأموال ، جـ١ ، ص٤١١ .

(١٨) د. جواد على ، المصدر السابق ، جـ٧ ، ص٤٩٥ .

(١٩) الواقدى : المغازى ، جـ٢ ، ص٦٧٠ .

(٢٠) ابن كثير ، السيرة جـ٤ ، ص١٩٦ .

(٢١) الواقدى ، المصدر السابق ، جـ٢ ، ص ٦٦٩ .

(٢٢) ابن منظور ، اللسان ، جـ٢ ، ص٩٤٧ ، مادة (عين) .

(٢٣) د. جواد على ، المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام ، جـ٧ ، ص٤٩٥ .

(٢٤) البلاذرى ، فتوح البلدان ، ص٦٥٢ .

(٢٥) المقريزى ، شذور العقود فى ذكر النقود ، ص٦ .

(٢٦) عبد القديم زلوم ، الأموال فى دولة الخلافة ، ص٢٠٠ .

(٢٧) د. ناهض عبد الرزاق ، المسكوكات وكتابة التاريخ ، ص٢١ .

(٢٨) المقريزى : إغاثة الأمة ، ص٥١ .

(٢٩) أبو السعود ، رسالة أبى السعود بجواز وقف النقود ، ورقة ١١ - أ .

(٣٠) الماوردى ، الأحكام السلطانية ، ص١٥٥ .

(٣١) د. حمدان الكبيسى ، أصول النظام النقدى فى الدولة العربية الإسلامية ، ص٨ .

(٣٢) د. ناهض عبد الرزاق ، المصدر السابق ، ص٢١ .

(٣٣) البلاذرى ، فتوح البلدان ، ص٦٥١ ، البخارى ، الجامع الصحيح ، جـ٢ ، ص٣١ .

(٣٤) البقلى : نسبة إلى ملك يقال له رأس البغل (المقريزى ، المصباح المنير ، جـ١ ، ص٤٤ - البيهقى ، المجالس والمساوىء ، جـ٢ ، ص١٢٨ - الدميرى ، حياة الحيوان الكبرى ، جـ١ ، ص٧٣ . وقيل نسبة إلى (بغل) وهو اسم يهودى ضرب تلك الدراهم وعرفت باسمه ، انظر المقريزى ، إغاثة الأمة ، ص٤٩ - ٥٠.

(٣٥) الماوردى : الأحكام السلطانية ، ص١٤٧ .

(٣٦) المقريزى ، إغاثة الأمة ، ص٥٢ .

(٣٧) جودت باشا ، تاريخ جودت ، جـ١ ، ص٢٤٩ .

(٣٨) البلاذرى ، فتوح البلدان ، ص٦٥٣ - ابن الأثير ، الكامل ، جـ٤ ، ص٤١٨ ، المقريزى، إغاثة الأمة ، ص٥٣ .

(٣٩) د. جواد على ، المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام ، جـ٧ ، ص٤٩٧ .

(٤٠) د. ناهض عبد الرزاق ، المسكوكات وكتابة التاريخ ، ص٢٣ .

(٤١) المقريزى ، شذور العقود ، ص٩ - ١٠ .

(٤٢) البلاذرى ، فتوح البلدان ، ص٦٥٣ - ٦٥٤ ، الماوردى : الأحكام السلطانية ، ص١٤٨ - ابن الأخوة ، معالم القرية ، ص٨٣ .

(٤٣) البلاذرى ، فتوح البلدان ، ص٦٥٦ .

(٤٤) ابن الرفعة ، الرتبة فى الحسبة ، ورقة ١١ - أ .

(٤٥) الخربوطلى ، تاريخ العراق فى ظل الحكم الأموى ، ص٤٢٤ .

(٤٦) د. ناهض عبد الرزاق ، المسكوكات وكتابة التاريخ ، ص٢٣ .

(٤٧) البلاذرى ، فتوح البلدان ، ص٦٥٤ ، اليعقوبى : تاريخ اليعقوبى ، جـ٣ ، ص٢٦ .

(٤٨) الماوردى : الأحكام السلطانية ، ص١٤٨ ، ابن خلدون ، المقدمة ، جـ٢ ، ص٨٠٩ .

(٤٩) البلاذرى ، فتوح البلدان ، ص ٦٥٥ ، ٦٥٦ .

(٥٠) ابن رستة، الأعلاق النفسية، ص١٩٢ ، البيهقى : المحاسن والمساوىء ، جـ٢ ، ص١٢٦

(٥١) المقريزى ، شذور العقود ، ص١٠ ، ١٣ .

(٥٢) أبو عبيد ، الأموال ، جـ٤٦٦ ، الماوردى : الأحكام السلطانية ، ص١٤٩ .

(٥٣) جورجى زيدان ، تاريخ التمدن الإسلامى ، جـ١ ، ص١٤٣ .

(٥٤) عمر فروخ ، تاريخ صدر الإسلام والدولة الأموية ، ص٢١٦ .

(٥٥) ناصر النقشبندى ، الدينار الإسلامى فى المتحف العراقى ، ص٢٣ - ٢٥ .

(٥٦) عبد القديم زلوم ، الأموال فى دولة الخلافة ، ص٢٠٢ .

(٥٧) الماوردى : الأحكام السلطانية ، ص١٥٤ .

(٥٨) د. جواد على ، المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام ، جـ٧ ، ص٤٩٨ .

(٥٩) الماوردى : الأحكام السلطانية ، ص١٥٤ ، ابن الأخوة ، معالم القربة ، ص٨٣ .

(٦٠) البلاذرى ، فتوح البلدان ، ص٦٥١ .

(٦١) المناوى ، النقود والمكاييل والموازين ، ص٧٦ .

(٦٢) د. ناهض عبد الرزاق ، المسكوكات وكتابة التاريخ ، ص٢٧ .

(٦٣) البلاذرى ، فتوح البلدان ، ص٦٥٦ .

(٦٤) د. محمد ضياء الدين الريس ، الخراج والنظم الإسلامية فى الدولة الإسلامية ص٢١٠ .

(65) Lavoix, Catalogue des Monnaies Musulmanes, p.19

(٦٦) المقريزى ، شذور العقود ، ص١٣ .

(٦٧) حمدان الكبيسى ، أصول النظام النقدى ، ص٢٢ .

(٦٨) الطبرى ، التاريخ ، جـ٧ ، ص٢٤٢ .

(٦٩) الريس ، الخراج والنظم المالية للدولة الإسلامية ، ص٢٠٥ .

(70) E. Gibbon : The Decline and Fall on the Romans Empire. Vol. p.388.

(71) Loboix. m.. Henat; Cataloge des Monnaies, p,26.

(72) Welhausen : the Arab King domand Its Fall, p. 218.

(73) E. Gibbon : Ibid, p. 388.
(74) Encyclopedia Britannica. Vol. III. Art> Justinain. II,
وكذلك : الطبرى ، تاريخ الرسل والملوك ، جـ٥ ، ص٣٥ .

(٧٥) ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة جـ١ ، ص١٧٦ ، البيهقى ، المحاسن والمساوىء جـ٢، ص١٢٦ .

(٧٦) الدميرى ، حياة الحيوان ، جـ١ ، ص٦٢ - ٦٤ . جورجى زيدان التمدن الإسلامى ، جـ١ ، ص١٤٣ .

(٧٧) الماوردى : الأحكام السلطانية ، ص١٤٨ .

(٧٨) المقريزى ، إغاثة الأمة ، ص٥٢ ، ٥٣ ، ٥٤ .

(٧٩) نفس المصدر ، ص٥٥ ، ٥٦ .

(٨٠) البلاذرى ، فتوح البلدان ، ص٦٥٦ . ابن خلدون ، المقدمة ، جـ٢ ، ص٨٠٩ .

(٨١) جورجى زيدان ، تاريخ التمدن الإسلامى ، جـ١ ، ص١٤٤ .

(٨٢) البلاذرى ، فتوح البلدان ، ص٦٥٦ ، وكذلك الماوردى ، الأحكام ، ص١٥٤ .

(٨٣) المقريزى ، إغاثة الأمة ، ص٥٩ .

(٨٤) المقريزى ، شذور العقود ، ص١٧ .

(٨٥) المقريزى ، شذور العقود ، ص٢٥٠ .

(٨٦) المقريزى ، إغاثة الأمة ، ص٦٠ .

(٨٧) المقريزى ، شذور العقود ، ص٢٠

(88) Ashtor, Histoire des Prix, p.75.

(٨٩) انظر يحيى بن آدم ، الخراج ، ص٧١ - ٧٢ .

(٩٠) الأصطخرى ، المسالك والممالك ، ص١٧٥ .

(٩١) المقريزى ، شذور العقود ، ص٢٠ .

(٩٢) نفس المصدر ، ص١٨ .

(٩٣) نفس المصدر ، ص٢٣ ، ٢٥ .

(٩٤) د. ناهض عبد الرزاق ، المسكوكات وكتابة التاريخ ، ص٤٦ .

(٩٥) ابن الزبير ، الذخائر والتحف ، ص١١٦ .

(٩٦) المصدر السابق ، ص٣٨ .

(٩٧) الأربلى ، خلاصة الذهب المسبوك ، ص٢٤٢ ، السيوطى ، تاريخ الخلفاء ، ص٣٥٨، ٣٦٧.

(٩٨) مسكويه ، تجارب الأمم ، جـ١ ، ص٢٢٣ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، جـ١١ ، ص١٦٨ . Bowen, The life and times of Ali Isa, p.98.

(٩٩) المسعودى ، مروج الذهب ، ص٣٣٧ ، الكرملى ، النقود العربية وعلم المنميات ، ص١٣١ .

(١٠٠) الكرملى ، النقود العربية وعلم المنميات ، ص١٢٤ - ١٢٦ .

Siddi. « caliphate and Kingship in medieval Persia. Islamic Cultre, vol. 10, 1950, pp. 98-104.

(101) Ashtor, Histoire des Prix, p.75.

(١٠٢) د. عطية القوصى ، تجارة مصر فى البحر الأحمر ، ص٢٤٤ .

(١٠٣) إيمان عدنان العزاوى ، المسكوكات الحمدانية ، مجلة المؤرخ العربى - العدد ٤٣ ، ص٢٥٥ .

(١٠٤) ياقوت الحموى معجم الأدباء ، جـ١ ، ص٣٣٩ .

(١٠٥) ابن أبى إسحاق الصابى ، تحفة الأمراء فى تاريخ الوزراء ، ص١٥١ .

(١٠٦) ابن المأمون ، أخبار مصر ، ص٣٨ .

(١٠٧) د. محمد جمال الدين سرور ، تاريخ الحضارة الإسلامية فى الشرق ، ص١٦٢ وكذلك انظر د. مايسة محمود داود ، المسكوكات الفاطمية ، ص٤٥ - ٤٦ .

(١٠٨) د. محمد جمال سرور ، تاريخ الحضارة الإسلامية فى الشرق ، ص١٦٣ .

(١٠٩) د. حسن إبراهيم حسن ، تاريخ الدولة الفاطمية ، ص٦٠٥ .

(١١٠) د. أيمن فؤاد سيد ، الدولة الفاطمية ، ص٣١٨

(١١١) د. عطية القوصى ، تجارة مصر فى البحر الأحمر ، ص٢٤٧ .

(112) Miles (Georeg), The Numismatic history of Rayy, p. 143. 153.

(١١٣) آدم متز ، الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى ، (طبعة ١٩٤٨) ، جـ٢ ، ص٢٧٤ .

(114) Miles: The Numismatic history of Rayy, p.187

(115) Zambaur :Numismatische Zeitschrift. pp. 126-128

(١١٦) الجهشيارى ، الوزراء والكتاب ، ص٢٨١ - ٢٨٢ .

(١١٧) مسكويه ، تجار الأمم ، جـ١ ، ص٢٤٤ .

(١١٨) البلاذرى ، فتوح البلدان ، ص٦٥٦ - ٦٥٧ ، ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ ، جـ٤، ص٤١٧ .

(١١٩) ابن مماتى ، قوانين الدواوين ، ص٣٣١ .

(١٢٠) النقشبندى ، الدينار الإسلامى ، ص٣٦ .

(١٢١) عباس العزاوى ، تاريخ النقود العراقية ، ص٢٠

(١٢٢) عبد الرحمن فهمى، مقدمة لمخطوط ابن بعرة، كشف الأسرار العلمية ، ص٣٠ ، ٣١.

(١٢٣) كى لسترنج ، بلدان الخلافة الشرقية ، ص٢٤٩ كذلك انظر ص٣٨٨ وص٤٢٤ .

(١٢٤) الأصطخرى : مسالك الممالك ، ص١٥٨ .

(١٢٥) ابن خلدون ، العبر وديوان المبتدأ والخبر ، جـ٣ ، ص٥٨٣ .

(١٢٦) السيوطى، تاريخ الخلفاء ، ص٣٣٩ - ٣٤٠ وانظر كذلك د. صفاء حافظ عبدالفتاح، نظم الحكم فى الدولة العباسية ، ص١٧٦ .

(١٢٧) التنوخى ، الفرج بعد الشدة ، جـ١ ، ص٢٢ .

(١٢٨) ياقوت الحموى : معجم الأدباء ، جـ١٤ ، ص١٢٣ .

(١٢٩) أبو يعلى ، الأحكام السلطانية ، ص١٦٥ .

(١٣٠) عباس العزاوى ، تاريخ النقود العباسيى ، ص٢٢ - ٢٣ .

(١٣١) الصابئى ، رسائل الصابئى ، جـ١ ، ص١١٣ - ١١٤ .

(١٣٢) حمدان الكبيسى ، أسواق بغداد ، ص٢٠٤ .

(١٣٣) د. إبراهيم سلمان الكردى وآخرون ، المرجع فى الحضارة العربية الإسلامية ، ص١٣٤.

(١٣٤) المقريزى ، إغاثة الأمة ، ص٥٥ .

(١٣٥) د. سيدة إسماعيل كاشف ، مصر فى عهد الإخشيديين ، ص١٩٢ .

(١٣٦) ابن خلدون ، المقدمة ، جـ٢ ، ص٧٤٧ .

(١٣٧) د. عبد المنعم ماجد ، نظم الفاطميين ورسومهم ، ص١٢٦ .

(١٣٨) د. مايسة محمود داود ، المسكوكات الفاطمية ، ص١١١ .

(١٣٩) ابن بعرة ، الأسرار العلمية بدار الضرب المصرية ، ص٧٦ و٩٠ - ٩١ .

(١٤٠) ابن مماتى ، قوانين الدواوين ، ص٣٣٢ .

(١٤١) أبو عبد الله محمد الخوارزمى ، مفاتيح العلوم ، ص٥٨

(١٤٢) السفتجة : كلمة فارسية .

(143) Imamuddin. Byat al mal and Banks, Islamic culture vol. 35, p.19

(١٤٤) الثعالبى ، ثمار القلوب . ص٥٤٥ .

(145) Nadri : Industry and Commerece under the Abassids p.p. 28-29

(١٤٦) د. عبد العزيز الدورى ، تاريخ العراق الاقتصادى ، ص١٧٤ .

(١٤٧) الثعالبى ، الإعجاز والإيجاز ، ص١٣٥ .

(١٤٨) ناصر خسرو ، سفر نامه ، ص٩٦ .

(١٤٩) آدم متز ، الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى ، جـ٢ ، ص٣٧٩.

(١٥٠) التنوخى ، نشوار المحاضرة ، جـ٨ ، ص٢٢٢ .

(١٥١) هلال الصابى ، تحفة الأمراء فى تاريخ الوزراء ، ص٩١

(١٥٢) مسكويه ، تجارب الأمم ، جـ١ ، ص٤٣ .

(١٥٣) التنوخى ، الفرج بعد الشدة ، جـ٢ ، ص١١٠ .

(١٥٤) هلال الصابى ، تحفة الأمراء فى تاريخ الوزراء ، ص٩١ .

(١٥٥) الخوارزمى ، مفاتيح العلوم ، ص٥٣ .

(١٥٦) د. بدر عبد الرحمن محمد ، الحياة السياسية ومظاهر الحضارة فى العراق والمشرق الإسلامى ، ص٣٠٠ .

(١٥٧) اليعقوبى ، تاريخ اليعقوبى ، جـ٢ ، ص١٣٢ - ١٣٣ - الزبيدى ، العراق فى العصر البويهى ، ص٢٢٦ .

(١٥٨) التنوخى ، المستجار ، ص١٧٥ - ١٧٦ .

(١٥٩) الجهشيارى ، الوزراء والكتاب ، ص١٩٦ ، ٢١٤ ، ٢١٥ .

(١٦٠) هلال الصابئى ، تحفة الأمراء فى تاريخ الوزراء ، ص٨٩ ، ٢٥٧ .

(161) Goitien : Bankers and Accounts p.26.

(١٦٢) ابن خلدون ، المقدمة ، جـ٢ ، ص٧٤٧ .

(١٦٣) ابن الجوزى ، المنتظم ، جـ، ص٢٨٣ - ٢٨٤ .

(١٦٤) هلال الصابى ، تحفة الأمراء فى تاريخ الوزراء ، ص٢٣٥ .

(١٦٥) ياقوت الحموى ، معجم الأدباء ، جـ٢ ، ص٢٧٢ ، ٢٧٣ .

(166) Bowen, The life and times of Ali lsa, p.

(١٦٧) الثعالبى ، ثمار القلوب ، ص٥٤٥ ، الزبيدى ، تاج العروس ، جـ٢ ، ص١٥٩ .

(168) Cl. Huart, Histoire des Arabes, vol. p. 290 .

(١٦٩) د. وليم الخازن ، الحضارة العباسية ، ص٨٨ .

(170) Imamuddin. « Byat Al - Mal and banks. « Islamic Culture m vol , 35, 1961, p.17

(١٧١) السيد الباز العرينى « الحسبة والمحتسبون » ، المجلة التاريخية المصرية ، العدد الثانى ، ص١٦٠ .

(١٧٢) د. عبد العزيز الدورى ، تاريخ العراق الاقتصادى ، ص١٥٩ ، ١٦٠ .

(١٧٣) مصطفى الهمشرى ، الأعمال المصرفية والإسلام ، ص٢١ - ٢٢ .

(١٧٤) جمال سرور ، تاريخ الحضارة الإسلامية ، ص١٦٣ .

(١٧٥) مصطفى الهمشرى ، الأعمال المصرفية والإسلام ، ص٢٢ - ٢٣ .

(١٧٦) جمال الدين سرور ، تاريخ الحضارة الإسلامية، ص١٦٣ .

(١٧٧) الهمدانى ، تكملة تاريخ الطبرى ، ص٢١٨ .

(١٧٨) الزبيدى ، العراق فى العصر البويهى ، ص٢٠٥ .

(١٧٩) د. عبد العزيز الدورى ، تاريخ العراق الاقتصادى ، ص١٦٩ - ١٧١ .

(١٨٠) البلوى ، سيرة أحمد بن طولون ، ص٦٠ - ٦١ .

(١٨١) عبد المنعم ماجد ، نظم الفاطميين ورسومهم فى مصر ، ص١٣٠ .

(١٨٢) الصولى ، أخبار الراضى والمتقى ، ص٢٣١ .

(١٨٣) ناصر خسرو ، سفر نامة ، ص١٠٢ - ١٠٣ .

(١٨٤) فامبرى ، تاريخ بخارى ، ص٢٥ .

(١٨٥) أمين الطيبى ، النقود العربية ، المؤرخ العربى ، العدد ١٩ ، ص١٩٧ - ١٩٨ .

مصادر البحث

أولاً : باللغة العربية :

ابن الأثير : أبو الحسن على بن الكرم محمد بن عبد الكريم الحزرى (ت٦٣٠-١٢٣٣م) .

- - الكامل فى التاريخ ، ٨ أجزاء ، دار الطباعة الأميرية ، القاهرة ١٣٥٣هـ .

الأربلى : عبد الرحمن بن سنبط قنيتو الأربلى (ت ٧١٧ هـ/١٣١٧م) .

- - خلاصة الذهب المسبوك مختصر من سير الملوك ، تصحيح مكى السيد جاسم، مكتبة المثنى ، بغداد .

ابن الأخوة : محمد بن محمد بن أحمد القرشى (ت ٧٢٩هـ/١٣٢٧م) .

- - معالم القربة فى أحاكم الحسبة ، مطبعة دار الفنون - كمبرج ، ١٩٣٧م .

ابن بعرة : منصور الذهبى الكاملى .

- - كشف الأسرار العلمية بدار الضرب المصرية - تحقيق عبد الرحمن فهمى ، القاهرة ١٩٦٦م .

ابن خلدون : عبد الرحمن بن محمد (ت ٨٠٨هـ/١٤٠٥م) .

- - مقدمة ابن خلدون ، جزءان ؛ لجنة البيان العربى ، القاهرة ، ١٩٦٥.
- - العبر ، وديوان المبتدأ والخبر ، ٧ أجزاء ، بيروت. دار الكتاب اللبنانى ١٩٨١ .

ابن رستة : أحمد بن عمر (ت ٣١٠هـ/١٩٢٢م) .

- - الأعلاق النفسية ، مطبعة بريل (ليدن ١٨٩١م) .

ابن الرفعة : نجم الدين أحمد بن محمد (ت ٧١٠هـ/١٣١٠هـ) .

- - الرتبة فى الحسبة ، مخطوطة بمعهد المخطوطات بجامعة الدول العربية برقم ٥٥١.

ابن الزبير : أحمد بن على بن إبراهيم الغسانى (ت ٥٦٣هـ/١١٦٧م) .

- - الذخائر والتحف ، مطبعة حكومة الكويت ، الكويت ١٩٥٩م .

ابن زنجويه (ت ٢٥١هـ/٨٦٥م) .
- الأموال ، ثلاثة أجزاء ، تحقيق شاكر ديب فياض ، الطبعة الأولى ، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية ، الرياض ، ١٤٠٧هـ/١٩٨٦م.
ابن سلام : أبو عبيد القاسم (ت ٢٢٣ هـ / ٨٣٧م) .
- الأموال ، تحقيق محمد خليل هراس ، القاهرة ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م .
ابن كثير : عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي (ت ٧٧٤هـ/١٣٧٢م) .
- البداية والنهاية ، حقق له : دكتور أحمد أبو ملحم وآخرون ، دار الكتب العلمية ، الطبعة الأولى ، ٤ أجزاء ، بيروت ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م .
ابن كثير : عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي (ت ٧٧٤هـ/١٣٧٢م) .
- السيرة النبوية ، تحقيق مصطفى عبد الواحد ، دار المعرفة ، بيروت ١٩٧٦م.
ابن المأمون : جمال الدين أبو على موسى (ت ٥٨٨هـ/١١٩٢م).
- « أخبار مصر - نصوص من » حققها وكتب مقدمتها ، أيمن فؤاد سيد ، المعهد العلمي الفرنسي للآثار ، القاهرة ١٩٨٣م .
ابن مماتي : الأسعد بن مماتي (ت ٦٠٦هـ/١٢٠٩م) .
- قوانين الدواوين ، تحقيق سوريال عطية ، القاهرة ، ١٩٤٣م .
ابن منظور: أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم (ت ٦٣٠هـ/١٢٣٣م).
- لسان العرب ، عشرين جزء ، طبعة مصور عن طبعة بولاق - القاهرة .
أبو السعود : محمد بن محمد بن مصطفى العمادى (ت ٩٨٢هـ/١٥٧٤م).
- رسالة أبي السعود بجواز وفق النقود ، مخطوطة بمكتبة جامعة القاهرة رقم ٦٥٢٣.
أبو يوسف : يعقوب بن إبراهيم (ت ١٨٢هـ/٧٩٨م) .
- كتاب الخراج ، المطبعة الأميرية ببولاق ، مصر ١٣٠٢هـ .
البخارى : محمد بن إسماعيل بن إبراهيم (ت ٢٥٦هـ/٨٧٠م) .

-- الجامع الصحيح ، ٤ أجزاء ، مطبعة بريل (ليدن ١٨٦٤م) .

البلاذرى : أحمد بن يحيى بن جابر (ت ٢٧٩هـ/٨٩٢م) .

-- فتوح البلدان ، مؤسسة المعارف للطباعة والنشر ، بيروت ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م وطبعة القاهرة ١٩٥٦م .

البلوى : أحمد محمد عبد الله بن محمد المدينى (ت ٣٣٠هـ/١٩٤١م .

-- سيرة أحمد بن طولون ، حققه وعلق عليه محمد كرد على ، نشر المكتبة العربية ومطبعة الترقى ، دمشق ١٣٥٨هـ .

البيهقى : إبراهيم بن محمد (ت ٤٧٠هـ/١٠٧٧م) .

— المحاسن والمساوىء ، جزاءان ، مطبعة السعادة ، القاهرة ١٩٠٦م .

التنوخى : أبو على المحسن بن على (ت ٣٨٤/٩٩٤م) .

-- الفرج بعد الشدة ، مصر ١٩٠٣ .

الثعالبى : عبد الملك بن محمد (ت ٤٢٩هـ/١٠٣٨م) .

-- الإعجاز والإيجار ، القاهرة ١٨٩٧م .

-- ثمار القلوب فى المضاف والمنسوب ، مطبعة الظاهر ١٩٠٨م .

الجهشيارى : أبو عبد الله بن عيدروس (ت ٣٣١هـ/٩٤٢م) .

-- الوزراء والكتاب ، مطبعة مصطفى البابى الحلبى وأولاده ، القاهرة ١٩٣٨م.

حسن : حسن إبراهيم (دكتور) .

-- تاريخ الدولة الفاطمية ، مكتبة النهضة المصرية ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٥٨م.

الحنبلى : أبو يعلى محمد بن الحسين الفراء (ت ٤٥٨هـ/١٠٦٥م).

-- الأحكام السلطانية ، صححه وعلق عليه : محمد حامد الفقى ، مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبى وأولاده ، الطبعة الثانية ، مصر ١٣٨٦/١٩٦٦م .

الخازن : وليم الخازن (دكتور) .

- الحضارة العباسية ، دار المشرق ، الطبعة الثانية ، بيروت ١٩٩٢م .

الخربوطلى : على حسنى (دكتور) .

- تاريخ العراق فى ظل الحكم الأموى ، القاهرة ١٩٥٩م .

الخوارزمى : أبو عبد الله محمد بن أحمد بن يوسف الكاتب (ت ٣٨٧ - ٩٩٧م) .

- مفاتيح العلوم ، إعداد عبد اللطيف محمد العبد ، دار النهضة العربية القاهرة.

داود : مايسة محمود (دكتورة) .

- المسكوكات الفاطمية ، دار الفكر العربى ، القاهرة .

الدميرى : كمال الدين محمد بن موسى بن على (ت ٨٠٨هـ/١٤٠٥م).

- حياة الحيوان الكبرى ، جزءان ، مصر ١٣٧٤هـ .

الدورى : عبد العزيز (دكتور) .

- تاريخ العراق الاقتصادى فى القرن الرابع الهجرى ، مطبعة المعارف ، بغداد ١٩٤٨م .

الريس : محمد ضياء الدين (دكتور) .

- الخراج والنظم المالية للدولة الإسلامية ، مكتبة دار التراث ، الطبعة الخامسة ، القاهرة ، ١٩٨٥ .

الزبيدى : محمد حسين .

- العراق فى العصر البويهى ، الطبعة الأولى ، بغداد .

زلوم : عبد القديم .

- الأموال فى دولة الخلافة ، دار العلم للملايين ، الطبعة الأولى ، بيروت ١٤٠٣/١٩٨٣م .

زيدان : جرجى .
- - تاريخ التمدن الإسلامى ، خمسة أجزاء فى مجلدين ، الطبعة الثانية ، القاهرة.

سالم الألوسى .
- - علم تحقيق الوثائق المعروف بعلم الدبلوماتيك ، بغداد ١٩٧٧م .

سرور : محمد جمال الدين (دكتور) .
- - تاريخ الحضارة الإسلامية فى الشرق من عهد نفود الأتراك إلى منتصف القرن الخامس الهجرى ، دار الفكر العربى ، القاهرة ١٩٦٥م .

سيد : أيمن فؤاد (دكتور) .
- - الدولة الفاطمية فى مصر ، تفسير جديد ، الطبعة الأولى ، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة ١٤١٣هـ/١٩٩٢م .

السيوطى : عبد الرحمن بن أبى بكر جلال الدين (ت ٩١١هـ/١٥٠٥م).
- - تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين ، دار التراث ، بيروت ١٣٨٩هـ / ١٩٦٩م .
- - حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة ، جزاءان ، القاهرة ١٣٢١هـ .

الصابئى : أبو الحسن الهلال بن المحسن بن إبراهيم بن زهروب (ت ٤٤٨هـ/١٠٥٦م) .
- - تحفة الأمراء فى تاريخ الوزراء ، تحقيق عبد الستار فرج ، دار إحياء الكتب العربية ، ١٩٥٨م .

الأصطخرى : أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الفارسى الأصطخرى المعروف بالكرخى ، (توفى فى النصف الأول من القرن الرابع الهجرى) .
- - مسالك الممالك ، ليدن ، مطبعة بريل ١٩٦٧م .

الطبرى ؛ محمد بن جرير (ت ٣١٠هـ،/١٠٥٨م) .
- - تاريخ الرسل والملوك ، ١٠ أجزاء ، مطبعة دار المعارف ، القاهرة ١٩٦٦م.

عباس العزاوى :
- تاريخ النقود العراقية ، طبع شركة التجارة والطباعة ، بغداد ١٩٥٨م .
عبد الرزاق : ناهض (دكتور) .
- المسكوكات وكتابة التاريخ ، دار الشئون الثقافية العامة ، الطبعة الأولى ، بغداد ١٩٨٨م .
عبد الفتاح : صفاء حافظ .
- نظم الحكم فى الدولة العباسية ، دار الفكر العربى ، القاهرة ١٩٨٥م .
العرينى : السيد الباز .
- الحسبة والمحتسبون فى مصر ، المجلة التاريخية ، العدد الثانى ، المجلد الثالث ، أكتوبر ١٩٥٠م .
العزاوى : إيمان عدنان .
- المسكوكات الحمدانية ، مجلة المؤرخ العربى ، العدد ٤٣ ، بغداد ، السنة السادسة عشرة ١٩٩٠ .
على : جواد (دكتور) .
- المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام ، عشرة أجزاء ، دار العلم للملايين ، الطبعة الثالثة ، بيروت ١٩٨٠ .
فروخ : عمر .
- تاريخ صدر الإسلام والدولة الأموية ، دار العلم للملايين ، بيروت ١٩٧٠م .
القوصى : عطية (دكتور) .
- تجارة مصر فى البحر الأحمر منذ فجر الإسلام حتى سقوط الخلافة العباسية ، دار النهضة العربية ، القاهرة ١٩٧٦م .
كاشف : سيدة إسماعيل (دكتورة) .
- مصر فى عهد الإخشيديين ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٨٩.

الكبيسى : حمدان عبد المجيد (دكتور) .

-- أسواق بغداد ، بغداد ١٩٧٩.

-- أصول النظام النقدى فى الدولة العربية الإسلامية ، دار الشئون الثقافية العامة ، بغداد ١٩٨٨.

الكرملى : انستاس مارى

-- النقود العربية وعلم النميات ، المطبعة الأميرية ، القاهرة ١٩٣٩م.

الكروى : إبراهيم سلمان (دكتور) وعبد التواب شرف الدين (دكتور) .

-- المرجع فى الحضارة العربية الإسلامية ، منشورات ذات السلاسل ، الكويت ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م .

لسترنج : كى .

-- بلدان الخلافة الشرقية ، نقله للعربية بشير فرنسيس وكوركيس عواد ، مطبوعات المجمع العلمى العراقى ، بغداد ١٩٥٤م .

ماجد : عبد المنعم (دكتور) .

-- نظم الفاطميين ورسومهم فى مصر ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ١٩٥٣م .

الماوردى : على بن محمد بن حبيب (ت ٤٥٠هـ) .

-- الأحكام السلطانية والولايات العربية، مطبعة الوطن مصر ١٢٩٨هـ.

متز : آدم

-- الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى ، تعريب محمد عبد الهادى أبو ريدة، دار الكتاب العربى - بيروت .

مسكويه : أبو على أحمد بن محمد (ت ٤٢١هـ/١٠٣٠م) .

-- تجارب الأمم وتعاقب الهمم (الجزء الأول والثانى تصحيح ونشر هـ . ف أمدروز ، مطبعة شكرة التمدن الصناعية ، القاهرة ١٣٣٢هـ/١٩١٤م . الجزء السادس ، طبعة بريل ١٨٧١م .

المسعودى : أبو الحسن على بن الحسين بن على (ت ٣٤٦هـ/٩٥٨م) .
- مروج الذهب ومعادن الجوهر (٤ أجزاء) تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد ، دار الفكر ، بيروت ، ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م .

المقرى : أحمد بن محمد الفيومى .
- المصباح المنير ، المطبعة الأميرية ، القاهرة ١٩٢٢.

المقريزى : تقى الدين أحمد بن على (ت ٨٤٥هـ/١٤٤١م) .
- إغاثة الأمة بكشف الغمة ، القاهرة ١٩٤٠.
- شذور العقود فى ذكر النقود ، تحقيق وإضافات محمد السيد على بحر العلوم ، الطبعة الخامسة ، منشورات المكتبة الحيدرية ومطبعتها ، النجف ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م .

أمين الطيبى (دكتور) .
- النقود العربية انتشارها وأثرها فى أوربا فى القرون الوسطى ، مجلة المؤرخ العربى ، العدد التاسع عشر ، بغداد ١٩٨١م .

ناصر ، خسرو (ت ٤٨١هـ /١٠٠٨م) .
- سفر نامة ، ترجمة يحيى الخشاب ، القاهرة ١٣٦٠هـ/١٩٤٥م .

النقشبندى : ناصر السيد محمود
- الدينار الإسلامى فى المتحف العراقى (٤ أجزاء) ، بغداد ١٩٥٣م.

الهمدانى : محمد بن عبد الملك (ت ٥٢١هـ/١٢٢٧م) .
- تكملة تاريخ الطبرى ، تحقيق : أبو الفضل إبراهيم ، دار المعارف ، القاهرة .

الهمشرى : مصطفى عبد الله .
- الأعمال المصرفية والإسلام ، رسالة ماجستير - كلية دار العلوم -جامعة القاهرة .

الواقدى : محمد بن عمر بن واقد (ت ٢٠٧هـ/٨٢٢م) .
- المغازى ، تحقيق : د. مارسدن جونس ، مؤسسة الأعلمى للمطبوعات ، ٣ أجزاء ، بيروت ، بدون تاريخ .
ياقوت : شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموى الرومى البغدادى (ت ٦٢٦هـ /١٢٢٨م) .
- معجم الأدباء المعروف بارشاد الأريب إلى معرفة الأديب (٢٠ جزء) مطبوعات دار المأمون ، مكتبة عيسى البابى الحلبى ، القاهرة .
يحيى بن آدم القرشى (ت ٢٠٣هـ/٨١٨ك) .
- الخراج ، صححه وشرحه أبو الأشبال أحمد محمد شاكر ، ملحق بكتاب الخراج لأبى يوسف ، دار المعرفة ، بيروت ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م .
اليعقوبى : أحمد بن أبى يعقوب بن وهب بن واضح (ت ٢٨٤هـ/١٨٩٧م)
- تاريخ اليعقوبى (جزءان) دار بيروت ، بيروت ١٤٠٠هـ/١٩٨٠.

ثانيا المراجع الأجنبية :

ASHTOR EL IYAHU:

Hisoire des Prix et des salaires dans l'orient medival . Paris 1969.

BOWEN, HAROLD :

- The lifeand times of Ali Ibn isa the good vizer, Cambridge, 1928.

E. GIBBON,

- THE Decline and fall of the Roman Empire, E.M.S Lib. London 1911.
- Encyclopaedia Britannica.

HUARDT, CLEMENT.

- Historie des Arabes, 2tomes, Libraitie paul Geuthner, Paris, 1912.

IMAMUDDIN, S.H.

- Bayt Al-mal ans banks in the mediral muslim World, Islamic culture, Vol. xxxv, Hyderabad, 1961.

J. Wellhausen,

- The Arab Jingdom A. Its Fall Trans. by weir (calcuta 1928)

LAVOIX-M. HENAT,

- Catalogue des monnaies musulmanes imprmerie natio nale. Paris, 1887.

MILES, GEORGE,

- The Numismatic History of Rayy (New York 1938)

NADRI,

- Industry and Commerce Under the Abassids (J.E.S. Hio, 1y 1966).

SIDDQI, A.H.

- « Caliphate ans kingship in mediebal persia calture vol X, Hyderabed Decan, 1936.

ZAMBAUR, E. VON :

- Numisatische Zeoschrift (wien 1951).

الأحوال العسكرية فى العراق والشام إبان الحرب العالمية الأولى
فى ضوء وثائق لجنة الدفاع الأمبريالى

د. محمد حسن العيدروس
قسم التاريخ - كلية الآداب
جامعة الكويت

مقدمة :

تتناول هذه الدراسة الوضع فى العراق والشام أبان الحرب العالمية الأولى ، وذلك من خلال وثائق لجنة الدفاع الأمبريالى والتى تنشر لأول مرة عن العراق والشام ، وهى عبارة عن ملخص تاريخى لمجريات الأمور فى تلك الفترة .

« Committe of IMPERIAL Defence »

Historical Summary of Events in Territories of the Ottoman Empire. Persia and Arabia . Afiecting the British Position in the Persian Gulf 1907 - 1928

PART II - The WAR (1914 - 1918)

Chapter (4) - the Ottoman Empire (1914 - 1918) .

ندرس فى البداية الاستعدادات العسكرية للحرب ، وكذلك السياسة التى سبقت الحرب وذلك بجمع المعلومات والتقارير ، خاصة لدى الطرف البريطانى عن طريق البعثات الدبلوماسية والقنصلية ودوائر الاستخبارات فى مختلف أنحاء الدولة العثمانية ، ومعرفة الرأى العام العربى فى الأقاليم العثمانية فى العراق والشام بما فيها لبنان والأردن وفلسطين .

نبدأ بعد ذلك بدراسة الأوضاع العسكرية ونتائج المعارك على الجبهتين العراق وفلسطين ، ثم الاحتلال البريطانى لهما ، بعد هزيمة الجيش العثمانى .

حاولنا أن تقتصر الدراسة من خلال وثائق لجنة الدفاع الامبريالى وليس من خلال الكتب المنشورة إلا بقدر ضيق حسب الحاجة ، لأن هذه الوثائق تكشف لنا معلومات جيدة إضافة إلى ما هو معروف سابقًا ، كما استعنا بالوثائق البريطانية الأخرى وخاصة من الخارجية البريطانية لكى تعطى مزيد من التفاصيل عن الأحداث أثناء الحرب العالمية الأولى .

الاستعدادات السياسية والعسكرية البريطانية والعثمانية فى المنطقة منذ منتصف عام ١٩١٤ :

شهدت الأعوام ما قبل الحرب العالمية الأولى محاولات من بريطانيا التخلص من منافسة القوى التى نافستها فى المنطقة ، فقد وقعت بريطانيا الاتفاق الودى مع فرنسا عام ١٩٠٤ ، كما وقعت اتفاقية ١٩٠٧ مع روسيا لتقسيم النفوذ فى إيران ، ولم يبق أمام بريطانيا سوى عقبة كبيرة وهما ألمانيا والدولة العثمانية تشكلان قوتين متنافستين الأولى بثقلها المادى ومشروعاتها التوسعية فى العراق والشام ، والثانية بثقلها الروحى ، ولذلك لجأت بريطانيا إلى احتلال مشيخات شرق الجزيرة العربية وعقد معاهدات الحماية الاستعمارية ثم منعها عن التعاون أو إقامة علاقات مع أية قوى معادية لها وخاصة الدولة العثمانية التى حاولت بالفعل التأثير على هذه المشيخات تحت شعار « حركة الجهاد الدينى » ، مما جعل بريطانيا تقدم حمايتها العسكرية لمشيخات المنطقة الذين أصبحوا مهددين بابتلاع الدولة العثمانية لهم ، وكانت أكثر المشيخات تعرضًا لهذه الأخطار هما « عربستان » التى كان يحكمها الشيخ خزعل الكعبى ١٨٩٧ - ١٩٢٥ ، وعلى الرغم من أنه كان يمارس نفوذًا قويًا فى مشيخته إلا أنه كان يخشى من الدولة العثمانية ، وكذلك الكويت التى كان يحكمها الشيخ مبارك ١٨٩٦ - ١٩١٥ ، وكان خاضعًا للسيادة العثمانية من الناحية الشكلية(١) ، وإن كانت ظروف علاقته مع بريطانيا جعلت من

مشيخته تحت الحماية البريطانية وذلك بموجب الاتفاقية الأنجلو - عثمانية لعام ١٩١٣ ، فى حين لم تكن بريطانيا تخشى على مركز الشيوخ الخاضعين لحمايتها فى القسم الجنوبى من شرق الجزيرة العربية كقطر والبحرين وساحل عمان وعمان لبعدهم عن مركز تحركات العسكرية العثمانية فى البصرة .

لاحظ المراقبون العسكريون البريطانيون أن شيخا « عربستان » و«الكويت» يمكن أن يتعرضا أكثر من غيرهما للتهديد العثمانى الذى قد يؤدى إلى ضياع النفوذ البريطانى أو التشكيك فيه على الأقل . وعلى الرغم من أن الدولة العثمانية لم تدخل الحرب العالمية الأولى إلا بعد مضى ثلاثة أشهر من قيامها فى أوربا وفى خلال تلك المدة لم تغفل حكومة الهند البريطانية فى اتخاذ الإجراءات الاحتياطية فى الخليج العربى فى حالة خوض العثمانيين الحرب بجانب دول « المحور » ضد الحلفاء وكان رأى « بيرسى كوكس » المقيم السياسى البريطانى فى الخليج العربى ، هو ألا ترسل بريطانيا قوات عسكرية إلى المنطقة إلا بعد وقوع الحرب فعلاً وذلك حتى لا تظهر بريطانيا أمام السكان العرب المسلمين بمظهر المعتدى ، ولكن الحكومة البريطانية فى لندن لم تأخذ بهذا الرأى ، وقررت إرسال قوات عسكرية للتمركز فى شمال الخليج العربى(٣) وخاصة وأن بريطانيا كانت تخشى من حركة الجهاد الدينى التى أعلنها السلطان العثمانى بهدف إثارة المسلمين فى الهند والخليج العربى . وكان مما شجع بريطانيا على ذلك أن شيوخ العرب وهم خزعل الكعبى ومبارك الصباح وابن سعود بالإضافة إلى شيوخ العشائر العربية والإيرانية فى جنوب إيران وعربستان والعراق كانوا مهيائين للتعاون والتحالف مع بريطانيا ، وتمثل إمارة عربستان التى كان يحكمها خزعل ، أهمية خاصة لدى بريطانيا ، إذ أن أنابيب النفط التابعة للشركة البريطانية تمر بأرضها(٤)، كما أن أمارة الكويت تقع خلف خطوط الحملة البريطانية المتجهة لاحتلال

البصرة . و لم يجد البريطانيون عناء فى التعاون والتحالف مع كل من شيخ الكويت وعربستان ، فوعدوا الأول بالاستقلال التام عن الدولة العثمانية والثانى بالاستقلال عن إيران ، ولكن القضية كانت تتعلق بموقف الشعوب الإسلامية وميل الغالبية إلى الدولة العثمانية وقد نبه « اتشيسون »، وزير الشئون الخارجية لحكومة الهند وصاحب مجموعة المعاهدات الشهيرة ويتمتع بخبرة عن المنطقة ، نبه إلى أن معظم سكان الخليج من العرب متعلقون بالدولة العثمانية بحكم العاطفة الدينية وينطبق ذلك على سكان « عربستان » ، وقد أكدت الأحداث توقعات « اتشيسون » ، إذ أن معظم العشائر فى جنوب العراق لم تقبل التعاون مع قوات الاحتلال برغم أن بريطانيا وضعت خطة لكى يتولى زعماء العشائر إدارة دولة جديدة فى العراق تؤسس تحت إشرافها(٥) .

نجد أن بريطانيا كانت تهتم بمعرفة الأوضاع فى العراق والشام واتجاهات الرأى العام ، فقد بعث السفير البريطانى فى « أسطنبول » بنسخة من برقيته إلى بغداد فى يوم ١٩١٤/٩/٢٥ وسلمت فى اليوم التالى تحوى معلومات قدمها « مهدى بك » نائب « كربلاء » للسفير البريطانى جاء فيها :

« أخبرنى مهدى نائب كربلاء قبل مدة بأن الحكومة العثمانية أمرته باستخدام نفوذه على مجتهدى الشيعة فى العراق والقوقاز وإيران والهند ، للقيام ببث الدعاية للرابطة الإسلامية ، مع أنه فى الحقيقة لا يوافق عليها ، والوسيلة لهذا الغرض هى المكاتبات ، وقدم مهدى بك اقتراحات بأن يعارض دعايته هذه بخطابات عن طريق السفير تعارض الخطابات الأخرى ، وبما أنه لم يتقدم بهذا الرأى منذ المناسبة الأولى ، لم أتخذ إجراءات هنا حيث أننى لا أثق فيه ، وعليه يمكنك (يقصد وزير الخارجية البريطانية) إخطار نائب القنصل (البريطانى) فى «كربلاء» فيما إذا كان هؤلاء المجتهدون الشيعة استغلوا نفوذهم فى الدعاية ضدنا،

وما هو حقيقة موقفهم ، وعلى نائب القنصل البريطانى أن يستخدم ما لديه من تأثير عليهم بعناية وتحفظ لوقوفهم فى جانبنا »(٦) .

أصبحت بيروت فى هذه الفترة مركزًا هامًا من مراكز الوعى العربى ولكن لبنان والشام مليئة بالمشاكل عامة والطائفية خاصة ، وقد كانت بريطانيا مهتمة بجمع المعلومات عن الأقاليم العربية الخاضعة للحكم والسيطرة العثمانية ، ففى يوم ١٩١٤/٩/١٥ بعث القنصل العام لبريطانيا فى بيروت بصورة من التقرير الذى كتبه للسفير البريطانى فى أسطنبول وتسلمته الخارجية البريطانية فى لندن بتاريخ ١٩١٤/١٠/٧ ، ويرسم التقرير حالة من الاضطراب فى لبنان عقب إعلان الحرب العالمية الأولى ، فركود حالة التجارة عقب إعلان الحرب أثار القلق بين المسيحيين والأجانب ، واستعدادات الدولة العثمانية العسكرية وحشد جنودها ، استدعى استخدام العنف والقهر من جانب السلطات العسكرية مما قاد إلى خراب جزئى للبلاد إضافة إلى الحملات العنيفة ضد المصالح الفرنسية والروسية وبطريقة غير مباشرة المصالح البريطانية أيضًا ، وقد شاع الذعر فى لبنان نتيجة لتصرفات الحاكم العام العثمانى الطائشة ومرؤوسيه من الجندرمة والبوليس ضد السكان فى لبنان وكذلك السلطات اللبنانية ، ففى أول الأمر تركزت شكواهم فى الحماية المزعومة التى تعطيها حكومة لبنان للهاربين من العسكريين من المقاطعتين المتجاورتين ومن أصحاب الجمال والبغال الذين يخفونها لئلا تستخدمها القوات العثمانية(٧) .

جرت عدة محاولات من جانب الجندرمة العثمانية بقيادة ضباط من الجيش لعبور الحدود اللبنانية للقبض على الهاربين من العسكرية أو لأخذ حيوانات النقل ، ففى كل الحالات ما عدا واحدة نجح حرس الحدود اللبنانى عندما كان قويا فى سد الطريق أمامهم ، وقد هدد الحاكم العام العثمانى علنا بأنه سيرسل الجنود للقبض على الهاربين وعلى الحيوانات المطلوبة للحملة ، وقد توصل الحاكمان إلى

اتفاق والأمل معقود على أن لا تتجدد حوادث الحدود هذه . كما شاع رعب حقيقى حوالى منتصف أغسطس نتيجة التقارير التى تواردت عن الحشد الكبير للجنود العثمانيين فى « حمص » و « طرابلس » ، وقد فسرت حسب الاعتقاد السائد على أنها تشير إلى احتلال جبل لبنان تكون نتيجته القضاء على الحكم الذاتى الذى يتمتع به « جبل لبنان » ، ومما يزيد فى التأكيد تصريحات ضد حاكم جبل لبنان التهديدية علنا(٨) .

يقول التقرير البريطانى بأن أخطر الظواهر فى جبل لبنان هى محاولة من الخارج تهدف إلى إضعاف العلاقات الودية بين « الدروز » و« بريطانيا » وإغرائهم لاتخاذ موقف إلى جانب ألمانيا ، وفى حالة إتخاذ الدولة العثمانية إجراءات عسكرية يسمح لهم بانقضاض على « المارونيين » و« الأرثوذكس » فى جبل لبنان ، ولحسن الحظ حسب قول القنصل البريطانى العام أنه سمع بتلك المؤامرة فى الوقت المناسب ، وبعث لبعض زعماء « الدروز » أصحاب النفوذ ونقل لهم ما لديه من معلومات ، ونتيجة لذلك فشلت الحركة فى مهدها بواسطة العمل السريع من جانب هؤلاء الزعماء ، ومن وقتها تواردت إلى القنصل التأكيدات عن إخلاص « الدروز » لبريطانيا التى كانت دائمًا تكتنفهم برعايتها وحمايتها ، ويبدو أن الحجة التى يقدمونها لهم للانضمام لجانب ألمانيا هى أن فرنسا حليفة لبريطانيا ستحتل لبنان وتفضل « المارونيين » عليهم إن خرجت منتصرة من الحرب وستتخلى بريطانيا عنهم حفاظًا للعلاقات بينها وبين حليفتها ، ولم يجد القنصل البريطانى صعوبة فى إقناع « الدروز » على حد قول السفير البريطانى فى إسطنبول ، وقد ظلت الحكومة البريطانية تحمى « الدروز » ضد « المارونيين » طيلة خمسين سنة مع العلم بأن علاقتها مع فرنسا لم تكن ودية إلا منذ وقت قريب، فإذا ما تدعمت هذه الصداقة بين الطرفين البريطانى - الفرنسى بالخروج

منتصرين من الحرب فسوف لا تكون هناك مشكلة بينهما فى هذا النزاع بين الطائفتين ، ويختم القنصل البريطانى تقريره بأنه نصح « الدروز » و« المارونيين » و« الأرثوذكس » التزام الهدوء وأن لا يتنازعوا فيما بينهم حتى لا يجد العثمانيون مبررًا للتدخل فى لبنان(٩) .

كتب الكولونيل كلايتون Clayton رئيس المخابرات البريطانية فى القاهرة فى ٣٠ أكتوبر ١٩١٤ تقريرًا عن محادثته مع عزيز على المصرى يرى بأن الطريقة الوحيدة فى نظره لنجاح برنامج القومية العربية للتحرر من السيطرة العثمانية هو ثورة لها تنظيمها مسنودة بقوة قليلة نسبيًا لكنها معدة أحسن إعداد ويمكن الحصول على نواة هذه القوة من جيش العراق ، فقد غرست بذور عدم الولاء فى هذا الجيش منذ وقت طويل ويضم عددًا ضخمًا من الضباط وضباط الصف والأنفار ينتظرون كلمة واحدة للتخلى عن الحكومة العثمانية والانحياز له وبهؤلاء الرجال كنواة تكون قوة عسكرية من خمسة عشر ألف رجل يحتلون موقعًا مناسبًا يكون تقدم العثمانيين فيه بطيئًا وصعبًا وهذا هو المركز الذين تتجمع حوله قوات زعماء العرب ، ودور بريطانيا هو ضمان تجهيز المال والبنادق والذخيرة والمدفعية وكل المعدات المطلوبة لتسليح هذه النواة ، ويستنكر عزيز المصرى بقوة إرسال قوات بريطانية لأنها سوف تخلق انطباعًا بنية ضم الأراضى ، وباختصار فإن على بريطانيا تقديم معدات الحرب والعرب يكونون القوة المقاتلة وبهذه الطريقة يحدث حلف قوى بين بريطانيا والقوة العربية الجديدة لمصلحة الطرفين . ولكن الحكومة البريطانية لم تؤيد مشروع عزيز المصرى ، وقد بعث « شيتام » القائم بأعمال المعتمد البريطانى فى القاهرة ببرقية بتاريخ ١٩١٤/١١/١٣ إلى الخارجية البريطانية يقول فيها بأن رسالة « كتشنر » للشريف عبد الله بن الحسين أرسلت له ثم قال(١٠) :

بأن زعماء الحركة العربية ينظرون بعين الريبة نحو نيات بريطانيا لضم الأراضى العربية وعلى وجه أخص احتلال موانىء البحر الأحمر والتدخل فى التجارة العربية ، وأن عزيز المصرى عنصر هام فى هذا الصدد خاصة فى العراق وبين الضباط العرب فى الجيش العثمانى ولكنه يفتقر إلى المال لتنفيذ مشروعاته ورأيه هو أن يبدأ بثورة فى العراق معززة بقوة صغيرة ولكنها كاملة التجهيز تكون نواتها من جيش العراق حيث غرست بذور عدم الولاء للعثمانيين وبهذا يتكون مركز يتجمع حوله زعماء العرب ولابد من ضمان المال والأسلحة والمعدات الحربية الأخرى قبل القيام بأية خطوة نحو التنفيذ ويجب أن تكون هذه القوة حوالى أربعين ألفا أو خمسين ألفا وما كان من وزارة الخارجية البريطانية إلا أن أمرت بتنفيذ المشروع على أن يوكل إلى حكومة الهند إذ أقرت الأخيرة(١١) .

ازداد نفوذ ألمانيا فى الدولة العثمانية قبيل الحرب العالمية الأولى لدرجة كبيرة فبعد تردد قصير علق ثلاثى جماعة الاتحاد والترقى الآمال على برلين ودخل الحرب ضد الحلفاء وبنتيجة مغامرة زعماء الأتراك ، بلغت الأزمة السياسية داخل الدولة العثمانية نقطة حرجة فطرح سكان أغلب الأقاليم غير التركية وخاصة الأقاليم العربية مطالب تقرير المصير إلا أن دول الحلفاء وبالذات فرنسا وبريطانيا كانت تعتبر الدولة العثمانية المحتضرة كلها غنيمة استعمارية لها وتعتبر القوميين العرب حلفاء مؤقتين خاضعين لها(١٢) .

قيام الحرب بين بريطانيا والدولة العثمانية :

أرسلت بريطانيا قواتها العسكرية للمرابطة فى البحرين منذ شهر أكتوبر ١٩١٤ وتحولت تلك الجزيرة العربية إلى قاعدة كبيرة لبريطانيا وذلك قبل إعلان الدولة العثمانية الدخول إلى الحرب العالمية الأولى ، ومع بداية الحرب كتبت لجنة الدفاع الأمبريالى تقريرها بأنه فى هذا الجزء ليس هناك أى محاولة لمتابعة تفاصيل

العمليات العسكرية خلال سنوات الحرب فى الشرق الأوسط ، ولعل ذلك من الممكن أن نجد أنفسنا خارج إطار هذه الورقة ، ولكن هذه المحاولة ما هى إلا مخطط شامل ومتتالى بمتابعة الأحداث السياسية والعسكرية بحسب التعبير السياسى ، والتى كانت تعكس سياسة أعداء بريطانيا وحلفائها أو بريطانيا ذاتها، وخاصة ضد مصالح بريطانيا فى العراق والخليج العربى بطريقة مباشرة ومع هذه المحدودية فإن الموضوع لا يزال كبيرًا وفى اليوم الحادى والثلاثين من أكتوبر ١٩١٤ قطعت دول الحلفاء العلاقات مع الدولة العثمانية وفى نفس اليوم أرسلت جماعة الاتحاد والترقى خطابات تعميم إلى جميع قطاعاتها وأقسامها عن طريق فروعها فى جميع أقاليمها ، شارحا فى هذه الخطابات تقريرًا عن سبب المشاركة فى الحرب العالمية الأولى ، فقد تحركت تركيا بدافعين رئيسيين وهما ، أنها فكرت فى الدفاع عن نفسها ضد الهدف الروسى التقليدى وهو تحطيم الدولة العثمانية والاستيلاء على « أسطنبول » ومضايقها ، والدافع الرئيسى الثانى هو تبرئة وتبرير هدفنا القومى بتحقيق الشىء الأقرب إلى قلوبنا بالدفاع عن القومية التركية بغرض الحصول على حدود قومية لدولتينا والتى يجب أن تتضمن وتوحد كل فروع عرقنا من الجنس التركى - عند وضع هذه الدوافع قدمًا أصبح لا يوجد شك بأن جماعة الاتحاد والترقى قد شددت على المناداة الأقوى للدولة القومية للجنس التركى(١٤).

يتضح من ذلك أن جماعة الاتحاد والترقى دخلت الحرب لسببين رئيسيين وهما ، الأول التخوف من الاجتياح الروسى وأطماعها التقليدية والهدف الثانى مرتبط بالأول ، وهو عن طريق الحرب يمكن إرجاع الأقاليم التى احتلتها روسيا والتى يوجد فيها الجنس التركى وخاصة فى شرق وشمال الأناضول، ألا وهى منطقة « الأزربيجان » و« القوقاز » ، وعن طريق المساعدة العسكرية الألمانية

يمكن تحقيق الهدف الأخير ، و لم يكن القوميون الأتراك يدركون أهمية الجنس العربى الذين قد يشكل خطر ويؤدى إلى إنسلاخ أقاليمها الجنوبية بمساعدة بريطانيا التى كانت تتربص بتلك الأقاليم العربية وخاصة العراق وفلسطين ، أما الشام فحليفتها فرنسا ، وهذا ما حدث فيما بعد .

« وصلت القوات البريطانية من الهند إلى « الفاو » فى بلاد الرافدين (ميسوبوتاميا) فى السادس من نوفمبر ١٩١٤ بعد أسبوع من بدء الحرب مع الدولة العثمانية ، وذلك من أجل حماية الإمدادات البترولية القادمة من حقول النفط فى عربستان ، وفى ٢٢ نوفمبر أستولت هذه القوات على البصرة ، وكان السلطان العثمانى قد أعلن فى ١٤ نوفمبر الجهاد على جميع قوات الحلفاء المعادية للدولة العثمانية ، وقد توقع الكثير من وراء هذه اللعبة ، ولكن النتائج جاءت مخيبة للآمال ، ومن الضرورى التحدث فى هذا الموضوع عند الكتابة عن أحداث الحرب فى المنطقة العربية(١٤) .

نلاحظ مما سبق ذكره عن « الجهاد والنتائج التى جاءت مخيبة للآمال » فإن فشل حركة الجهاد لم يرجع إلى الجهاد نفسه ، بقدر ما يرجع إلى الدور الكبير الذى لعبته بريطانيا قبل إعلان الحرب وذلك بتجميع حكام العرب فى الخليج العربى وجنوب العراق ضد الدولة العثمانية ، فى حين كان الشعب العربى فى الخليج والعراق مع الجهاد ضد قوات الاحتلال البريطانى ، ولكن مصداقية حركة الجهاد اصطدمت بتعاون الأتراك وتحالفهم مع الألمان الذين تجمعهم مع بريطانيا وفرنسا الديانة المسيحية ، وجميعهم يطمعون فى الأراضى والأقاليم الإسلامية ، إضافة إلى ذلك سياسة التتريك التى اتبعتها جماعة الإتحاد والترقى والتوجه نحو القومية التركية ومعاداة العرب .

فشل الهجوم التركى على مصر :

دعت السياسة العسكرية الألمانية ، للقيادة التركية إلى التقدم من خلال بلاد الشام نحو مصر وشمال أفريقيا ، وكان حسب تصور الألمان أن هذا المكان أو الجبهة يمكن للقوات التركية أن تستطيع تقديم أفضل الجهود وأحسن النتائج ضد القوات البريطانية ، أو على الأقل إعاقتهم فى قناة السويس وتوقيف أو تجميد القوات البريطانية على مقياس واسع ، ثم استعادة السيادة العثمانية فى شمال شرق أفريقيا ، ويمكن تحقيق ذلك كمكافأة لنجاح الجيش التركى فى مصر . ولكن الغزو فى هذا الاتجاه لم يجذب جميع القادة الأتراك ، حيث أنهم أدركوا الصعوبات الكبيرة التى سوف تواجه هذا الهجوم ، وأنهم لايريدون فتح جبهات جديدة للجيش التركى بعمليات مبكرة فى أفريقيا ، ولقد اعتقدوا بأن الأقاليم العربية من الدولة العثمانية لسوء الحظ عائق كبير ، وخاصة التوجه نحو إضافة الأقاليم العربية فى أفريقيا سوف تكون كارثة حقيقية ، ومهما أكد المختصون والذين يتحكمون فى السياسة العسكرية ، على أن العمليات الهجومية ضد مصر ، هى تشتيت للقوة العسكرية التركية ، ولكنهم أدركوا مع ذلك بأن السيطرة بالقوة فى هذا الاتجاه سوف يكون ذو ميزة لهم ولحلفائهم من الألمان ، والتجهيز للهجوم على قناة « السويس » ، كان قد بدأ قبل الاندلاع الحقيقى للحرب العالمية الأولى ، وتقدم جيش تركى من خمسة وعشرون ألفا من الرجال فى نهاية يناير ١٩١٥ ، ووصل القناة فى الثانى من فبراير ١٩١٥ ، ولكن بعد ثلاثة أيام قد صُدّ هذا الجيش التركى من قبل القوات البريطانية ، وكما سجل القائد جمال باشا ، فى مذاكراته أنه انسحب من أجل تفادى التدمير الكامل ، والحفاظ على هذه القوات من أجل استخدامهم حتى نهاية الحرب(١٥) .

نشطت الدوائر السياسية البريطانية بين العرب منذ إعلان الدولة العثمانية الحرب ، وكانت القاهرة إحدى تلك المراكز التى دارت فيها محادثات بريطانية

عربية وتساؤلات من جانب العرب وخاصة بين السوريين الذين استقروا أو نزحوا إلى مصر ، وكانت بلاد الشام أو سوريا الكبرى بما فيها لبنان تحت السيطرة العثمانية الكاملة عسكريًا وإداريًا إضافة إلى ما كانت تتمتع به لبنان بدرجة من الحكم الذاتى المحلى ، والمعروف أن العثمانين قبل إعلان الحرب قاموا بتحركات عسكرية فى سوريا ولبنان وفلسطين ولابد والحالة هذه أن يبدى قائد الجيش البريطانى فى مصر الجنرال سير « جون ماكسويل John Macswell » اهتمامًا بهذه المسألة ، لأنه إذا ما صدرت إليه الأوامر بالهجوم بجيشه على فلسطين وسوريا، لابد له أن يتعرف إلى شعور العرب هناك ودرجة ترحيبهم أو معاونتهم، وعليه فقد بعث ببرقية فى ١٩١٤/١١/٢٧ للورد « كتشنر » وزير الحربية الجديد والمندوب السامى الذى كان قبل أشهر معه فى القاهرة هذا فحوها(١٦) :

« هل لك أن تخبرنى بصفة شخصية عن هدف السياسة البريطانية النهائية فيما يختص بفلسطين وسوريا وعلاقتها بالحركة القومية العربية فالمسلمون يميلون بدرجة كبيرة لبريطانيا وكلهم ما عدا المارونيين ضد فرنسا ، وعليه فمن الضرورة بمكان أن نعرف الخط الذى نسير عليه لأن هناك الكثير مما تتناوله الألسنة حتى بين ضباط الجيش التركى ، ولكننى لا أود أن أصرح أو أقوم بعمل ما قد يفسر فيما بعد بأنه تنكر للوفاء بالعهد .

رد « كتنشر » على ذلك بعد يومين بقوله : « لا نستطيع أن نحدد فى الوقت الحاضر أى خط واضح ولكن إذا ما قدر لجنودنا الوصول إلى سوريا فالمأمول أن يلاقوا ترحيبًا حارًا من الأهالى ، وفى الوقت نفسه فعلى الأصدقاء امدادنا بمعلومات صحيحة عن تحركات الجيش التركى وقد علمت أن جمال باشا وزير البحرية السابق سيغادر أسطنبول فى طريقه إلى قيادة الجيش هناك للقيام بعمليات ضدك ، فإذا لم يكن حرسه كافيا فى مروره فى سوريا وفلسطين يحتمل القبض عليه وأخذه للساحل وهناك نلتقطه »(١٧) .

قبل وصول الجيش التركى إلى قناة السويس كان « ماكسويل » قد عرف المتاعب التى ستجرها فرنسا فى سوريا ، وعرف « كتشنر » أن الجيش العثمانى المحتشد فى سوريا وفلسطين تحت قائده الجديد جمال باشا سيكون هدفه غزو مصر ، ونلاحظ كان « كتشنر » يفكر ويأمل فى أن أصدقاء بريطانيا فى سوريا وفلسطين ربما ينجحون فى القبض على جمال باشا وتسليمه لهم فى الساحل لتلتقطه البحرية البريطانية ، وكيف أن « كتشنر » كان يبالغ إلى درجة كبيرة فى الترحيب والخدمات التى سيقدمها لهم أصدقاؤهم من السوريين وقد يرجع ذلك إلى موقف السوريين واللبنانيين المقيمين فى مصر حيث كانت لهم أجهزة إعلامية من الصحف والمجلات إضافة إلى من كانوا يعملون فى سلك الخدمة المدنية فى مصر والسودان تحت الإدارة البريطانية وأملهم أن يمتد الاحتلال البريطانى وإدارتها إلى سوريا ولبنان ولكن هل هؤلاء كان لهم تأثير فعال على السوريين وقادتهم المقيمين فى سوريا نفسها ، فقد أثبتت الأيام فيما بعد عكس ذلك(١٨) .

نقلت المخابرات العكسرية البريطانية فى المنطقة أنباء الحشود العثمانية فى سوريا وفلسطين ، ونقل لها قناصلها هناك النشاط العثمانى المتزايد على المستويات العسكرية والسياسية والدعائية وسط العرب هناك ، فلا بد والحالة هذه أن تبحث مختلف الاحتمالات فى حالة قيام الجيش العثمانى بغزو لمصر أو فى حالة حملة هجومية يقوم بها الجيش البريطانى من قواعده فى مصر ، وفى الحالة الثانية يجب أن تتعرف المخابرات على استعدادات العرب للترحيب بالجيش البريطانى أو الانحياز للأتراك ، وعليه فقد قدم مدير المخابرات البريطانى فى مصر بتاريخ ١٩١٥/١/٥ عن نواحى الموقف عسكريًا وسياسيا ، فالموقف العسكرى كما يبدو له آنذاك حسب البيانات التى تلقاها تشير على أن العثمانيين يبيتون النية لغزو مصر ، وهذا أمر يهم السلطات العسكرية التى لها خططها لمقاومته(١٩) ، أما فى حالة القيام بهجوم بريطانى على الجيش العثمانى فى سوريا فقد بين الطرق

المختلفة التى يمكن القيام بها ، وهذا أيضًا فى مناقشاته وتفصيلاته من اختصاص الجهات العسكرية ، ولكن المعلومات التى تجمعت للمخابرات فى الشهور القليلة الماضية تشير إلى أن قسمًا كبيرًا من أهالى سوريا وفلسطين سوف يرحب بالجيش البريطانى المحتل ، وحتى إذا ما كانت هناك مقاومة ما فإنها ستكون ضعيفة والاحتمال أن يقدم السكان عونهم ومساعدتهم ، وعلى العكس إذا ما كان الجيش المحتل فرنسيا أو روسيا فإن بعض الأوساط العربية هناك ستكون غير راضية، وإذا ما تم للجيش البريطانى النصر ، فالاحتلال يجب أن يكون دائمًا أو على الأقل إلى نهاية الحرب ، أما إذا كان غارة وقتية يعقبها انسحاب فسيتعرض الذين ساعدوا إلى انتقام الأتراك سيعاودون سيطرتهم واحتلالهم ، فهذه المسائل جديرة بالاهتمام إذا ما كان فى النية التحرك هجوميًا على سوريًا وفلسطين ، ويجب أن يكون هناك تفاهم مع حلفاء بريطانيا على السياسة التى يجب اتباعها فى سوريا فيما بعد وقبل القيام بالعمليات العسكرية(٢٠) .

نجد أن السفير البريطانى فى أسطنبول كان قد بعث ببرقية إلى وزير خارجيته فى ١٩١٤/٩/٢٠ جاء فيها : « مع أننى ما زلت لا أتخوف كثيرًا من احتمال القيام بأية أعمال هجومية من جانب العثمانيين على الحدود المصرية ، إلا أنه ينبغى ملاحظة أن ثمة إجراءات معينة قد اتخذت مؤخرًا ففى : « درعا » على خط الحجاز تم حشد عربات السكك الحديد كما توجد أعداد من الإبل فى «معان» وهناك المزيد من ضابط الجيش التركى متنكرين فى زى الأعراب جنوب « غزة » وفى « العقبة » ويتردد أنه سيتم قريبًا نقل قطعات من « حمص » إلى « دمشق »كما أرسل جزء من قطعات « الموصل » إلى « دير الزور » ، وتفيد التقارير الواردة من « دمشق » و« القدس » ، وأن الحكومة العثمانية تبذل المستحيل بهدف استمالة « الدروز » والبدو ، وهو نفس الهدف الذى يسعى إلى تحقيقه عملاء الألمان(٢١) .

يتابع السفير البريطانى قوله : « ولا يبدو من المحتمل أن يكون « للدروز » أى نفع ممكن سوى اتخاذهم موقفا غير معاد للأتراك بيد أنه من المحتمل حث قبائل البدو على القيام ببعض الهجمات المتفرقة على الحدود وذلك بدفع بعض المبالغ المالية لهم وإثارة مشاعرهم الدينية تحقيقًا لمكاسب شخصية ، وينكر رئيس الوزراء والوزراء بشدة وجود أية نيات عدوانية ضد مصر ، واعتقد أنهم مخلصون فى تأكيداتهم ، ولكنهم غالبًا ما يجهلون أوامر وزير الحربية ونياته وسوف ألفت نظرهم إلى هذه الحقائق »(٢٢) .

أرسل القائم بأعمال المعتمد البريطانى فى القاهرة إلى ويز خارجيته برقية فى ١٩١٤/٩/٢١ عن احتمال وقوع هجوم عثمانى على مصر بقوله : باستثناء ما يشاع عن تحركات القطعات من « حمص » و« الموصل » فإن المعلومات الواردة من الملحق العسكرى تعززها الأخبار التى تم تسلمها هنا ، وتستنتج إدارة المخابرات من جميع التقارير التى وصلت مؤخرًا أنه لم يكن هناك أى تراخ فى النشاط العسكرى فى سوريا وفلسطين ، وقد انحصر نشاط القوات فى مصر فى القيام بأعمال الدورية فى قناة السويس بسبب عبور القوات الهندية ، ومع ذلك فقد أبلغنى القائد العام أنه إذا استمر الأتراك فى استعداداتهم فإنه قد يفكر فى ضرورة وضع دوريات فى سيناء ودعم مواقعنا فى شبه الجزيرة وهو يعتقد أنه يجب تحذير الحكومة العثمانية من أننا قد نتخذ إجراءات تكفل حماية حدودنا(٢٣) .

وسيرصد العثمانيون فى الحال أى تقدم لقواتنا فى سيناء واعتقد أن وزير الحربية قد يعتبره هجومًا أو قد يصوره له مستشاره على أنه عمل استفزازى ولو كان الأمر كذلك يبدو أنه يتعين التفكير فى نوعية العمل العسكرى هنا(٢٤) .

بعث السفير البريطانى فى أسطنبول إلى وزير خارجيته فى لندن بتاريخ ١٩١٤/١٠/٦ برقية عن تقرير الملحق العسكرى جاء فيها : « التقيت أمس بوزير

الحربية فى مقابلة استغرقت وقتا طويلاً نوعا ما ، وقد أنكر أية نية لدى الأتراك للقيام بهجوم على مصر وأوضح أنه قد أجريت تعزيزات عادية لحامية عسكرية سورية مكونة من فيلق واحد ببعض القوات الأخرى ، وقد تمت تعبئة كاملة لهذا الفيلق أسوة بغيره من الفيالق فى الدولة العثمانية وتم تدريبه بعناية بمساعدة ضباط البعثة الألمانية كما حدث فى غيره ، كما تم تزويده بدواب النقل وغير ذلك على مستوى المعركة ، بيد أنه قال أنه يحتمل أن يصدر الأمر له أخيرًا بالتحرك فى أى اتجاه حتى إلى « أسطنبول » وذلك كله متوقف على الموقف السياسى الذى لا يعتبر نفسه مسؤولاً عنه بصفة شخصية ، وبرر تكديس الذخيرة فى « معان » و« نابلس » و« القدس » باعتبارها مواقع فى نطاق محيط التعبئة ، وأضاف بأنه لم يتم تحريك قوات فى اتجاه غزة باستثناء قوات الدرك ومن المؤكد أنه قد تم تقديم مقترحات لقبائل البدوكى يحشدوا مشاعر تعاطفهم باعتبارهم مؤيدين للدولة العثمانية فى جميع الاحتمالات ، وسخر من فكرة أن أفرادًا من الألمان يقومون بمغامرات طائشة ضد « القناة » أو أية منطقة أخرى . ومن ناحية أخرى فقد أقر باتخاذ الإجرءات الاحتياطية فى مواجهة بريطانيا(٢٥) .

أشار وزير الحربية العثمانى إلى وصول قوات هندية إلى مصر وتواجد أسطولنا فى المياه الإقليمية خارج المضايق مرة أخرى وإلى دخول جنودنا إلى شط العرب ، فشرحت له أن من السخف الاعتقاد بأن وصول القوات الهندية معناه اتخاذ موقف عدائى ضد تركيا ، أما عن تحركات الأسطول والسفن فإن ذلك كان بسبب ما قامت به تركيا من انتهاكات وأنه ليست لدى البريطانيين أية نية لشن هجوم على الدولة العثمانية ، وكان وزير الحربية بطبيعة الحال مسلمًا بحجج مفادها أن الدولة العثمانية قد التزمت بالحياد وأنه كان هناك العديد من الضباط والأفراد الألمان والسفن المعاونة فى الجيش العثمانى وأنهم كانوا خاضعين تمامًا

للإدارة العثمانية ، وبهذا دارت مناقشات بيننا فيما يشبه الحلقة ، ومع ذلك فقد قلت له أنه إذا ما تم حشد القوات تحت أى ظرف إلى الجنوب من « معان » من ناحية ، أو « القدس » و« بئر السبع » من ناحية أخرى فإنه لن يسعنا سوى أن ننظر إلى هذا الأمر ببالغ القلق . وأنني شخصيًا أرى أن وزير الحربية يعتبر روسيا دولة معادية ويجب الاحتراس منها بيد أنه لديه هو أيضًا أطماعًا فى الأقاليم العربية الأخرى ومصر ، وقد تكون هذه أكثر تعلقًا بالمستقبل ، إلا إذا وجدنا أنفسنا فى موقف صعب فى الحرب الدائرة حاليًا ونتخذ الآن الإجراءات الكفيلة بمواجهة مثل هذا الاحتمال وفى الوقت نفسه يجرى تمهيد الطريق بشكل غير مباشر لما يتعلق بالحاضر والمستقبل(٢٧) .

أرسل القائم بأعمال المعتمد البريطانى فى القاهرة برقية إلى وزير خارجيته فى لندن بتاريخ ١٩١٤/١٠/١٧ يقول فيها : « وصل إلى مصر مؤخرًا سوريان مسلمان محترمان لهما علاقات مع شرقى فلسطين بما فيه المناطق الواقعة بين « العقبة » و« معان » واتصلا بدائرة الاستخبارات واحدهما شيخ بدوى ذو نفوذ، وأنهما يؤكدان جميع المعلومات المتعلقة بالاستعدادات العسكرية فى سوريا وقد أبديا أن الاعتقاد السائد بين البدو بصورة عامة هو أن هجومًا قريبًا سيقع على مصر فى وقت قريب ، وكان الشيخ حاضرًا اجتماعًا للشيوخ عقده قبل ثلاثة أشهر عبد الرحمن باشا اليوسف الذى حثهم على تأييد الدولة العثمانية ، ولقد وافق البدو على ذلك ولكن الكثيرين منهم كانوا يخشون منهم إنزالاً من مصر ، ولم يكونوا متحمسين لحركة القيام بهجوم على مصر ، وقد ألمح الشيخ إلى أن حضورهم الاجتماع يمكن أن يقضى على ولائهم للدولة(٢٧) .

قيل له أن بريطانيا ليست فى حالة حرب مع الدولة العثمانية . وأنها لاتستيطع استخدام الوسائل المشار إليها ، ولكن كان من المرغوب فيه أن يعرف

السوريون والبدو والعرب حقائق الوضع وقد شرحت له ووعد الشيخ بإذاعة هذه المعلومات ، نظرًا لمحاولات الوكلاء الألمان والأتراك لإثارة المشاعر الدينية ضد بريطانيا ، قد يكون من المرغوب فيه إعطاء نوع من الإشارة إلى الشيوخ الحاكمين فى الجزيرة العربية ، أمثال ابن رشيد ، والإدريسى ، بشأن موقف الحكومة البريطانية فى حالة وقوع هجوم من جانب الدولة العثمانية ، وقد قيل لى أن العرب خائفون من أزمة تركية وقلقون تجاه نيات بريطانية ، ولذلك فإن مجرد الإعراب عن شيء من الصداقة نحوهم سيكون من شأنه مقاومة الضغط الذى يمارس عليهم ، إن نوعية الشعور السائد فى الجزيرة العربية ، سيكون له تأثير كبير على العرب فى مصر وأتباع السنوسى(٢٨) .

نلاحظ من تلك الرسائل والبرقيات ، بأن البعثات الرسمية والدبلوماسية والقناصل البريطانية ودوائر استخباراتها ، فى الدولة العثمانية كانت تعمل كخلية النحل ، لجمع المعلومات اللازمة وخاصة عن التحركات العسكرية لقطعات الجيش ، وخاصة تجاه الحدود المصرية والعراق والحجاز ، وتضع تصورات وتقدم تحليلات وترسلها إلى المركز فى لندن ، حيث يتم فى ضوئها وضع الاستعدادات والخطط اللازمة لتفادى أى مفاجئة غير متوقعة . وكما يتضح من رسائل ومعلومات البريطانيين ، أنه لم يكن هناك نية للهجوم على مصر عند القيادة التركية برغم التحركات والاستعدادات ، ولكن يبدوا أن السياسة العسكرية الألمانية مارست نوع من الضغط على القادة الأتراك بدفع قواتهم للهجوم على قناة السويس دون أن يتم إعداد سابق وقوات كافية وجمع المعلومات اللازمة عن الدفاعات البريطانية ولهذا كان الفشل والإخفاق .

الهجوم البريطانى فى العراق وفلسطين :

جاء فى تقرير لجنة الدفاع الأمبريالى عن الوضع فى العراق والشام بأنه لقد أصبحت « ميسوبتاميا Mesopotamia » (بلاد الرافدين العراق والشام) الآن

مسرحًا للحرب والتى زادت من المتطلبات والالتزمات المتزايدة والملحة من المصادر العسكرية العثمانية ، وكذلك حماية المصالح الألمانية التى أصبحت فى خطر أيضًا ، فى الوقت الذى كانت بغداد منطقة جذب قوية لقوات الحملة البريطانية فى « ميسوبتاميا » الجنوبية ، كما كانت تلك المدينة تتمتع بشهرة خاصة وهامة ومشهورة فى كافة أنحاء الشرق ومتصلة أيضًا بكل تلك الطموحات الألمانية المجسدة فى السكك الحديدية الخاصة « ببغداد » ، ولقد سيطرت هذه المدينة على كل الطرق الرئيسية من المنطقة العثمانية حتى غرب فارس ، وإذا ما نجحت القوات البريطانية فى احتلال بغداد وأصبحت تحت سيطرتها ، فسوف تكون ذات قيمة كبيرة وأهمية استراتيجية بعد نهاية الحرب عندما يأتى وقت السلام وإعادة رسم الحدود بوضوح ، ولهذا فإن احتلال بغداد سوف يكون له مميزات سياسة وعسكرية ذات قيمة مقدرة وكبيرة فيما بعد .

بدأ التقدم البريطانى الأول فى بغداد فى الحادى عشر من نوفمبر عام ١٩١٥ ، وكانت المصالح العثمانية والألمانية معرضة للخطر ومن بينها السيطرة على الطرق الرئيسية فى غرب إيران ، ولكن وصول الإمدادات العسكرية للقوات العثمانية بعد النجاح الذى تحقق فى « الدردنيل » ، والتوجه إلى « ميسوبتاميا » والانتصار الصعب فى مدينة « كتسيتفون » فى ٢٥ نوفمبر ١٩١٥ والتوجه إلى بغداد ، أدى إلى الاندحار والتراجع والانسحاب إلى كوت العمارةKut- el- Amara، ولكن أظهر أن قوة الحملة كانت غير كافية للسيطرة على بغداد تحت ظروف غير عادية و لم تكن موجودة(٣٠) .

وكان القائد العام للقوات البريطانية المسلحة فى الهند قد بعث ببرقية فى ١٩/١/١٩١٥ إلى وزارة الحرب فى لندن يقول فيها : « بأنه وصلتنا معلومات

من البصرة تشير إلى قسم كبير من الفرقة (١٢) ربما يكون قد وصل إلى منطقة «العزيز» ، وأن قوة العدو (الدولة العثمانية أو الجيش العثمانى) قرب منطقة «الروطة» تبلغ حوالى ١٠,٠٠٠ مع عدة مدافع بما فيها مدفعان ألمانيان وأن البواخر تنقل مزيدًا من القوات من بغداد(٣١) .

أخبرنا الكابتن « شكسبير » الضابط والخبير البريطانى الذى لدى ابن سعود، أن الخطة العثمانية الأصلية هى كما يلى : ابن سعود كان يدافع عن «البصرة» ويقوم بهجوم خادع لعرقلة تقدم بريطانى ، أما ابن رشيد وقبائل نجد تتقدم نحو شبه جزيرة سيناء ومصر بالاتصال مع القبائل الغربية ، وشريف مكة و الإمام يحيى يدافعون عن اليمن والحجاز والأماكن المقدسة ، وقد أفسدت هذه الخطة العثمانية قرار ابن سعود وشريف مكة وقبائل نجد على البقاء مع بعضهم ، وانضمام الأخيرين إلى ابن سعود ضد ابن رشيد ، الذى لا يستطيع التقدم نحو مصر بعد مهاجمته بهذه الصورة(٣٢) .

بعث وزير المستعمرات البريطانى برقية إلى الموظف المسؤول عن إدارة حكومة قبرص فى الأول من يناير ١٩١٥ قال فيها أن المسيحيون المارونيون فى لبنان يزدون بالأسلحة من قبل الحكومة اليونانية لمقاومة الهجمات التركية(٣٣) ، وقد اقترح أن ترسل الأسلحة إلى قبرص ومنها تنقل إلى لبنان وسوريا على زوارق شراعية صغيرة ، اتصلوا بصورة سرية مع الوزير المفوض البريطانى فى « أثينا » لغرض تدبير التسهيلات الضرورية لمرور هذه الأسلحة عبر قبرص(٣٤) وعن الأوضاع فى اسطنبول أبرق الوزير المفوض البريطانى إلى وزير خارجيته فى ١٩١٥/١/٤ جاء فيها : « أنه يقول الوزير المفوض اليونانى فى اسطنبول أنه منذ

مغادرة أنور باشا ، أصبح طلعت باشا أقوى شخصية وأنه يدير وزارات الداخلية والمالية والحربية والبحرية ، ويسنده رئيس مجلس المبعوثان ، وأجرى مقابلة طويلة مع السفير الألمانى تأكد خلالها اتفاق السياستين الألمانية والعثمانية(٣٥) ولكن الاستياء من الحزب الحاكم ومن الضباط الألمان فى ازدياد ، وأن السفير الإيطالى نبه السفير الألمانى بصورة جدية إلى احتمال ظهور الاضطرابات فى اسطنبول وإلى مسؤولية ألمانيا عن الخطر الذى يهدد الأجانب(٣٦) .

يتضح من تلك الرسائل والبرقيات ، كيف كان البريطانيون يتحركون فى جميع الجبهات لمقاومة العثمانيين ولمعرفة مجريات الأمور داخل الدولة العثمانية وخاصة فى اسطنبول ، وتسهيل تقديم المساعدات للمسيحيين المارونيين عن طريق اليونانيين عبر جزيرة « قبرص » التى كانت تحت الاحتلال البريطانى ، إضافة إلى اتصالات البريطانيين بشيوخ وزعماء القبائل فى شرق ووسط الجزيرة العربية ووقعوا اتفاقية الحماية مع ابن سعود عام ١٩١٥ ، كما نجحوا فى إفشال هجوم ابن سعود على القوات البريطانية فى العراق ، وإن كسب الأخير إلى جانب بريطانيا أدى إلى تجميد قوات ابن رشيد حليف العثمانيين من مقاومة ومحاربة قوات الاحتلال البريطانى فى البصرة ، وبعد ذلك جرت معركة كبيرة فى « كوت العمارة » بعد ما كان البريطانيون قد خسروها فى بداية الحرب ثم نجحوا بعدها وحول ذلك يقول تقرير لجنة الدفاع الامبريالى :

استمر حصار كوت العمارة من السابع من ديسمبر من عام ١٩١٥ حتى التاسع والعشرون من إبريل من عام ١٩١٦ ، عندما سيطرت القوات البريطانية على مجريات الأمور ، وبالنسبة للحكومة العثمانية أصبحت المنطقة مثل كرة الحرب لا يمكن تجاهلها أو حفظها ضمن الحدود الضيقة ، وبعد أن سقطت كوت العمارة ، كانت التقديرات البريطانية ناجحة وصحيحة فى حساباتها نحو الشرق ،

فى حين تزايدت الجهود التركية والألمانية الجادة من بغداد تجاه إيران ومنها إلى الهند، وأن تجمع القوات التركية شكلت عقبة كبيرة للجهود العسكرية البريطانية للسيطرة على بغداد ، وخاصة بعدما فشلت حملة القوات العسكرية للحلفاء فى منطقة " غاليبولى " والتى كانت تشكل تهديدًا فى قلب الدولة العثمانية ، وبذلك أصبحت منطقة " ميسوبتاميا " (الرافادين) هى أرض المعركة الحقيقية ، حيث كان التعارض بين المصالح الغربية وبين أهداف القوات العسكرية المتحاربة فى الميدان قد وصلت إلى وضع التصالح والتسوية ، والهدوء الذى يسبق العاصفة ، فقد أصبحت السيادة العثمانية فى العراق عرضة للخطر والزوال كما توقفت آمال الأتراك بالتوسع على حساب إيران ، كما تعرضت الطموحات الألمانية للانتكاسة وخاصة سيطرتهم التى كانت تعتمد على السكك الحديدية فى بغداد ، كما ضعفت فرصتهم لخلق صعوبات أو مشاكل لبريطانيا فى إيران والهند(٣٧) .

بدت بغداد آمنة بعد سقوط " كوت العمارة " فى نهاية إبريل ١٩١٦ ، وفى ١٦ / ٥/ ١٩١٦ أبرمت اتفاقية " سايكس - بيكو " بين بريطانيا وفرنسا مع روسيا كطرف مصالح . ولقد جسدت هذه الاتفاقية تسوية رغبات دول الحلفاء فى تقسيم الدولة العثمانية ، يجدر الإشارة هنا أنه لبريطانيا مطالب محددة لحماية مصالحها الكبيرة وذلك بإقامة حزام واسع من المنطقة ، يمتد من الخليج العربى والحدود الإيرانية إلى البحر المتوسط متضمنًا " البصرة " و" بغداد " . بينما كانت آمال الدولة العثمانية قوية فى استرجاع سيطرتها فى الأجزاء الجنوبية من "ميسوبتاميا" (الرافدين) وغرب إيران ، قام شريف مكة بثورته فى ٥ يونيو ١٩١٦ ضد الأتراك ، ففى البداية كانت الثورة العربية بقيادة الشريف حسين روحية وسياسية فى تأثيرها ، وبعد ذلك أصبحت ذات أهمية عسكرية كبيرة ، كما أن نتائجها السياسية الأخيرة بالغ الأهمية فى المنطقة الممتدة بين إيران ومصر ، وقد أثر ذلك على السياسة البريطانية حتى يومنا هذا(٣٨) .

انتهت فترة الراحة التى قضاها العثمانيون فى " ميسوبتاميا " بعد سقوط " كوت العمارة " فى إبريل ١٩١٦ ، وقد استفادوا منها من أجل الهجوم على إيران انتهى فى يناير ١٩١٧ ، وكانت التجهيزات والاستعدادات العسكرية البريطانية قد اكتملت ، وبدأ تقدم آخر تجاه بغداد فى اليوم الثانى من هذا الشهر ، وبدأت معركة كوت العمارة فى التاسع من يناير ، بعد قتال مطول تمت السيطرة على المدينة فى الثالث والعشرين من فبراير ، وسقطت بغداد فى الحادى عشر من مارس(٣٩)

أصبحت القوات البريطانية مع نهاية مايو ١٩١٧ تحارب الجيش العثمانى على جبهة " ميسوبتاميا " والجبهة الفلسطينية ، وكانت الأهداف العسكرية العثمانية بتوجيه حملة إلى مصر قد انتهت منذ الإخفاق العسكرى فى رومانيا فى أغسطس ١٩١٦ ، وقام البريطانيون مع نهاية عام ١٩١٦ يفكرون فى احتلال شمال فلسطين ، وبعد الهزائم التى لحقت بالقوات البريطانية فى غزة فى شهر مارس وإبريل من عام ١٩١٧ ، وبعد أن تم تعيين الجنرال اللنبى قائدًا عامًا لقوات الحملة على فلسطين فى يونيو حدث تغير كبير فى الجبهة البريطانية حيث كانت هناك استعدادات دفاعية بريطانية كبرى انقلبت إلى إعداد هجوم كبير ضد الجيش العثمانى ، وأصبحت هذه الجبهة تمثل لتركيا جبهة خطيرة جدًا ، وذات أقصى إمكانيات ممكنة . ومع صيف ١٩١٧ بدأ تصميم السياسة العسكرية التركية فى استعادة مواقعها التى خسرتها فى بغداد وفلسطين ، وكان لدى " اينفر " باشا طموح لاسترجاع بغداد ، لقد كان هذا المشروع يمثل بحق طموحاته الشخصية وكذلك جميع طموحات القيادة التركية ، والتى تتمثل فى إيجاد طريق إلى الخليج العربى وتتفق ذلك مع الأمنيات الألمانية فى غرب إيران ، وفى حفظ المخطط العسكرى للدخول إلى الخليج العربى . وبدون معارضة من القادة العسكريون

الذين يرون عاصفة على وشك الانفجار فى فلسطين ، فى حين كـان هنـاك قـادة آخرون يرون الاهتمام بجبهة " القوقاز " ، ولهذا قرر " اينفر " باشا القيـام بهجـوم على بغداد ، وكانت الجبهة الفلسطينية لقوات الاحتلال البريطـانى قويـة بالدرجـة الكافية واللازمـة للدفـاع عنهـا ، ويمكـن أن يـترك العثمـانيون قـوات الـروس فـى القوقاز " فى الوقت الحالى للتأثيرات المربكة تعمل عليهـم وتؤثـر فيهـم ، للإضـرار بالجبهات الأخرى(٤٠) .

بدأت الاستعدادات لتجميع مجموعات من الجيـوش العثمانيـة لقذفهـا ضـد بغداد ، وقد عين " الجنرال فـون فالكينهـاين General Von Falkenhayn " بواسـطة الألمان لقيادة هـذه الحملـة . بـدأ تجميـع جيـش " يولدريـم " لإرسـاله إلى بغـداد ، وعندما درس الجنرال " فون فالكينهاين " الموقف العسكرى على الجبهتين وجد أن التهديد من فلسطين مزعج ويشكل خطـر حقيقـى ، قـرر أن لا يتـم الهجـوم علـى الجبهة العراقية نحو بغداد حتى يتم دحر القـوات البريطانيـة فـى فلسـطين وجعلهـم ينسـحبون إلى قنـاة السـويس ، ولقـد بحـث كيفيـة تحقيـق ذلـك ووضـع الخطــط العسكرية لها ، وفى بداية سبتمبر تحول " اينفر باشا " إلى فكرة نـون فالكينهـاين " ووجهة نظره بضرورة الهجوم على فلسـطين قبـل محاولـة الاسـتيلاء علـى بغـداد ، ولكن " فون فالكينهاين " لم يعطى له فرصـة لتنفيـذ خططـه ، وبـدأ تقـدم الجيـش البريطانى فى نهاية اكتوبر ، وفى ديسمبر دخل الجـنرال " اللبنـى " وقـام بـاحتلال القـدس ، وخـلال صيـف وخريـف عـام ١٩١٧ ، تقـدم الجيـش البريطـانى فـى " ميسوبتاميا " (الرافدين) ناحية الشمال والغرب من بغداد ، وسيطر علـى الوضـع بدرجة أقوى مما كان من قبل . والغزو والاحتلال البريطـانى السـريع مـن جنـوب فلسطين حتى القدس ، دمـر الخطـط العسـكرية التركيـة - الألمانيـة ، لافـى جبهـة فلسطين و" ميسوبتاميا " بل دمر أيضًا جميع آمال الأتراك والألمان التى تركزت فـى

استعادة بغداد ، وبدلاً من أن تكسب الجيوش التركية الأراضى التى فقدتها أصبحت تعمل من أجل إيجاد دفاعات وتحصينات قوية لحماية تواجدها فى حين بدأت ألمانيا تعمل فى إيجاد طريق جديد من أجل الوصول إلى الشرق من البحر الأسود والقوقاز(٤١) .

أصبحت نهاية مشاركة الأتراك فى الحرب العالمية الأولى واضحة بعد معركة " مجدو Megiddo " فى فلسطين والتى انتهت بتاريخ ٢٥ سبتمبر بتدمير الجيش العثمانى ، ومع بداية أكتوبر كانت دمشق فى أيدى العرب والبريطانيين ، كما وقعت بلغاريا اتفاقية " اينتينت Entente " فى الثلاثين من سبتمبر ، وبالتالى كشفت اسطنبول والجناح التركى فى أوربا ، أما فى سوريا فقد قامت القوات البريطانية باحتلال مدينة " حلب " وقطعت خطوط السكك الحديدية التركية مع ميسوبتاميا (الرافدين) فى الثامن والعشرين من أكتوبر ، وفى العراق استمر تقدم القوات البريطانية حتى وصلت إلى مدينة " الموصل " ، ودارت معركة فى منطقة « شرجات Shargat » فى الثالث والعشرين من أكتوبر ، واستسلام الجيش التركى فى « تيجريس Tigris » فى الثلاثين من أكتوبر ، وبذلك خسرت الدولة العثمانية الحرب بالفعل كما خسرت جميع أقاليمها العربية ، أما بالنسبة لسكك حديد بغداد فإنها كانت تمثل حلم طريق الألمان فى الوصول إلى الخليج العربى ، وكان هذا هو هدف المجهود والسياسة الألمانية على مدار عشرين عامًا تقريبًا ، ولم يتحقق لهم شيئًا إلا كلمات انتشرت عن هذا الموضوع(٤٢) .

عندما رأى الألمان بأن الجيش البريطانى فى العراق قد جعل من بغداد هدفًا له ، فأصبحت الحاجة لمنع الاحتلال البريطانى للمنطقة ، والتى من خلالها يكون الممر إلى الخليج العربى من أهم متطلبات السياسة الألمانية ، وكلما كان احتمال الحصول على النصر الألمانى فى أوروبا بعيد المنال ، كلما أصبح الأمر مقلقًا

بالنسبة لاسترجاع بغداد ، وإذا انتهت الحرب بفرض السلام ولو لفترة قصيرة ، فقد كان واضحًا أن مصير الممر إلى الخليج العربى يجب أن يعود إلى الموقف العسكرى الذى كان موجود فى العراق قبل توقف القتال ، وإذا وقعت بغداد عندئذ فى أيدى العثمانيين ، وتحدد الاحتلال البريطانى فى منطقة البصرة ، ربما يمكن تأمين المنفذ إلى الممر المائى فى الخليج العربى فى هذه الحالة ، وكان على النقيض من ذلك هو استيلاء بريطانيا على بغداد وتقدموا باحتلالهم تجاه الشمال فأن الأمل فى الممر نحو الخليج العربى سوف يفقد إلى الأبد ، وأن استرجاع بغداد بعدما احتلتها القوات البريطانية يصبح أهم ما يشغل الألمان ، لذا كانت محاولة سيطرة « اينفر » باشا على المدينة فى واقع الأمر سيطرة مرسلة إليه عن طريق دفع الألمان لهم بالتمويل المالى له ، وبهذه الطريقة كان للدفاع عن السكك الحديدية ومستقبل تأثيرها عميقًا فى مسار الحرب العالمية الأولى فى الدولة العثمانية ، ومن هنا يجب القول أن الحملة البريطانية من الخليج العربى لم تحدد فقط مصير الممر الألمانى إلى الشرق ، ولكن أيضًا حدد من المجهود العسكرى التركى من فلسطين وتجاه " القوقاز " ووسط آسيا(٤٣) .

الخلاصة :

يتضح من دراستنا السابقة من خلال الملخص التاريخى للجنة الدفاع الأمبريالى عن منطقة العراق والشام ما يلى :

١ - أهمية السكك الحديدية لكل من ألمانيا وبريطانيا والدولة العثمانية .

٢ - أهمية الممر المائى فى الخليج العربى وخاصة لألمانيا ، التى بذلت سياستها للوصول إليه أكثر من عشرين عامًا . أما بالنسبة لبريطانيا فلا تقل أهميتها وإذا ما عرفنا أنها عن طريق تجمع قواتها فى البحرين ، استطاعت إنزال

قواتها فى شط العرب واحتلال البصرة التى تجاور جزيرة عبادان حيث تتجمع فيه أنابيب النفط البريطانى من عربستان ، والبصرة ضرورية لحماية تلك المصالح النفطية البريطانية .

٣ - أهمية بغداد لكل من بريطانيا وألمانيا نظرًا لموقعها القريب من إيران ومن الخليج العربى وملتقى الطرق والسكك الحديدية وأهم مدن الشرق فى تلك الفترة ، ولهذا اتجهت السياسة البريطانية والألمانية فى الاحتفاظ على بغداد .

٤ - توجه السياسة العثمانية إلى القوقاز وإيران أكثر من توجهها نحو الأقاليم العربية فى بداية الحرب . لإيجاد دولة قومية تركية .

٥ - توجه السياسة الألمانية إلى احتلال قناة السويس منذ بداية الحرب العالمية نظرًا لأهميتها وهذا ما ثبت فيما بعد .

٦ - توجه السياسة البريطانية إلى احتلال البصرة ثم بغداد من جهة الشرق ، والقدس ودمشق مں جهة الغرب ، أى فتح جبهتين من الخليج العربى ومصر.

٧ - بعد وقوع بغداد وفلسطين تحت الاحتلال البريطانى ، كان الهدف الألمانى هو ضرب البريطانيين فى فلسطين وجعلهم ينسحبون إلى قناة السويس ، ثم استرجاع بغداد ، ولكن بعد تعزيز البريطانيين لمواقعهم واستسلام الألمان بالأمر الواقع فى حين أصبح الأتراك يحصنون مواقعهم فى الأناضول .

٨ - عدم اعتماد البريطانيين على المقاتلين العسكريين من العرب وخاصة من ضباط الجيش العراقى العثمانى ، ورفضهم تكوين جيش عربى رسمى أو تدريبهم وتجهيزهم بالأسلحة الثقيلة ، خوفًا من تزايد شأنهم وبالتالى صعوبة بقاء الاحتلال البريطانى للمنطقة ، ولهذا كان الاعتماد على القوات البريطانية والهندية إلى جانب بعض الجنود العرب ضمن الجيش البريطانى .

الهوامش

(١) د. جمال زكريا قاسم - دراسة لتاريخ الإمارات العربية ١٩١٤ - ١٩٤٥ - دار الفكر العربى - القاهرة ، ١٩٧٣ ، ص٣ .

(٢) د. جمال زكريا قاسم - نفس المرجع ص٣ .

(٣) د. صلاح العقاد : التيارات السياسية فى الخليج العربى - مكتبة الأنجلو المصرية - القاهرة ١٩٩١ - ص٢١٣ .

(٤) د. جمال زكريا قاسم - المرجع السابق ، ص٣ .

(٥) د. صلاح العقاد - المرجع السابق ، ص٢١٤ .

(6) F.O. 371/2104

مقابلة بين السفير البريطانى فى اسطنبول ومهدى بك نائب كربلاء-يوم ٢٥ سبتمبر ١٩١٤.

(7) F.O. 371/2143. تقرير من القنصلية البريطانية فى بيروت فى ١٥ ستمبر ١٩١٤ .

(8) F.O. 371/2143/ Ibid

(9) F.O. 371/2143/ Ibid .

(10) F.O. 371/214

برقية بعث بها مستر شيتام القائم بأعمال المعتمد البريطانى فى القاهرة إلى الخارجية البريطانية يوم ١٣ نوفمبر ١٩١٤ .

(11) F.O. 371/2143/ Ibid .

(١٢) أليكس فاسيليف - تاريخ العربية السعودية - شركة المطبوعات للتوزيع والنشر - بيروت ١٩٩٥ ، ص٣٥ .

(13) Committee of Imperial Defence, this Document is the Proparty of his Britanic Majesty's Government - Printed for the Committee of Imperial Defence - October 1928 - Confidential -P.G.13 - Historical Summary of Events in Territories of the Ottoman Empire - Arabia - Afiecting the British Position in the Arabian Gulf. 1907 1928 - No: 18211 - Chapter (4) the Ottoman Empire P. 12

(14) Committee of Imperial Defence - Ibid. P. 12

(15) Committee of Imperial Defence - Ibid. P. 12 .

(16) F.O.371/2139

رسالة من قائد الجيش البريطانى فى مصر سيرجون ماكسـويل John Maxsweel إلى وزير الحربية البريطانية « كتشنر » فى لندن بتاريخ ٢٧ نوفمبر ١٩١٤ .

(17) F. O. 371/2139 - Ibid .

(18) F. O. 371/2139 - Ibid .

(19) F. O. 371/2480.

تقرير من مدير المخـابرات البريطـانى فـى مصـر يـوم ٥ ينـاير ١٩١٥ عـن نواحـى الموقـف عسكريًا وسياسيًا .

(20) F. O. 371/480 - Ibid .

(21) F. O. 371/1971 - (51242) -

رقم ٨١١ - برقية من السير ل . مالبت السفير البريطـانى فـى اسـطنبول إلى السـير إدوارد غرى - وزير الخارجية البريطانية - لندن ، بتاريخ ٢٠ سبتمبر ١٩١٤ ، يقول فيهـا أنـه لا يتخوف كثيرًا من هجوم عثمانى على الحدود المصرية .

(22) F. O. 371/1971 - (51242) Ibid

(23) F. O. 371/ 1971 -

رقم ١٦٨ - برقية من المستر تشيثام - القائم - بأعمال المعتمد البريطـانى فـى القـاهرة إلى السـير إدوارد غـرى - وزيـر الخارجيـة البريطانيـة ، بتـاريخ ٢١ سـبتمبر ١٩١٤ ، حـــول احتمالات هجوم تركى على مصر.

(24) F. O. 371/1971 - Ibid .

(25) (F.O.371/1671 - (56616) -

رقم ٦٣٨ - برقية من السير ل . تاليت السفير البريطـانى فـى اسـطنبول إلى السـير إدوارد غرى وزير الخارجية ، بتاريخ ٦ أكتوبر ١٩١٤ . تتضمن معلومات من الملحـق العسـكرى عن مقابلة له مع وزير الحربية العثمانى أنكر خلالها أية نية لدى الأتراك للهجوم على مصر.

(26) F. O. 371/1971 - (56616) Ibid

(27) F.O. 371/2140 - (60661)

سرى - رقم ٢٠٢ - من المستر نشيثام القائم بأعمال المعتمد البريطانى فى القاهرة إلى السير إدوارد غرى - وزير الخارجية ، بتاريخ ١٧ أكتوبر ١٩١٤ ، حول وصول شخصيتين سوريتين إلى القاهررة واتصالهما بدائرة الاستخبارات وتزويدها إياها بمعلومات عن الوضع فى المنطقة .

(28) F. O. 371/2140 - (60661) Ibid

(29) Committee of Imperial Defence - OP. Cit. P. 14.

(30) Committee of Imperial Defence - OP Cit. P 14.

(31) F.O. 371/2479 - (11837)

سرى - رقم S. 13161.22 برقية من القائد العام للقوات البريطانية المسلحة فى الهند إلى وزارة الحرب البريطانية فى لندن - بتاريخ ١٩ يناير ١٩١٥ .

(32) F. O. 371/2479 - (11837).

(33) F.O. 371/2479 - (1820)

برقية من وزير المستعمرات البريطانية إلى الموظف المسئول عن إدراة حكومة قبرص - بتاريخ الأول من يناير ١٩١٥ ، حول تزويد المارونيين فى لبنان بالأسلحة من قبل الحكومة اليونانية يطلب تسهيل مرورها عبر قبرص .

(34) F. O. 371/2479 - (1820) Ibid

(35) F.O.371/2479 - (1303)

سرى - برقية من السير ف . اليوت الوزير المفوض البريطانى فى أثينا - إلى السير إدوارد غرى - وزير الخارجية البريطانية - بتاريخ ٤ يناير ١٩١٥ ، حول الوضع السائد فى الدولة العثمانية منذ مغادرة أنور باشا والاستياء من الحزب الحاكم والألمان فى أسطنبول .

(36) F. O. 371/2479 - (1303) Ibid .

(37) Committee of Imperial Defence - OP Cit. P. 14.

(38) Committee of Imperial Defence - OP.Cit. P. 15.

(39) Committee of Imperial Defence - OP. Cit. P. 15.

(40) Committee of Imperial Defence - OP. Cit. P 16.

(41) Committee of Imperial Defence - OP. Cit. P 19.

(42) Committee of Imperial Defence - OP. Cit. P 19.

المصادر المصرية لتاريخ الكويت

فى القرن العشرين

د. محمد عفيفى

كلية الآداب - جامعة القاهرة

تهدف هذه الدراسة إلى إبراز مدى إمكانية الاستفادة من المصادر التاريخية لبلد ما فى كتابة تاريخ بلد آخر . وعادة ما تأتى مثل هذه الدراسات فى إطار دراسة تاريخ حركة الاستعمار أو البلاد التابعة ، أو حتى محط النفوذ والصراع الدولى . من هنا قد يكون منطقيًا ظهور دراسات عديدة حول المصادر البريطانية لتاريخ الكويت ، أو حتى المصادر العثمانية أو الروسية وغيرها . فما هو الجديد الذى تقدمه دراستنا هنا ، لاسيما أنه لم تكن هناك مصالح حيوية مشتركة بين البلدين ، مصر والكويت ، أو حتى علاقات دبلوماسية طيلة الشطر الأكبر من القرن العشرين .

إن دراستنا تؤكد على أهمية الاستفادة من مصادر أخرى لا ترتبط برباط التبعية أو الهيمنة . وهى مصادر كما سنراها تعتبر محايدة إلى حد كبير ، وموضوعية أيضا ، نتيجة غياب عامل المصلحة . لكن المصادر التاريخية تتكون نتيجة اهتمامات لبلد ما أو للرأى العام فى هذا البلد بما يقع فى بلد آخر ، لاسيما فى الأوقات المبكرة من القرن العشرين مع ضعف ثورة الاتصالات ، وصعوبة المتابعة الفورية للأحداث الجارية فما هى الاهتمامات التى ربطت مصر بالكويت ، بحيث جعلت من المصادر المصرية - فى رأينا - قابلة للدخول فى منظومة المصادر التاريخية المختلفة اللازمة لكتابة تاريخ الكويت فى القرن العشرين .

منذ البداية يتضح أن رباط الانتماء إلى الإسلام ، وأيضا إلى الدولة العثمانية- مع وهن الرباط السياسى الأخير فى كل من مصر والكويت(١) - شجع المصادر المصرية على متابعة الأحداث الجارية فى الكويت كبلد إسلامى ، ينتمى إلى الدولة العثمانية . هذا فى وقت كانت المنطقة بأسرها تسقط فى أيدى القوى الاستعمارية .

كما لا ننكر أثر العامل الجغرافى من حيث القرب المكانى بين البلدين ، والأهمية الاستراتجية لكليهما . ويتضح ذلك منذ مجيء الحملة الفرنسية على مصر فى عام ١٧٩٨ حيث بدأ تصارع القوى الدولية على المنطقة . فمنذ ذلك الوقت أوضحت الحملة الفرنسية مدى الأهمية الاستراتجية لطريقى البحر الأحمر و الخليج العربى .

وربما يتضح هذا أكثر إذا أخذنا فى الاعتبار أن افتتاح قناه السويس فى عام ١٨٦٩ قد أثر تأثيراً كبيراً على تاريخ الكويت . حيث برزت أهمية المشاريع الروسية فى مد خط حديدى يمتد من طرابلس على البحر المتوسط وينتهى عند أراضى الكويت .كما برز أيضاً أهمية المشروع الألمانى عبر خط حديد برلين - بغداد ، الذى كان مقرراً له أن ينتهى داخل أراضى الكويت أيضاً . ودفعت هذه المنافسات الأوروبية بريطانيا إلى توقيع معاهدة حماية مع الكويت عام ١٨٩٩ لقطع الطريق أمام الدول الأوروبية الأخرى .

وستتصاعد الاهتمامات المصرية بالكويت بعد ذلك سواء مع نمو الفكرة العربية فى مصر والتعبير عنها فى شكل سياسى فى وقت متأخر من خلال جامعة الدول العربية . ويدخل فى هذا أيضا صراعات القوى السياسية المحلية الجديدة فى المنطقة لاسيما العراق ، السعودية ومصر . أو حتى مع تصاعد حركة الاستقلال الوطنى فى المنطقة ، وأثر الناصرية فى انتشار فكرة القومية العربية والكفاح ضد الاستعمار .

(أ) الصحافة المصرية كمصدر من مصادر تاريخ الكويت :

على أية حال بدأ الاهتمام المصرى بالأحداث الجارية فى الكويت منذ نهاية القرن التاسع عشر . وإذا أخذنا جريدة الأهرام - أشهر الجرائد المصرية - كدراسة حالة ، يمكنا رسم صورة شاملة عن هذا الاهتمام وعن إمكانية الاستعانة بهذا المصدر التاريخى عند كتابة تاريخ الكويت .

فعلى أثر توقيع معاهدة الحماية البريطانية - الكويتية فى إبريل ١٨٩٩ ، تظهر الكويت على صفحات الأهرام . حيث نشرت الأهرام فى مايو١٨٩٩ تحقيقاً موسعا تحت عنوان « روسيا وإنجلترا فى الخليج العجمى » . وفى هذا التحقيق تشير الأهرام إلى احتدام الصراع الإنجليزى الروسى على منطقة الخليج وظهور ذلك بشكل أساسى فى مسألة الكويت ، نظراً لأهمية موقعها الجغرافى . ويتضح ذلك لاسيما مع المشروع الروسى فى مد خط سكك حديد طرابلس - الكويت لربط البحر المتوسط بالخليج العربى . ومما يزيد من أهمية الأهرام هنا كمصدر هام ، أنها بما أنها طرف محايد فى هذا الصراع فإنها تنقل أخبار هذا الصراع من خلال طرف آخر محايد إلى حد ما . فقد اعتمدت الأهرام فى تغطية ذلك على الصحف الألمانية التى قدمت عرضاً هامًا حول طبيعة هذا الصراع .

وازداد اهتمام الأهرام بالكويت مع تصاعد الأحداث فى منطقة الخليج العربى ، وبصفة خاصة مع تصارع القوى المحلية فى المنطقة . ويظهر ذلك جلياً فى أثناء الصراع بين أمير الكويت الشيخ مبارك الصباح وابن الرشيد أمير جبل شمر . هذا الصراع المحلى الذى اجتذب قوى دولية متصارعة على المنطقة مثل الدولة العثمانية وإنجلترا . وبدون الدخول فى تفاصيل هذا الصراع بين مبارك الصباح وابن الرشيد ، فإننا سنجد الأهرام تهتم اهتماماً خاصاً بهذه الحادثة التى ستطلق عليها « حادثة الفتنة العربية » وتوضح الأهرام أسباب اهتمامها بهذه الحادثة لأنها تهم « العثمانيين على العموم والعرب على الخصوص » وترسم الأهرام سيناريو

لتطور الصـراع بين الطرفين(٢) . كما تقدم تفاصيل الاتصالات الجارية بين الطرفين وبعض القوى المحلية فى المنطقة مثل سعدون باشا شيخ المنتفك . وتولى الأهرام اهتماماً خاصاً برسم أبعاد تورط القوى الدولية فى هذا الصراع لاسيما إنجلترا والدولة العثمانية(٣) .

وفى مقال آخر يتناول الأهرام الاستعدادت العثمانية فى الخليج لمواجهة تصاعد الاحداث المحلية فى المنطقة . وفضلاعن الاستعدادات العسكرية التركية يولى الأهرام أيضا إهتماماً برصد خطوات الدبلوماسية العثمانية فى التعامل مع هذه الازمة عبر المحادثات التى يجريها مدحت باشا مع أمير الكويت فى محاولة لرأب الصراع والحيلولة دون الوصول إلى نقطة اللاعودة بالنسبة للقبائل المتناحرة فى شبه جزيره العرب . وتذكر الأهرام عدة محاولات من جانب الدولة العثمانية للصلح بين أمير الكويت وأمير جبل شمر .

وفضلا عن المتابعة الدورية الوافية والكثيفة من جانب الأهرام لتطورات الاحداث الدولية فى الخليج العربى أو الصراع بين الفرق العربية المتناحرة ، تقدم الأهرام تحليلا واعيا لاستراتجيات أطراف السياسة المحلية والدولية فى هذه المنطقة . فبالنسبة للكويت تقدم الأهرام شهادة بالغة الإهمية حول « الاستقلال الذاتى » « والوضع المتميز » للكويت فى علاقاتها بالدولة العثمانية . إذ تذكر صراحة أن الكويت «مازلت تابعة سياسيًا ودينياً للخلافة العثمانية . **وإن يكن شيخها مستقلا فى إدارة الكويت وما يليها من البلاد** ، التى يبلغ عدد أهلها نحو عشرة الألف فوق عدد أهل الكويت » . وهذه الشهادة فى غاية الأهمية فيما يتعلق بالتطور السياسى لوضع الكويت بعد ذلك .

ومن ناحية أخرى تبرز الأهرام الأهمية الاستراتجية للكويت فى هذه الفترة المبكرة عند مطلع القرن العشرين . فبعد الهدوء النسبى الذى طرأ على منطقة شمال الخليج وبصفة خاصة الكويت فى أعقاب الصراعات المحلية والتنافس الدولى ترى

الأهرام أن مسألة الكويت هدأت ولكن لم تنتهى « أن مسألة الكويت لابد وأن يكو لها يوم ولو خمدت نارها حينا تحت رماد السياسة » مما يدل على متابعة جيدة من جانب الاهرام إزاء هذا الشأن .

ومن ناحية أخرى تقدم الأهرام تحليلا ذكيا للسياسة العثمانية تجاه الكويت والخليج العربى . إذ ترى الأهرام أن الدولة العثمانية تحاول جاهدة إستعادة دورها القديم فى المنطقة ، وتحويل نفوذها « الاسمى » إلى نفوذ « فعلى » لكن القدرات الحالية لها لاتمكنها من ذلك فى ظل التنافس الدولى على المنطقة ، والصراعات المحلية . من هنا ترصد الآهرام السياسة العثمانية فى المنطقة ، والتى تتلخص فى « محاولة » الوقوف فى وجه القوى الدولية ، ومن ناحية أخرى إشاعة الفرقة بين القوى المحلية فى المنطقة ، حتى تصبح الدولة العثمانية بمثابة الفيصل فيما بينهم(٤) .

وبالنسبة لبريطانيا سيدة البحار والقوة الرئسية الاولى فى الصراع على المنطقة ، توضح الأهرام مدى ألاهمية الاستراتجية للمنطقة فى سياسة الامبراطورية البريطانية ، وربط إنجلترا بأكبر مستعمراتها الهند « إذا خفق جناح طائر على طريق الهند خفق قلب الوزارة الإنجليزية فى لندرا . ولو استطاع الإنجليز أن يسدوا الخليج العجمى فى وجوه أسماك البحار أو يجعلوها من جواسيسهم فى تلك الأنحاء لما أحجموا يوماً ». وترجع الأهرام بدايات الاهتمام الجدى من جانب أنجلترا بالكويت وأهميتها الحربية والتجارية إلى مطلع القرن التاسع عشر ، وتزايد ذلك الإهتمام منذ عام ١٨٢٠ .

وبالنسبة للقوى المحلية فى المنطقة ترى الأهرام أن هذه القوى أنهكت نفسها فى الصراع فيما بينها . وفتح هذا الصراع الباب أم تدخل القوى الأجنبية المتربصة بالخليج . كما إستفادت الدولة العثمانية من هذا الصراع بل وعملت على تغذيته حتى تحتكم الفرق المتنازعة إليها . وتقدم الأهرام إستراتجية بديلة للجانب العربى

إزاء الدولة العثمانية « لو اتحد أمراء العرب مع بعضهم لأمكن التغلب على الدولة العثمانية لأن كل واحد منهم يملك جيش لايقل عن ٣٠ ألف جندى ويشتروا السلاح من بوارج الإنجليز » هذه النبوءة التى تقدمها الأهرام فى عام ١٩٠٢ ستتحقق جزئيا بعد ذلك بقليل من خلال ما عرف باسم « الثورة العربية » أو ثورة الشريف حسين فى عام ١٩١٧ ضد الدولة العثمانية ومن الغريب أن هذه الثورة ستندلع بموازاة بريطانيا كما تنبأت الأهرام من قبل .

كما ترصد الأهرام أيضًا الاهتمامات الروسية بالكويت عبر مشروع السكك الحديدية الذى يمتد حتى الكويت . كما نقلت الأهرام ردود أفعال الصحف الروسية تجاه الصراع بين مبارك الصباح وعبد العزيز بن الرشيد وتدخل الدولة العثمانية وأنجلترا فى هذا الصراع . حيث إنزعجت دوائر السياسة الروسية من الصراعات المحلية التى فتحت الابواب أمام التدخلات الدولية فى منطقة تعتبرها روسيا منطقة إهتمام ذات طابع خاص فى الاستراتيجية الروسية(٥) .

وعلينا الآن أن نبحث عن مصادر المعلومات التى استقت منها الأهرام أخبارها وتحليلتها عن تطورات الأحداث فى المنطقة . فى الحقيقة تعددت مصادر المعلومات الوفيرة لدى الأهرام مما أتاح لها إمكانية تقديم تحليلات وتصورات رصينة حول المنطقة . ومن أهم هذه المصادر بعض المصريين الذين قاموا بالرحلة إلى المنطقة . إذ نشرت الأهرام فى عام ١٩٠١ عدة مقالات لبيومى إبراهيم الذى قام برحلة إلى المنطقة ، وعاد ليكتب تصوراتة ومشاهداته عن المنطقة(٦).

ومن ناحية أخرى إستندت الأهرام إلى الصحف كمصدرا للمعلومات عن تطور الأحداث فى المنطقة . والجدير بالذكر أن الأهرام تنبهت منذ البداية لأهمية النقل عن مصدر محايد حسب طبيعة الصراع فى المنطقة . ففى أثناء الصراع الإنجليزى الروسى على المنطقة فى أعقاب الاتفاقية الإنجليزية الكويتية أستقت الأهرام الكثير من معلوماتها من خلال الصحافة الألمانية التى أولت المسألة إهتمامًا خاصًا فى إطار السياسة الألمانية تجاه المنطقة(٧) .

وفى أثناء الصراع المحلى بين مبارك الصباح وبن الرشيد ، وتورط إنجلترا والدولة العثمانية فى تطورات هذا الصراع ، نقلت الأهرام بعض المعلومات من خلال الصحف الروسية التى إهتمت بهذه المسألة فى إطار السياسة الروسية تجاه المنطقة(٨) .

كما إعتمدت الأهرام فى بعض الاحايين على تقصى الحقائق من مصادرها المحلية فى المنطقة . إذتلقت الأهرام فى أثناء الصراعات المحلية والدولية على المنطقة العديد من الرسائل من بعض « الكتاب الفضلاء » من أهالى المنطقة عن تطورات الاحداث ووجهة النظر المحلية الخالصة تجاه هذا الأمر . ومن ذلك مما تلقته الأهرام من البصرة فى أثناء صراع مبارك الصباح وبن الرشيد والتطورات اللاحقة على ذلك. و لم يقدم هؤلاء « الكتاب الفضلاء » تصوراتهم وإنطباعتهم على الاحداث وإنما أيضا تفاصيل حول الاستعدادات العسكرية وتطور المعارك بين القوى المتناحرة ، والدبلوماسية العثمانية إزاء المنطقة(٩) .

وإذ كنا قد تعرضنا لمعالجة جريدة الأهرام لتطور الاحداث فى تاريخ الكويت فى مطلع القرن العشرين ، فأننا الآن سننتقل إلى مرحلة أخرى هامة فى تاريخ الكويت المعاصر وبصفة خاصة التطورات التاريخية التى صاحبت إعلان إستقلال الكويت فى يونيو١٩٦١ ، وكيفية دخول جريدة الأهرام فى منظومة المصادر الأساسية لتاريخ الكويت فى هذه المرحلة .

ففى أعقاب تبادل حاكم الكويت عبد الله السالم الصباح مذكرات التفاهم مع المقيم السياسى لبريطانيا العظمى فى الكويت فى ١٩ يونيو ١٩٦١ ، خرج حاكم الكويت إلى شعبه فى خطبة ألقاها عبر الإذاعة فى اليوم التالى مهنئاً شعبه بالاستقلال متمنياً عهداً جديداً للكويت فى المرحلة الجديدة التى تعيشها . وبدأت الكويت تجرى الاستعدادات اللازمة للانضمام كدولة مستقلة إلى المنظمات الدولية والمحلية ، لاسيما هيئة الأمم المتحدة وجامعة الدول العربية(١٠) .

وبات الأمر وكأن استقلال الكويت قد خرج فـي ظروف هادئة مواتية ، ومواكبا لتغير الظروف الدولية والسعى نحو إنهاء الامبراطوريات العظمـى لنفوذها القديم - لاسيما بعد حرب السويس ١٩٥٦ - ومحاولـة بناء قواعـد جديـدة فـى التعامل بين الدول ، فضلا عن نمـو الوعـى القومـى فـى العـالم العربـى وأيضـاً فـى الكويت .

وقبل ذلك كان النظام العراقى فى بغداد غير راضياً عن ذلك . حيث وصـل عبد الكريم قاسم إلى الحكم على أثر انقلاب خطير حـدث فـى عـام ١٩٥٨ . و نتيجة لبعض الأسباب والمتاعب الداخلية ، أو طمعـاً فـى ثـروة الكويـت النفطيـة ، أحيى عبد الكريم قاسم من جديد المزاعم العراقية حول تبعيـة « قضـاء » الكويـت للواء البصرة فى العصر العثمانى ، وإنكار العراق للاتفاقيات الكويتيـة - الإنجليزيـة فى عام ١٨٩٩ ، وعام ١٩١٣ . فبعد أيام قليلة مـن إعـلان إستقلال الكويـت ، خرج عبد الكريم قاسم على العالم ببيان خطير معلنـاً فيـة عـدم إعترافـه باستقلال الكويت ، وملحاً على الزعم القائل بأن حدود العراق تمتد من زاخـر فـى الشـمال حتى جنوب الكويت . وأعلن ضم الكويت إلى العراق . وفى خطـوة غـير قانونيـة إستدعت وزارة الخارجية العراقية ممثلـى الـدول لديهـا ، وأخـبرتهم بعـدم إعترافهـا باستقلال الكويت ، وبالتالى ضرورة عدم إعتراف بقية الدول بالكويت نتيجة زعم « الحق التاريخى » فى الكويت . تمهيداً لدخـول العـراق للكويـت . حيـث حشـد النظام العراقى حشوده العسـكرية علـى حـدود الكويـت . وقطـع النظـام العراقـى علاقاته الدبلوماسية بالدول التى أعترفت بالكويت .

من هناء وإزاء توتر الأوضاع أعلنت الكويت حالة الطـوراىء ووصلـت إلى الكويت بعض القوات من الدول الأجنبية والعربية الصديقة فى محاولة للوقوف أمام النظام العراقى .

وليس فى نيتنا هنا سرد تطور وقائع الأزمة الكويتية العراقية آنـذاك . ولكـن ما يهمنا هنا هو تتبع جريدة الأهرام كمصدر هام وأساسى للتأريخ لهـذه الأزمـة . ولكن ما هى دواعى أهمية جريدة الأهرام آنذاك على وجه الخصوص ؟

رأينا من قبل مدى حرص الأهرام على تقديـم متابعـة دقيقـة وهامـة لتطـور الأحداث فى الخليج العربى فى أوائل القرن العشرين . لكن هـذه الاهميـة ستزداد بشدة أثناء الازمة الكويتية - العراقية فـى عـام ١٩٦١ . فـلا أحـد ينكـر الأهميـة التاريخية لجريدة الأهرام ، هذه الجريدة التى يعود تاريخها الى القرن الماضى ، والتـى حظت بشهرة عالمية فى جميع أنحاء العالم العربى .

وستزداد أهمية الجريدة - والمصادر المصرية بصفة عامـة - مـع مجـىء ثـورة ١٩٥٢ وازدياد البعد القومى فى السياسة الناصريـة . وهـو مـا سنلحظه بوضـوح أثناء هذه الأزمة . فمن ناحية حرصت مصر علـى لعـب دور أقليمـى بـارز آنـذاك لاسيما بعد الوحدة المصرية - السورية فى عام ١٩٥٨ وظهور الجمهوريـة العربيـة المتحدة . ومن ناحية أخرى كانت القاهرة مقراً لجامعة الدول العربية التى سـتلعب دوراً فى هذه الاحداث ، لاسيما وأن النزاع هو فى النهاية ، نزاعاً عربياً - عربياً . من هنا نرى أن جريدة الأهرام بمثابة مصدر هام لهذه التطورات .

وفى الحقيقة تابعت الأهرام منذ البدايـة تطـورات الاحـداث بدقـة . حيث نشرت الأهرام البيان الرسمى الصادر عن الجمهورية العربية المتحدة ازاء تطور الاحداث ، وإعلان النظام العراقى ضم الكويت إليه . ولعل أهم ما جـاء فـى هـذا البيان ، ملخصاً وجهـة نظـر الجمهوريـة العربيـة المتحـدة « إن الجمهوريـة العربيـة المتحدة وهى دولة أنبثقت من الوحدة الشاملة بين مصر وسـوريا لايمكـن بطبيعتهـا الا أن تكون سنداً لكل اتجاه إلى الوحدة سواء كانت وحدة جزئية أو وحدة شاملة

ولكن الوحدة لا يجب ولا يمكن إلا أن تكون تعبرًا اجتماعيًا عن إرادة شعبية عربية متبادلة قائمة على الاختيار » كما حدد البيان وجهة نظر الجمهورية العربية المتحدة فى مسألة « الحق التاريخى للعراق » العثمانى فى « قضاء » الكويت « إن الشعب العراقى العظيم يملك من أسباب الدعوة إلى الوحدة بينه وبين شعب الكويت ما هو أعمق وأبقى من وثائق الإمبراطورية العثمانية ، إن هذا الشعب يملك قوميته العربية بقدر ما يلمك شعب الكويت من هذه القومية العربية»(*) .

وهكذا نلاحظ موقف الجمهورية العربية المتحدة الرافض لمبدأ « الضم » المرحب بفكرة « الوحدة العربية » ورفض فكرة « الحق التاريخى » والمطالبة بطرح فكرة الوحدة بالإرادة الحرة ، وليس من خلال الحرب بالتاريخ .

كما تابعت الأهرام بدقة رد الفعل الكويتى المرحب ببيان الجمهورية العربية المتحدة ، والاتصالات اللاحقة بين القاهرة والكويت للنظر فى أمر هذه الأزمة ، وسفر فاخر الكيالى وزير العدل المركزى فى الجمهورية العربية المتحدة إلى الكويت للتباحث فى هذا الشأن .

وتابعت الأهرام مسألة إنضمام الكويت إلى هيئة الأمم المتحدة والمشروع المصرى الذى تقدم به وفدها الدائم بشأن الترحيب بهذا الضم كاعتراف دوليًا بحكومة الكويت ، وتوجيه لطمة قوية إلى النظام العراقى فى هذا الشأن .

كما قدمت الأهرام متابعة يومية لما كان يدور فى أورقة جامعة الدول العربية فى تلك الأوانة ، بدءاً من الاجتماع الطارئ الذى عقده مجلس الجامعة فى ٥ يوليو ١٩٦١. وعبر المتابعة اليومية للأهرام يمكنا رسم صورة دقيقة للسياسة العامة للجامعة العربية إزاء هذا الشأن . ويتلخص ذلك فى رفض الجامعة للموقف

(*) الأهرام ٢٩ / ٦ / ١٩٦١

العراقى بشأن إعلان ضم الكويت ، وأيضًا رفض الوجود العسكرى الأجنبى فى الكويت والمطالبة بإبدال القوات الأجنبية بأخرى عربية تابعة للجامعة(١٢) ، وهو الموقف الذى تحقق بالفعل بعد ذلك .

وربما سيتاح للباحث الذى سيقوم بالتأريخ للغزو العراقى للكويت فى ١٩٩٠ وحرب تحرير الكويت ١٩٩١ فرصة أكبر للاستفادة من الأهرام كمصدر هام وأساسى . فمن ناحية إزدادت أهمية وشعبية الأهرام على المستوى العربى والعالمى وأصبحت من أهم الجرائد فى الشرق الأوسط . و أهتمت الأهرام آنذاك إهتمامًا خاصًا بحرب الخليج ، حيث خرج إلى النور لأول مرة الوليد الجديد للأهرام « الأهرام المسائى » فى إطار تقديم متابعة فورية لتطور الأحداث . وفضلاً عن هذا وذاك كانت القاهرة محل جذب أنظار العالم إبان هذه الأزمة سواء من خلال تحرك الدبلوماسية المصرية ، أو دور الجامعة العربية ، أو التحرك الكويتى البناء فى القاهرة . منهنا ستأتى الأهرام من المصادر الأساسية لتاريخ هذه الفترة عندما يبدأ العمل الدقيق والمتأنى لكتابة تاريخ حرب الخليج .

وثائق وزارة الخارجية المصرية

تعتبر الوثائق السرية غير المنشورة من أهم المصادر التاريخية ، ففى الغالب كتبت هذه الوثائق لتقدم متابعة دقيقة لصانع القرار ، حتى يستطيع إتخاذ القرار. وهى بالتالى هامة جداً فى عملية « صناعة القرار » كما أنها تقدم لنا أيضًا وجهة النظر « الحقيقية » للدولة تجاه أمر ما وليس بالضرورة أن يتفق ذلك مع وجهة النظر « الرسمية » المعلنة . كما تقدم هذه الوثائق تفاصيل الاتصالات السرية بين الحكومات ، أو مع قوى سياسية معينة وللأسف غير متاح الآن الاطلاع على وثائق الخارجية المصرية بعد التمثيل الدبلوماسى بين مصر والكويت ، بحكم عامل الفترة الزمنية التى يسمح بعدها بالإطلاع على الوثائق (عامة ٣٠ سنة) أو بحكم عامل السرية والصالح العام .

على آية حال فإن ذلك الأمر لا يحول بين الباحث ومحاولة الاستفادة من وثائق وزارة الخارجية المصرية فى التأريخ لدولة الكويت حتى قبل استقلال الكويت وتبادلها العلاقات الدبلوماسية مع مصر . فإذا فحصنا المتاح من وثائق الخارجية وخاصة ما يتعلق منها بالدبلوماسية المصرية فى البلدان المجاورة للكويت ، وهى بلدان ذات مصالح من نوع خاص آنذاك فى الكويت ، يمكننا الاستفادة من هذه الوثائق فى كتابة تاريخ الكويت . وسنقتصر هنا على وثائق الخارجية المصرية ومفوضيتها (سفاراتها) فى جدة ، بغداد وطهران. وليس فى مخطط هذه الدراسة تقديم فهرس عن هذه الوثائق ، أو حتى استعراضها وتقديم مسحـًا لها . فأقصى ما تطمح إليه الدراسة هو لفت الأنظار إلى أهمية هذه الوثائق بالنسبة للباحث الذى يطمع بالفعل إلى جمع أكبر قدر ممكن من المصادر المتنوعة التى تخدم تاريخ الكويت . من هنا سنعمد إلى الإشارة إلى بعض النماذج فقط ، وبيان أهميتها .

بما أننا أخترنا منذ البداية دراسة فكرة الصراع الدولى أو الأقليمى على الكويت ، فإننا سنركز هنا فى (إنتقاءنا) للوثائق على هذه الفكرة. فقد مر بنا كيف زعم العراق بأنه وريث الدولة العثمانية فى الكويت(١٣) . وفى الحقيقة ستتبلور السياسية العراقية العدائية تجاة الكويت بعد عام ١٩٣٢، وهو العام الذى شهد استقلال العراق ، وبناء سياسة عراقية ثابتة تستهدف ضم الكويت . وسيساعد على ذلك إكتشاف حقل البرقان الكويتى فى عام ١٩٣٨ ، مما أثار لعاب الحكومة العراقية فى الاستفادة من الإنتاج الغزير من البترول الكويتى . وفضلاً عن ذلك كان العراق يعانى من مشاكل جمة على شاطىء الخليج بعد التنازلات العديدة التى قدمها فى عام ١٩٣٧لايران عبر إتفاقية شط العرب . من هنا كان الكويت بمثابة إنفراجة حقيقة لازمة إقتصادية وحياتية يعيشها النظام العراقى .

وعلى ذلك ستبدأ المحاولات العديدة للنظام العراقى فى العهد الملكى لضم الكويت . وبدأت تلك المحاولات بفكرة عراقية بإقامة ميناء عراقى داخل الكويت

فى عام ١٩٣٦ . وأستند العراق فى ذلك إلى أن الاتفاقية الإنجليزية - العثمانية الموقعة فى عام ١٩١٣ نصت صراحة على تبعية الكويت للدولة العثمانية . لكن الحكومة البريطانية إعترضت على ذلك محتجة بأن الزعم العراقى يتجاهل إتفاقية لوزان عام ١٩٢٣ والتى فيها تنازلت تركيا عن حقوقها السابقة .

وسيلجأ العراق إلى إستراتجية جديدة وهى إثارة بعض المعارضين فى داخل الكويت للقيام بعمليات عنيفة ضد حكومة الكويت . وتقدم الوثائق المصرية معلومات هامة فى هذا الشأن . **ففى تقرير صادر من المفوضية الملكية المصرية بجدة** فى ١٤ إبرايل ١٩٣٩ ، أوضحت الدبلوماسية المصرية تفاصيل مؤمراة عراقية كانت تدبر لإثارة بعض قوى المعارضة فى الكويت ضد أميرهم . حيث عمدت الدعاية العراقية على الزعم بأن العراق والكويت دولة واحدة « لجوار البلدين وإتفاق مشاربهم » . ويوضح التقرير المصرى بذكاء الهدف العراقى من وراء تلك المحاولة « رغبة منهم فى توسيع سواحل العراق على الخليج الفارسى ».

ويوضح التقرير تفاصيل تلك المؤامرة من حيث إثارة الاضطرابات فى داخل الكويت ، مما يستدعى تدخلا من جانب الجيش العراقى . ويذكر التقرير أيضًا أنه « أشيع أن العراق يجهز سراً حملة عسكرية لاحتلال الكويت » .

ويتطرق التقرير بعد ذلك لدراسة موقف أهم القوى المحلية من المؤمرات العراقية للسيطرة على الكويت . ولعل من أهم هذه القوى السعودية(١٤) التى أصبحت آنذاك من أهم القوى المحلية فى منطقة الخليج . ووفقًا للتقرير لم تحرك ساكنا إزاء المؤمرات العراقية نظراً لإرتباط السعودية فى حلف مع العراق آنذاك . مما أدى إلى شل أيدى السعودية مؤقتا إزاء المطامع العراقية . وأنتهزت الحكومة العراقية هذا الأمر أسوأ استخدام . إذ أعلنت إذاعة بغداد أن الحكومة السعودية وعلى رأسها الملك عبد العزيز بن سعود توافق على ضم الكويت العراق . وأدى هذا الإعلان إلى إحراج موقف الحكومة السعودية بشدة . وعلى ذلك أصدر الملك

عبد العزيز فى اليوم التالى بيانـًا أعلن فيه أن السـعودية لا توافـق علـى فكـرة ضـم الكويت للعراق بل وزاد على ذلك أن السعودية تقف فى صف الكويت فـى هـذا الشأن .

وتبع ذلك توتر الأوضاع السياسية والعسـكرية فـى الخليـج . حيث قـامت السعودية برفع المخافر الموجودة فى المنطقة المحايدة على الحدود العراقيـة السـعودية. ووصل الأمر إلى حد التحرشات العسكرية . وينتهى التقرير إلى نتيجة معينـة وهـى أن موقف السعودية الصـارم والمتضـامن مـع الكويـت ، إلى جـانب عـدم تشـجيع بريطانيا لموقف العراق ، دفع العراق إلى التخلى « مؤقتـًا » عن دعاويـه فـى ضـم الكويت إليه(١٥) .

و لم تتوقف مسألة المطامع العراقية وصراع القوى المحليـة عنـد عـام ١٩٣٩. ففى العام التالى وأثناء الحرب العالمية الثانية تعقدت الأمور مرة ثانية بـين السـعودية والعراق . وكـان أسباب ذلـك ترجـع إلى خلافـات حـول الحـدود بين البلديـن، وتضارب مصالح الدولتين فى الكويت . وبالفعل إقتحمت قوة من ثمـانى سيارات عراقية منطقة الحدود مع السعودية ، إلا أن القوات السعودية ألقت القبض عليها . وجرى فى أعقاب ذلك محادثات على مستوى رفيع بين البلديـن أدت إلى الأفـراج عن الأسرى العراقيين .

وقد دفع ذلك السعودية إلى زيادة توطيـد علاقاتهـا بـالكويت للوقـوف فـى وجه العراق الذى يسعى ليصبح القوة الأقليمية الأولى فى المنطقة . من هنا أبرمـت الحكومة السعودية مع الكويت عدة إتفاقات هى :

١ - معاهدة صداقة وحسن جوار .

٢ - إتفاقية تسليم المجرمين .

٣ - إتفاقية تجارية .

ويرى تقرير المفوضية المصرية أنه قد تجمعت العديد من المتاعب فى منطقة الخليج سواء مسألة الكويت ، أو الاطماع العراقية ، أو ظروف الحرب العالمية الثانية(١٦) ، والتى أدت إلى زيادة متاعب الملك عبد العزيز بن سعود مما يجعله فى مركز لا يحسد عليه ، وربما يضعف من دوره تجاه الكويت .

وإذا كنا ضربنا مثلا بتعقد العلاقات المحلية فى الخليج وحساسية مسألة الكويت فى بدايات الحرب العالمية الثانية ، فأننا هنا سنضرب مثالاً عند نهايات الحرب العالمية الثانية. إذ تعقدت الأمور فى المنطقة مع ثورة **رشيد عالى الكيلانى** ضد النظام الهاشمى فى العراق . وإزاء فشل الثورة فر رشيد الكيلانى إلى السعودية. ودارات مفاوضات عديدة بين العراق والسعودية من أجل تسليمه . لكن السعودية كانت ترفض تسليمه ، ولكن تؤيد إبعاده إلى دولة أخرى .

وأحست الحكومة العراقية أنه ربما يتم إبعاد رشيد الكيلانى إلى الكويت . من هنا ستعمل العراق على تكثيف الاتصالات مع الكويت لضمان تسليم الكيلانى إذا تم إبعاده إلى الكويت .

وتوضح الوثائق المصرية مدى اطلاع المفوضية المصرية فى بغداد على مصادر المعلومات والاتصالات السرية التى كانت تجريها مع صناع القرار فى المنطقة . إذ يوضح التقرير اتصال المفوضية المصرية بعزت جعفر سكرتير خاص أمير الكويت ، وأيضاً بمدير الدعاية فى بغداد . وقد أسر إليه عزت جعفر بأن الكويت تريد تهدئة الأوضاع مع العراق آنذاك ، فى ظل الظروف الصعبة التى تمر بها المنطقة ، حتى يأتى الوقت الذى تستطيع فيه الوقوف فى وجه العراق . وواضح أن مثل هذه التقارير كانت تحظى بإهتماما كبيراً فى القاهرة حيث كان يتم عرضها على وزير الخارجية مباشرة ، لاصدار التعليمات اللازمة(١٧) .

هذه مجرد أمثلة من الوثائق المصرية التى تفيد فى كتابة تاريخ الكويت فى القرن العشرين . ولكن لا يعنى ذلك أنه ليست هناك وثائق أخرى .

إذا تذخر دار الوثائق القومية بالعديد من الوثائق التى تتعلق مباشرة أو بصورة غير مباشرة بتاريخ الكويت ، وبصفة خاصة الصراعات الدولية والمحلية على منطقة الخليج . إذ نجد ضمن هذه الوثائق أحد الملفات التى تتعلق بمشاكل النزاع بين العراق وإيران على شط العرب ومشاكل الحدود بين البلدين . وتتعرض وثائق هذا الملف إلى مشكلة إزدياد النفوذ الإيرانى فى منطقة الخليج(١٨) .

كما أحتوت الوثائق المصرية على تقارير المفوضية المصرية فى إيران والتى تحتوى على تتبع دقيق للسياسة الإيرانية فى المنطقة(١٩) .

على أية حال هذه محاولة متواضعة لجذب الانتباه إلى أهمية المصادر المصرية فى كتابة تاريخ الكويت فى القرن العشرين . وربما ستزداد أهمية هذه المصادر مع رفع الحظر الزمنى عن الوثائق المصرية فى الفترة التالية على استقلال الكويت فى عام ١٩٦١ والتبادل الدبلوماسى بين الدولتين ، وتعقد السياسة الدولية فى ظل الحرب الباردة ، وتصاعد الأطماع العراقية فى الكويت .

(١٦) محافظ عابدين محفظة ١٢٢ ، مذكرة بشأن تقرير للمفوضية المصرية بجدة بشأن الحالة السياسية فى شبه جزيرة العرب والخليج ١١ مارس ١٩٤٠.

(١٧) محافظ عابدين محفظة ١٢٣ تقارير خاصة بالعراق ، برقية من المفوضية المصرية ببغداد فى ٢٢ / ١٠ / ١٩٤٥ .

(١٨) محافظ عابدين محفظة ١٢٣ ملف عن تقارير سفارة مصر فى بغداد عن النزاع بين العراق وإيران على شط العرب ومشاكل الحدود بين البلدين من ١٩٣٥ - ١٩٤٤ .

(١٩) محافظ عابدين محفظة ١١٩ تقارير المفوضية المصرية فى إيران من ١٩٣٨ حتى عام ١٩٥٢ .

الهوامش

(١) لمزيد من التفاصيل حول هذه النقطة انظر أعمال أحمد عبد الرحيم مصطفى حول « علاقة مصر بتركيا فى عصر إسماعيل » وأيضاً « المسألة المصرية » وأيضًا : مصطفى أبو حاكمة : تاريخ الكويت ، الكويت ١٩٦٩

(٢) الأهرام ٣١ أغسطس ١٩٠١ تحت عنوان مسألة الكويت

(٣) الأهرام ٩ أكتوبر ١٩٠١ مسألة الكويت ، الدولة العلية وأنكلترا .

(٤) الأهرام ٩ / ١٠ / ١٩٠٢

(٥) الأهرام ١ / ٩ / ١٩٠١

(٦) الأهرام سبتمبر ، أكتوبر ١٩٠١

(٧) الأهرام ٩ مايو ١٨٩٩

(٨) الأهرام ١ ستمبر١٩٠١

(٩) الأهرام ٣١ أغسطس ، ١١ أكتوبر ١٩٠١

(١٠) للمزيد من المعلومات حول هذه الفترة وتطور الأحداث بها انظر : ميمونة الخليفة الصباح : الكويت فى ظل الحماية البريطانية ، الطبعة الأولى ، الكويت ١٩٨٨ ، بصفة خاصة ص ٤٥٤ ، ٤٦١ ، ٤٦٢ .

(١١) الأهرام ٢٩ / ٦ / ١٩٦١.

(١٢) انظر فى هذا الشأن :

الأهرام أعداد ٥ ، ١٣ ، ٢٠ يوليو ١٩٦١ . ولمتابعة تطورات الأحداث بعد ذلك انظر أعداد فبراير ١٩٦٣ لمتابعة سقوط نظام عبد الكريم قاسم .

(١٣) عن العراق فى هذه الفترة انظر

عبد الرحمن البزاز : العراق من الاحتلال حتى الاستقلال ، القاهرة ١٩٥٤.

(١٤) عن موقف السعودية انظر لوريمر : دليل الخليج ، القسم التاريخى ، الجزء الثالث .

(١٥) دار الوثائق القومية بالقاهرة ، محافظ عابدين ، محفظة ١٢٢ ، تقرير من المفوضية الملكية المصرية بجدة فى ١٤ إبرايل ١٩٣٩ عن أهم الحوادث الأخيرة.

تطور الأسطول العثماني في ظل أبرز الحضارات البحرية للبحر المتوسط

د. نبيل عبد الحي رضوان
أستاذ مساعد في التاريخ الحديث – قسم التاريخ
كلية الشريعة والدراسات الإسلامية – جامعة أم القرى

المقدمة :

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم أجمعين ... وبعد .

فإن العلاقات المتبادلة بين الشعوب من أكبر عوامل الرقي ، ولا يمكن إيضاح تقدم الأقوام أو تأخرها بما لها من ميزات جنسية ومعتقدات دينية أو بما تملكه من موارد طبيعية وبشرية ، بل بموقعها الذي أحرزته في علاقتها مع شعوب متباينة في مختلف عصور تاريخها .

فالدولة العثمانية قامت ونمت وازدهرت في حقل تاريخي جمع بين أنقاض الدولة البيزنطية والخلافة الإسلامية ، ومعنى ذلك أن النظم العثمانية تأثرت بأصول تركية ويونانية وبيزنطية ، وبمعنى آخر أن الحضارة العثمانية كانت مزيجًا من حضارة القسطنطينية وبغداد ، وقد نجح الأتراك العثمانيون في استيعاب كثير من عناصر الحضارة البيزنطية ومن تلك العناصر الحضارية الأسطول البحري ، لذلك كان عنوان بحثي « تطور الأسطول العثماني في ظل أبرز الحضارات البحرية للبحر المتوسط » .

فاليونانيون باعتبارهم أمة بحرية ، احتفظوا بجزء من اسم الشعب الروماني وعظمته مدة عشرة قرون ، وحين سقطت القسطنطينية أصدر محمد الثاني (خط شريف) الذي اعتبره اليونانيون دستورًا لهم الأمر الذي جعل فيهم الرياسة الدينية والمدنية لبطريرك القسطنطينية .

وكان معظم التجار والبحارة من اليونانيين أو الأرمن . لذلك نرى أنهم كانوا أهم العناصر المسيحية في الدولة العثمانية ، أما عن شهرة اليونانيين البحرية فذائعة الصيت واستفادة العثمانيين منها كانت كبيرة ومحققة ، كما استفاد العثمانيون أيضًا مما كان لدى البنادقة من تقدم هائل في صناعة البحرية ونظمها في البحر المتوسط . وإذا أضفنا إلى ذلك أن الدولة العثمانية قد ورثت أملاك الدولة المملوكية والتي بلغت البحرية الإسلامية فيها أوج عظمتها اتضح لدينا أسباب عظمة البحرية العثمانية ومدى تأثرها واستفادتها من النظم البحرية الحربية والتجارية للدول التي سبقتها في المنطقة وآلت أملاكها إليها .

والله ولي التوفيق ،،

جغرافية اليونان وآثارها على اليونانيين :

تقع شبه جزيرة اليونان(١) في قارة أوربا ، وهي جزء من جبال البلقان ، تمتد نحو الجنوب ، ويفصلها بحر إيجة ، من جهة الشرق ، عن آسيا الصغرى . أما من جهة الغرب ، يفصلها بحري الأدرياتيكي وأيونا عن إيطاليا وجزيرة صقلية. ويكاد خليج كورنث يشطر اليونان إلى شطرين من ناحية الغرب ، أما خليج سارونيا ، فإنه يفصلها من ناحية الشرق .

ويحول دون التقاء هذين الخليجين برزخ كورنث الضيق ، الذي يصل الجزء الشمالي من اليونان بالجزء الجنوبي منها ، أعني البلوبونيس . لذا قامت كورنثة بحمل التجارة البحرية بين الخليجين ، وتحكمت في المواصلات البرية بين الشمال والجنوب(٢) . ومن ثم تنبثق أهمية اليونان من سيطرتها على الطرق المؤدية إلى البحر المتوسط من شبه جزيرة البلقان والبحر الأسود . وعليه فقد كان هذا الموقع الاستراتيجي لليونان في الماضي دوراً بين قوى البر والبحر(٣) .

يزخر البحر الإيجي بالجزر(٤) ، التي تعد بمثابة الجسر ، الذي يربط بين قارتي آسيا وأوربا ، حيث هيأتها الطبيعة لتكون معبراً من آسيا إلى أووربا ، فعلى أحد جوانبها يقع ساحل آسيا الصغرى الذي يتوغل نحو الغرب بما فيه من خلجان وموانئ طبيعية ومتعددة. كما أنها تتميز بوقوعها على مصاب الأنهار الخصبة ، أي على نهاية الطرق التجارية القادمة من مواطن بعض حضارات الشرق القديم(٥) .

رغم أن العوامل الجغرافية ، التي تشكل البيئة المكانية ، التي وجد فيها المجتمع اليوناني ، ليست الجانب الوحيد الذي أثر على هذا المجتمع ، إلا أنها تركت بصمات واضحة على مسار التاريخ اليوناني ، وعلى خصائص الحضارة اليونانية ، بحيث لا نستطيع أن نغفله إذا أردنا التعرف على هذا المسار وعلى هذه الخصائص.

أول ما يطالعنا ، إذا نظرنا إلى بلاد اليونان ، هو أن طبيعتها الجغرافية ، ليست امتداداً سهليًا مبسطًا ، وإنما ذات طبيعة وعرة في عمومها ، حيث أن

الجزء الجنوبي من شبه جزيرة البلقان ، ويشمل ابيروسس وتساليا ، ثم شبة جزيرة البلوبونيز ، وجزر بحر إيجة(٦). كما تنتشر سلاسل جبال بندوس في البلاد من أقصاها إلى أقصاها . فيما تراها محاذية لبحر إيجة في الشمال الشرقي ، ثم في داخله شرقًا ، حيث نراها محاذية للبحرين الأدرياتيكي ، والأيوني في الغرب ، فهي - سواء متعمقة في البحر ، أو محاذية له - تمتد في كل مكان من الشمال إلى الجنوب. ثم تتجزأ إلى قمم متداخلة وسلاسل صغرى يقطع امتدادها خليج كورنثا . ثم تظهر مرة أخرى في الجزر الوعرة المتعددة والمنتشرة في شرقي البحر المتوسط(٧). فبسبب تلك الطبيعة الجبلية ، لم يستطيع اليونانيون ، إلا أن يكونوا بحارة ، خاصة وأن بلادهم محاطة بالبحار .

والناظر إلى خريطة هذه البلاد يستطيع أن يصف القسم غير الجزري من بلاد اليونان ، بأنه مجموعة من الألسنة (أو الرؤوس) والخلجان والمضايق - وهذه التعاريج الكثيرة ، هي بالضرورة موانيء طبيعية تحتمي فيها المدن من عاديات البحر ، مما سهل مهمة الملاح القديم . كذلك نجد الهدوء الذي يمتاز به البحر المتوسط بوجه عام ، وبحر إيجة ، بوجه خاص . وقد شكل هذا البحر اليوناني الصرف ، عنصراً أساسيًا في حياة اليونان الملاحية والتجارية والسياسية وهجرتهم أيضًا بالإضافة إلى أدبهم ، حيث كان الهدوء هو الذي ساعد على تشجيع اليونانين على ركوب البحر في فترة مبكرة من تاريخهم ، ساعين على تعويض ما كانوا يجدونه في بلادهم الأصلية من ضيق في موارد الحياة ، كما تشجعهم على الملاحة أيضًا كثرة الجزر في بحر إيجة التي تزيد على عدة مئات ، بالفعل ، لأنها تنتشر انتشارًا مستمراً في أرجاء هذا البحر ، حيث لايكاد المبحر فيه أن يفقد منظر الأرض أبداً(٨) .

هكذا ، يعتبر بحر إيجة عبارة عن بحيرة كبيرة خلقتها الطبيعة لتوصل بين مختلف المناطق الساحلية في هذه المنطقة ، لذلك تعتبر مثالاً لاتصال السكان ، وتسهيل التبادل التجاري بينهم ، وللإنتشار الحضاري ، كما نجد في الركن

الشمالي الشرقي من هذا البحر ، مضيق البسفور والدردنيل اللذان لا يعتبران حاجزاً فاصلاً ، بل أداة وصل بين آسيا وأوربا ، إذ نرى وسط هذا البحر أشباه الجزر تمتد من آسيا الصغرى وشبه جزيرة اليونان بصورة متقابلة تقرب المسافة بين القارتين . كما أن أكبر تلك الجزر وأهمها كريت التي تعتبر حلقة تربط بلاد اليونان بآسيا الصغرى وسواحل سوريا ، بالإضافة إلى استخدامها كمحطة في الطريق البحري إلى مصر(٩) .

وهكذا ، تشجع البحارة على الملاحة في البحر المتوسط ، لما فيه من جزر عديدة فاتخذوا هذه الجزر محطات يرسون على شواطئها ، ويأمنون إليها ويتمون منها رحلاتهم .كما كانت شواطئ البحر المتوسط ، بشكل عام ، شواطئ متعرجة، هي بالضرورة موانيء طبيعية تحتمي فيها المدن من هجمات البحر ، مما يسهل مهمة الملاح .

وفي الشرق - الشاطيء الغربي لشبه جزيرة آسيا الصغرى - حيث هاجر اليونانيون إليها واستقروا فيها وأقاموا عدداً من المدن ، وفي الوسط ، حيث توجد أعداد من الجزر في هذا البحر اليوناني ، بل إنه في حقيقة الأمر ، لايعدو أن يكون خليجًا واسعًا . ولقد شجع ذلك الهدوء اليونان على ركوب البحر في فترة مبكرة من تاريخهم ساعين لتعويض بلادهم الأصلية من ضيق الموارد وصعوبة الحياة ، لذلك استخدم اليونانيون البحر ، كمهاجرين بشكل أفراد وجماعات أو بشكل موجات بشرية(١٠).

لقد كان لكل جزيرة ، ولكل رأس ، ولكل خليج في بحر إيجة شكلاً خاصًا ، يمكن تمييزها من مسافة بعيدة ، لذلك تكون هذه الجزر والرؤوس والخلجان نقاطًا معينة ، وإشارات طبيعية ، فهي ترشد البحارة إلى معرفة الطريق فتغنيهم عن البوصلة ، بالإضافة إلى ذلك التيارات الدائمة في بحر إيجة ، والتي تساعد السفن إلى السير في الذهاب والإياب ، إذ أن هناك تياراً بحريًا في وسط بحر إيجة من الشمال إلى الجنوب ، ويعاكسه من الجنوب إلى الشمال تياران على

جانبيه . كما أن الرياح تخضع في البحر المتوسط إلى نظام ثابت وقواعد معينة اكتشفها الملاحون اليونانيون ، منذ أقدم العصور ، عن طريق الملاحظة والتجربة ، واستندوا إليها في تحديد مواعيد أسفارهم وتعيين إتجاهاتهم .

إن كل تلك الظروف الطبيعية والعوامل المساعدة قد ساعدت اليونانيين على تعلم فن الملاحة ، لارتيادهم البحر المتوسط(١١).

وهكذا ، اتجه أول توسع قام به اليونانيون صوب الشرق ، حيث شواطىء آسيا الصغرى ، التي لاتختلف في مظهرها الجغرافي عن اليونان ذاتها ، لكنها أكثر خصوبة ، وذلك لتغطية حاجاتها من الحبوب(١٢) . ومن ثم فقد بدأ اليونانيون يولون وجهتهم نحو البحر ، بشكل متزايد في محاولة البحث عن مواردهم ، التي باتت قاصرة على تغطية ضروراتهم المعيشية(١٣).

لم يقف التوسع اليوناني عند آسيا الصغرى ، بل إن اليونانيين بعد أن تقدموا في فن الملاحة ، واطلعوا على أحوال البلاد الأجنبية وشاهدوا السهول الواسعة والمحصولات الكثيرة ، استمروا في الهجرة وأخذوا يؤسسون المستعمرات لهم في البحر الأسود(١٤).

لقد عرفت بلاد اليونان التجارة في فترة مبكرة من تاريخها . ونرى ذلك واضحًا ابتداء من الفترة التي تتحدث عنها الإلياذة والأوديسا ، أي الفترة ما بين أوائل القرن الثاني عشر وأواسط القرن التاسع قبل الميلاد . وقد تزايد هذا النشاط التجاري بإطراد ، حتى أصبح يشكل المورد الاقتصادي الأول في المجتمع اليوناني ، حتى قبل بدايات القرن السادس قبل الميلاد(١٥) .

و لم تلبث أن صارت تشكل قسمًا أساسيًا من موارد الإنتاج التجارية . وبطبيعة الحال ، تبعت التجارة قيام الصناعة التي كان لابد أن تتزايد من مرحلة لأخرى ، بقدر المستطاع دائرة التبادل التجاري بين بلاد اليونان وجيرانها ، وأدى

هذا بدوره إلى قيام طبقة من أصحاب الحرف ، سيطرت بدورها على قسم من موارد الإنتاج(١٦).

كما اتجه اليونانين ، أيضاً ، نحو الغرب بسبب قرب جنوب إيطاليا منها ، فدخلوا خليج تارنتم وجزيرة صقلية والتي تعد من أغنى الأصقاع التي استعمرها اليونان ، وذلك لأن الطبيعة وهبت صقلية ما حرمت منه بلاد اليونان في القارة الأوربية ، من حيث التربة التي لايكاد ينفذ خصبها بفضل أمطارها وحمم بركانها، كما كانت تنتشر فيها السهول الغنية ، التي ترعاها الماشية ، وتنمو على منحدرات تلالها أشجار كثيفة . أما البحار ففيها أسماك تفيض عن حاجة أهل صقلية(١٧) . وكان اليونانيون قد أوقعوا بالقرطاجيين(١٨) هزيمة ساحقة في جنوب إيطاليا وصقلية ، عندما حاول هؤلاء أن ينهبوا المستعمرات اليونانية هناك(١٩) .

وقد جاء الصراع بين اليونانيين والقرطاجيين نتيجة طبيعية لعاملين رئيسيين، الأول : سيطرة قرطاج ، والتي تنتهي شرقاً عند شواطئ صقلية ، ومحاولة قرطاجة على إبقاء هذا الجزء كمجال حيوي اقتصادي وهو أمر يعتبر منطقياً منذ أن أسس الفينيقيون المهاجرون مستوطنات لهم على قسم من الشاطئ الأفريقي في هذه المنطقة ، في القرن التاسع قبل الميلاد.

وتعد قرطاجة مقدمة للمستوطنات الفينيقية ، ولم يقتصر تطورها على الزعامة السياسية القرطاجية في هذه المنطقة ، إنما تخطتها لتكتسب صفة اقتصادية تجارية ، تدرجت لتتحول مع الزمن إلى سطرة تجارية كاملة .

أما العامل الثاني لهذا الصراع ، فهو التوسع اليوناني الاستيطاني في غربي البحر المتوسط ، الذي ابتدأ في الشطر الأخير من القرن الثامن قبل الميلاد ، ووصل أقصاه في الشطر الأول من القرن السادس قبل الميلاد ، فانتشرت المدن اليونانية على شواطئ القسم الجنوبي من شبه جزيرة صقلية ، وكما كان الأمر في حالة قرطاج ، فقد كان الاستيطان اليوناني إلى جانب صفته السياسية له صفة اقتصادية،

وفي ضوء ذلك تكون مقومات الاحتكاك بين اليونان وقرطاجة قد توفرت . ومن ثم يصبح حدوث صراع أمراً لامفر منه(٢٠) .

يرجح أن أسباب ودوافع حركة الانتشار والاستيطان ، جاءت كنتيجة حتمية لتدهور إمبراطوريات الشرق القديم ، وبالذات تدهور السيطرة الفينيقية على مياه شرقي البحر المتوسط ، التي كانت تحد من نشاط الإغريق ، حتى مصر ، التي كانت قوة كبيرة لها كيانها في المنطقة ، أصبحت في ذلك الوقت تعاني انهيار مستمرا أفقدها نفوذها وقيادتها . كما أدى تكدس دويلات المدن في المساحات الضيقة وتمسك كل منها باستقلالها كقوة مستقلة ذات سيادة إلى الاحتكاك وقيام المنازعات بسبب الحدود والمصالح والتنافس على السيطرة التجارية فيما بينها من أجل فرض نفوذها على أكبر رقعة من العالم المسكون . قد ساعد على ذلك تزايد عدد السكان بدرجة لا تتناسب مع المساحة الزراعية . ومن ثم دفعت مشكلة « البحث عن الغذاء » السكان إلى الهجرة . ومن هنا كان الانتشار تنفيثًا حتميًا للضائقة الاقتصادية والغذائية للسكان ، وقد ساعد البحر وقيام الأساطيل الصغيرة للمدن على هذا الانتشار(٢١).

يتبين من العرض السابق مدى أهمية جغرافية اليونانيون ، وأثرها في تكوين نشاطهم البحري مما أكسبتهم الخبرة البحرية الواسعة التي كان لها - كما نرى فيما بعد - تأثير في تطور الأسطول العثماني والتفوق البحري المستمر . ومما لاشك فيه أن بحرية الدول العثمانية قد تأثرت فى تطورها وارتقائها بما كان لدى اليونانيين من خبرة ومهارة بحرية خاصة بعد أن وصل نفوذ العثمانين إلى بلادهم .

النهضة البحرية الإسلامية من صدر الإسلام إلى أواخر العصر المملوكي :

لم يكن العرب في صدر الإسلام مهرة في صنع السفن وركوب البحر ، لذلك استعانوا بالروم واليونان وغيرهم من الأمم التي دانت لهم وخضعت لحكمهم في شواطيء البحر المتوسط ، إذ كان فيهم ملاحون وبناؤون أتقنوا هذه الصنعة وبرعوا فيها . ولما استقر ملكهم واتسع سلطانهم ورست أساطيلهم على موانىء

البحار البعيدة ، وتكررت ممارستهم للبحر وثقافته برع منهم صناع تفننوا في تشييد السفن الحربية(٢٢) وبعد أن أدركوا أهمية القوة البحرية الحيوية لدولة فتية ناشئة ، قرروا استخدام نفس الأسلحة التي استخدمها أعداؤهم في المجال البحري خاصة وأنهم أمم بحرية ، وسرعان ما تقدموا في فن الملاحة وبناء السفن ، واكتسبوا معرفة وثيقة بالبحر المتوسط ، وغيره من البحار ، إذ أن إنشاء القواعد البرية الملائمة وهو أحد الشروط اللازمة للقوة البحرية قد أيقظ رغبتهم البحرية .

وقد كانت سفن المسلمين تشبه إلى حد بعيد سفن الإغريق والرومان على ، أنها ذات حجم كبير لاستيعاب عدد كبير من البحارة . وما أن استقر المسلمون على شواطئ البحر المتوسط حتى أحدثوا تغييراً سريعاً ، فقد تمكنوا بعد أن سيطروا على صناع السفن أن ينشئوا أسطولاً(٢٣) حربياً قوياً ، متابعين للأصول الفنية المعروفة عند الفينيقيين واقتبسوا الهيكل العام للسفينة المعروف في البحر المتوسط وقتذاك . وقد استطاع المسلمون أن يسيروا نحو التفوق وأن يحلوا محل الأمم البحرية(٢٤) ويظهر لنا هنا مدى تأثير الأمم البحرية ، مثل الروم واليونانيين والفينيقيين وغيرهم على البحرية الإسلامية ، التي استمدت أصولها منها ثم طورتها بما يناسب العصر والبيئة .

كما وضع المسلمون أسماء للسفن بحسب اختلاف أشكالها وتباين أحجامها، فمنها ما صنعوه على أشكال بعض الطيور كالعقاب ، ومنها ما صنعوه على أشكال بعض الأسماك والحيتان والحيوانات كالفيل والأسد والفرس والدلفين . ومهما تعددت أشكال السفن فإنها لم تخرج عن كون جزئها الغاطس صمم على شكل الحوت(٢٥) .

لقد تطورت أسماء السفن في القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي بسبب إقبال الدول الإسلامية على الإكثار من إنشاء الأساطيل (العمارات) لصد غارات الأفرنج ، ومن أهمها ما يلي :

أولاً : (الشيني) وهو الزورق الكبير GALLEY، ويقابلها بالفرنسية GALESE، وفي الإيطالية GALERA . ويشك دوزي - فيما يذكر أحد الباحثين - في

أنها من أصل عربي ، وتوضحها المعاجم على أنها المراكب المعدة للجهاد وهي أقدم أنواع السفن ، وكانت من أهم القطع التي يتألف منها الأسطول الإسلامي أو الروماني ، لأنها كانت أكبر السفن وأكثرها استعمالاً لحمل المجاهدين . وكانوا يقيمون فيها أبراجًا ، وقلاعًا للدفاع والهجوم . كما أن متوسط حمولة الشيني ١٥٠ رجلاً ، ويجدف فيها بمئة مجداف ، وقد استمر اسم الشيني معروفًا حتى عهد الدولة العثمانية(٢٦).وقامت الشواني بزيارات متكررة لميناء (وقور) بجوار تونس ، وقد انشأ عبيد الله المهدي(٢٧) دار الصناعة بالمهدية عام ٣٠٣هـ / ٩١٥م ، وشيد بها تسعمائة شونة(٢٨) .

ثانيًا : (الطراد) وهي سفينة صغيرة سريعة ، تعد من المراكب الحربية الأكثر شبهًا بالبرميل الهائل من السفينة ، وكانت تستعمل في حمل الخيول والفرسان ، وأكثر ما يحمل فيها أربعون فرسًا ، واستعملها الإفرنج فأطلق عليها الأسبان اسم TARIDA وأطلق عليها الإيطاليين اسم TARTANA والفرنسيون TARTAN(٢٩) .

ثالثًا: (الشلندي) هي مراكب حربية كبيرة ولها أهمية في الأساطيل لا تقل عن الشيني، وأصلها في اللاتيني CHELANDIUM ومعروفة عند العثمانيين باسم (ماعونه) التي يعرفها البنادقة باسم MAHON ولها ساريتان أو ثلاث، ويبلغ طولها ١٩٥قدما وعرضها ٣٣قدما ، ومجهزة بـ ٢٤ مدفعا ، وحمولتها ٦٠٠ شخص.

رابعًا : (الجلاسة) تعريب لفظ GALEASSE الفرنسية ؛ وهي نوع من السفن الحربية الكبيرة تسير بالشراع والمجاديف وهي أثقل وأقوى من الشيني ، كانت شائعة الاستعمال في البحر المتوسط ، وقد عرف القرطاجيون والرومانيون وغيرهم، وبقيت إلى عهد الدولة العثمانية لم يتغير شكلها(٣٠).

وقد فقد المسلمون سيطرتهم على البحر المتوسط ، منذ قيام الحركة الصليبية ، وتمكن الغرب المسيحي من السيطرة على سواحل هذا البحر وجزره وتجارته حتى أصبح بحراً أوربيًا ، وورث الأيوبيين والمماليك في مصر والشام ،

وواصلوا سياستهم نحو اخراج الصليبيين من اماراتهم الباقية على الساحل الشامي ، حيث عكا وطرابلس وانطاكية وما تبعها من قلاع وثغور ، إلا أن المماليك كانوا فرسانا قوتهم برية في أساسها ، بالإضافة إلى أنهم عانوا عجزاً كبيراً في مواد بناء الأساطيل ولاسيما خشب السفن ، فأشجار السنط الموجودة في جنوب الدلتا وصعيد مصر وشبه جزيرة سيناء قد نضبت(٣١) فضلاً على كراهيتهم للحروب البحرية إذ كانوا في أواخر الدولة الأيوبية يرغمون عليها ، هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى كان سوء معاملة الدولة للبحارة في الأسطول ماديًا واجتماعيًا سببًا في اعراض الكثيرين عن العمل البحري(٣٢) على أن هذه العوائق في مجموعها تعني أمام بعض سلاطين المماليك الذين أنشأوا بعض الأساطيل لمواجهة الخطر الصليبي الكائن في جزر البحر المتوسط ولاسيما قبرص . ولقد إهتم السلطان الظاهر بيبرس (٦٥٨ - ٦٧٦هـ / ١٢٦٠ - ١٢٧٧م) بإنشاء قوة بحرية لمواجهة أعدائه(٣٣) كما استطاع السلطان الأشرف خليل بن قلاوون أن يحقق انتصاراً بحريًا على الصليبيين في سنة(٦٨٣هـ / ١٢٩١م) ، وأن يخرجهم من آخر معاقلهم في عكا ، ويطهر بلاد الشام من آخر فلولهم(٣٤) .

فيما بعد أهمل سلاطين المماليك أمر الأسطول وركزوا اهتمامهم على تنمية مواردهم الاقتصادية ، والممثلة في المتجر السطاني .. مما أفسح المجال للعالم المسيحي ليضطلع بمهمة السيطرة على البحار بوجه عام والبحر المتوسط بوجه خاص ، فأخذت الدول والإمارات الأوربية على الأخص الأمة اليونانية تشييد الأساطيل ، وتبني السفن في ظل غياب المسلمين .

التكتل الصليبي وأثره على مسلمىأسبانيا والساحل الشمالى الأفريقى:

ظلت شبه الجزيرة الإيطالية منقسمة إلى دويلات صغيرة ، ولذلك استطاعت الدولة الوطنية الحديثة التي تكونت في فرنسا أن تجد في شبه الجزيرة الإيطالية مكانًا لتوسعها ، ونشأت في أوروبا ضرورة محاولة المحافظة على التوازن بين الدول ، ومنع أحداها من النفوذ المطلق في شبه جزيرة إيطاليا ، وذلك بتكتل بعضها مع

بعض ، مرة إلى جانب فرنسا ، ومرة أخرى إلى جانب أسبانيا . ومن ثم تركز الصراع بين أسرة هبسبرج(٣٥) ، التي قوي بأسها بمجيء شارل الخامس امبراطوراً في ٩٢٥هـ / ١٥١٩م ، وبين أسرة فلوا(٣٦) .

وختم الصراع بمعاهدة كاتو كمبرسيس CATEAU - CAMBRESIS سنة ٩٦٧ هـ / ١٥٥٩م وانتهت بالتفوق الأسباني في أوروبا(٣٧) وزاد العدد الإجمالي للسفن الحربية التي تعتمد عليها أسبانيا ، إذ أنطوى تحت لواء الأسطول الأسبانى سفن نابولي وصقلية وجنوه وفي بعض الأوقات كانت تنضم إليها سفن موناكو وسافوي وتوسكاني ومالطة ، كما كانت تستأجر بعض السفن عند الحاجة(٣٨) . إن انضمام سفن تلك الإمارات الإيطالية إلى أسبانيا أنعش الأسطول الأسباني وزاده خبةه وأكسبه أهمية نظرًا لما تتمتع به تلك المناطق من خبرة بحرية متأصلة .

وقد كان من نتائج معاهدة كاتو كمبرسيس على حوض البحر المتوسط ، تحول نظر فيليب الثاني(٣٩) ، بعد هذه المعاهدة إلى أسبانيا ، فاتخذ مقره فيها ، بعد أن كان بالأراضى المنخفضة ، وفي أسبانيا وجه فيليب الثاني قوته إلى اضطهاد البقية الباقية من مسلمي الأندلس الذين كانوا ينبوع ثروة البلاد الصناعية ، وسل سيفه على رقاب المسلمين هناك ليكرههم على التنصر . وقد حدثت في حوض البحر المتوسط بعض الأحداث ، التي أثارت الأسبان عليهم ، وذلك أن المجاهدين البحارة أغاروا على سواحل أسبانيا لنجدة اخوانهم المسلمين ، فأرسل فيليب حملتين ضدهم لم يكتب لهما النجاح ، كذلك حاصر الأتراك العثمانيون مالطة في سنة ٩٧٣هـ / ١٥٦٥م ، ونتجة لذلك صدرت قوانين في أسبانيا باضطهاد المسلمون الذين يكتمون إسلامهم ، وأخذ فيليب يسفك دماء الرجال والنساء والأطفال ويشتت بعضهم في براري أسبانيا المجدبة ، حتى تم طردهم نهائيًا منها . وكان فيليب قد عهد للقضاء على مسلمي أسبانيا إلى أخية دون جوان ، فلما تم له ذلك كلفه بتخليص قبرص من الأسطول العثماني ، فلما فشل في ذلك استنجد

بعض القوي المسيحية ، خاصة تلك التي تمتلك سفنـًا حربية ولها خبرة في هذا المجال(٤٠) ولعل ذلك يدل على أن أسبانيا لاتستطيع أن تحقق انتصاراً بحريـًا إلا بمساعدة القوى البحرية الأخرى ، مما يؤكد ضعف امكانياتها البحرية وخاصة في مجال الخبرة .

تطور الأساطيل المسيحية وأثره في المواقع البحرية :

كان الأسطول المسيحي في القرن السادس عشر عبارة عن مجموعة من سفن شراعية وسفن الغاليوت ، فضلاً على سفن ضخمة مساعدة تستخدم لتقديم الإمدادات ، لذلك يمكن اعتبارها سفن حربية لأنها تحمل السلاح . وقد بلغ عدد تلك السفن لذلك الأسطول قبل موقعة جربة عام ٩٨٦ هـ / ١٥٦٠ م مائة وأربعة وخمسين سفينة حربية من بينها سبع وأربعون سفينة شراعية وأربع سفن غاليوت ، وهي تمثل نسبة سفينة شراعية واحدة لكل ثلاث سفن تجديف ، وبالإضافة إلى السبع والأربعين سفينة سابقة الذكر وكان هناك أسطول آخر مهمته القيام بواجب الدفاع عن الساحل الأسباني لم يشارك في حملة جربة وحوالي عشر سفن تخص فرسان مالطة وتوسكاني وجنوه وسافوي(٤١) .

إن التدابير التي اتخذها فيليب الثاني لانتزاع جربة ، التي يساعدها في تقديره قوة الاحتياطي ، إذ اعتقد فيليب في شوال ٩٦٨هـ / يونيو ١٥٦٠م - وهو يقدر سفنه الشراعية المحتملة - أن هناك أربعـًا وستين سفينة شراعية . وهذا العدد يمكن أن يكون صحيحـًا ولكنه يتضمن عشرين سفينة شراعية هربت من (جربة) . لهذا فإنه إذا أضفنا الأربع والأربعين سفينة الأخرى إلى السبع والأربعين الموجودة في الحملة ، فإن المجموع سيكون واحداً وتسعين سفينة شراعية . أن العدد الإجمالي للسفن الحربية ، التي اعتمدت عليهما أسبانيا بعد معاهدة كاتو كمبرسيس عدد كبير ، لكن كارثة جربة(٤٢) خفضت العدد إلى أربع وستين سفينة ، ويبدوا أنه فقد عدد كبير من السفن المسيحية عند جربة ، حيث وقع معظمها في أيدي المسلمين ودخللت في خدمتهم ، مما شكل خطراً على البحرية المسيحية .لذلك

كان رد الفعل في دار الأسلحة الإيطالية سريعًا ، ففي صقلية فرضت ضرائب جديدة للقيام بإنشاءات بحرية . أما نابولي فقد بنت سفنًا شراعية جديدة حلت مكان السفن المفقودة في جربة . وفي نفس الوقت كان مديتشي دوق فلورنسا يزيد من مجهوداته البحرية ، كما كان يفعل دوق سافوي ، ووصلت خطابات تأييد إلى فيليب الثاني ، أنه باستطاعته أن يستأجر سفنًا شراعيه من جنوه ، وفي هذه الأثناء كان أندريا دوريًا يعيد بناء أسطوله الخاص إذ أنه اشترى سفينتين شراعيتين من الكاردينال سانتا فيور SANTAFIORE (٤٣) .

نتبين من خلال ذلك مدى خشية حكام الدول الكاثوليكية من استئناف الهجوم العثماني ، فأخذوا في تحديث قواتهم المسلحة في وسط البحر الأبيض المتوسط . كما أعد فيليب الثاني برنامجًا كاملاً لبناء التحصينات(٤٤) مما أدى إلى ضخامة الأسطول المسيحي بصفة عامة ، والأسباني بصفة خاصة ، إذ اعتمدت أسبانيا في تنمية مقدرتها البحرية على الشعوب اليونانية التي لها خبرة واسعة في هذا المجال ، فضلاً عن حقد البعض على الإسلام والمسلمين ؛ إذ سبق للعثمانيين أن استعانوا باليونانين وبغيرهم من الأمم البحرية في إنشاء الأسطول العثماني .

هكذا تطورت صناعة السفن المسيحية نتيجة اندماج خبرة أهالي البحر المتوسط وأوربا الشمالية ، حيث أنتجوا سفنا تلائم ، بدرجة كبيرة ، المحيطات الهائجة في الشمال والغرب حيث أنها سفن قوية وقصيرة وسهلة الملاحة نسبيًا كما تحتاج إلى عدد قليل من البحارة حيث تسير بصار واحد ذي شراع مربع الشكل. أما دول البحر المتوسط فإنهم طوروا سفنهم ذات المجاديف ، فأصبحت تتصف بطولها وخفتها وحاجتها إلى عدد كبير من المجدفين لاستخدامهم في الجو الهادئ أو عند دخول أو مغادرة الميناء . فمثلاً سفن البندقية كانت تقوم برحلات منتظمة لانجلترا والفلاندرز(٤٥) وكانت المساحة المستخدمة للبحارة والمؤن الضرورية لمعيشتهم كبيرة مما يترك حيزا صغيرا للشحن ، وبناء على ذلك استخدمتها دول

البحر المتوسط لنقل الشحنات الكبيرة نوعًا فسيحًا من سفن شمال أوروبا. كما قاموا بوضع تحسينات وذلك بإضافة صاري أو مجموعة سواري ، كما أضافوا ، أيضًا ، إلى سفنهم شراعًا مثلثًا كالمستخدم في السفن الشراعية العربية، علاوة على الأشرعة المربعة . ولقد كانت تلك النماذج قد ظهرت في منتصف القرن الخامس عشر ، حيث نتج عنه السفينة الشراعية بارك BARQUE التي أفادت في التوسع والاستعمار الأوربي . ثم طور البرتغاليون هذه السفينة وانتقلوا من بارك إلى سفن الكرافل CARAVEL ، وهي سفينة تصل حمولتها إلى سبعين طنًا ، ومنها تطورت إلى سفن الكراك CARACK ، والتي تبلغ حمولتها ألفي طن. وكانت عملية الكشوف تحتاج إلى سفن صغيرة ، حيث أنها تبحر بالقرب من الشواطئ والخلجان الضحلة ، لكن بعد حركة الكشوف احتاجت أوروبا إلى السفن الكبيرة وذلك لنقل البضائع والجنود ورجال الإدارة . وكان التطور التقني البحري في القرن السادس عشر أظهر تقدمًا بطيئًا عما مضى(٤٦) وذلك نتيجة للتبادل الثقافي البحرى بين شعوب البحر المتوسط وأوروبا الشمالية الأمر الذي أدى إلى التفوق البحري لأوروبا المسيحية فتمكنوا من السيطرة والاستعمار لقارات العالم ، في الوقت الذي تفرغت فيه الدولة العثمانية للدفاع عن الأراضي الإسلامية وفتح القارة الأوربية ، نجد إنحصار اهتمام الدولة في صناعة الأسلحة البرية وسفن البحار المغلقة ، فأصبح العثمانيون بذلك غير متكافئين في العدة مع النصاري ، لاعتمادهم على السفن التقليدية مثل الشواني والبرجا(٤٧) .

أثر نهضة بحرية البندقية على نهضة البحرية العثمانية :

ترجع نشأة الأسطول العثماني إلى رغبة الدولة العثمانية في القضاء على أسطول جمهورية البندقية ، والتي استحوذت على أجزاء كبيرة من ممتلكات الدولة البيزنطية ، وذلك مقابل الخدمات التي قدمتها البندقية للحملة الصليبية الرابعة ، حيث اتجهت إلى القسطنطينية وأطاحت بحكم الدولة البيزنطية ، التي استقرت مؤقتًا في طرابزون على الساحل الجنوبي للبحر الأسود . كما كونت البندقية

بعض الجزر والمواقع في شبه جزيرة البلقان كانت لاتزال تحت سيطرة الدولة البيزنطية والدولة اللاتينية . لذلك لم يكن في مقدرة الدولة العثمانية قهرها دون أن يكون لديها سلاح بحري ، وفي نفس الوقت كان فتح الممتلكات البيزنطية واللاتينية أمراً ضرورياً لسلامة الممتلكات العثمانية . وهناك عامل آخر حمل العثمانين على إنشاء أسطول يتمثل في أن البندقية منها العقبة الرئيسية في تأمين الفتوحات العثمانية في أوروبا وفي الجزر القريبة منها وفي الحوض الشرقي للبحر المتوسط ، لذلك كان بناء الأسطول العثماني ضرورة حتمية للتغلب على أسطول جمهورية البندقية(٤٨) .

لقد كانت البندقية ، من القرن الحادي عشر إلى القرن السادس عشر الميلادي ، أعظم دول البحر الأبيض المتوسط ، وغدت تملك البحر الأدرياتيكي وأصبحت سيدة بحار الشرق فبلغت طيلة تلك الحقبة أقصى درجات الغنى والرخاء . ويرجع ذلك لتضافر عدة أسباب أبرزها نمو الحياة الاقتصادية فيها نمواً عظيماً وازدهار واضحاً .

وقد كانت البندقية مدينة تجارية كبيرة توجه سكانها وبشغف نحو البحر ، إذ ضربت الدولة لهم المثل فى ذلك ، ففي بداية القرن الحادي عشر أنشئت دار الصناعة البحرية وأخذت تتوسع تدريجياً على مر الوقت ، ومع اتقان العلم بالمستحدثات والمخترعات اللازمة أصبحت تبنى فيها السفن من مختلف الأنواع فأنشئت السفن الحربية كالغلايينGALEES الطويلة السريعة والتي يسيرها صفان من المجدفين ، والسفن ذوات الطبقات الثلاث والأربع التي يطلق منها الرماة سهامهم والمدافع التي تقذف الحجارة ، هناك أيضاً ، نوع من السفن المسمي بالقطط CATT ، وهي أكبر الغلايين المزودة بآلات حربية قوية والتي يدفعها مئتي جداف .

أما السفن التجارية ، فقد كانت أقل نسبياً في شكلها وأغلبها شراعية ، وأكبر حمولة وأعلى جانبًا وأبطأ سيرا . ولقد اهتمت الجمهورية بها إذ حرصت

على أن تشرف على بناء السفن حتى ما كان يبنى منهـا لحساب الأفـراد . فكـان يشترط في كل سـفينة تبـني علـى أرض البندقيـة أن يكـون لهـا مواصفـات معينـة ، وبذلك أمكن الحصول على وحدات السفن التجارية ، التي تسمح في وقت الحرب بتحويلها إلى سفن حربية . ومن ثم بتكوين أساطيل عدة متجانسة تمامًا(٤٩).

والحق أن جمهورية البندقية ، وهي قوة غربية وافدة من وسط أوروبا تسللت إلى عدة مناطق في الحوض الشرقي للبحر المتوسط ، كان لها مراكز محطات بحريـة على ساحل البلوبونيز (المورة)(٥٠) وهي مودون MODON وكـورونCORON ونابليـا NAUPLIA وكورنثـة CORNTHE ، وفي بحـر الأرخيـل نجريبـون VAGREPONT وأنـدروس ، ANDROS وخيـوسCHIOS ، ولمنـوس ، LEMONS ، والميروس ALMYROUS على خليج فوفو ;VOLOK, SHG,KD THESSALONIQUE في مقدونيـة ، وابيـدوس ، ABYDOS في الدردنيـل ، ورودستو RODOSTO على بحر مرمرة . وبذلك وصلت البندقيـة للقسـطنطينية ، حيث أصبح لهم حي بأكمله ، بل ذهبت سفن البنادقة إلى أبعد من ذلك إلى القـرم الأسود ، وحتى طانا عند طرق بحرازوف(٥١) . ومن ثـم فقـد تضـاربت أهـداف الدولة العثمانية مع مصالح البندقية ، مما أدى إلى قيام صراع حربي بينهمـا . وكـان هذا الصراع يدور فوق سطح المياه ، حيث يعتمـد علـى الأسـاطيل . ولمـا كـانت البندقيـة أسبق مـن الدولـة العثمانيـة في الاعتمـاد علـى الأسـاطيل الحربيـة ، بـل والأساطيل التجارية الـتي تتحـول إلى أسـاطيل حربيـة ، وعليـه كـان علـى الدولـة العثمانية أن تبذل عناية بالغة بإنشاء أساطيل تنافس البندقية ، فاستقدمت من الدول المطلة على البحار أمهر الصناع والمهنيين في هذا المجال ، حيث نقل السلطان سـليم الأول من مصر ، ضمن من نقلهم من القسطنطينية ، أمهر الصناع في بناء السفن ، مما جعل دور الصناعة المصرية تغلق أبوابها(٥٢) ، بالإضافـة إلى خليـط مـن سـكان شمالي أفريقية والعناصر البلقانية ، التي اعتنقت الإسلام ، حيث عملوا جميعًا في بناء الأسطول العثمانى ، الذى أصبح يضـم عدداً كبيراً من البحارة اليونانيين المسـيحيين وعدداً من بحارة شبه الجزيرة الإيطالية الذين اجتذبتهـم الغنـائم الكبـيرة الـتي كـانوا

يحصلو عليها أثناء خدمتهم في الأسطول العثماني(٥٣) . كما شجعهم السلطان ، الذي يمتلك ترسانات عظيمة فى أسطنبول وغاليبولي وفي موانيء أخرى على سواحل بحري إيجة والمتوسط . كما أن الأخشاب كانت متوفرة في آسيا الصغرى(٥٤) بالإضافة إلى استفادة الترسانة العثمانية كثيراً من بحرية البندقية ومن خبراتها في هذا المجال(٥٥) .

مقومات الأسطول العثماني وتطوره :

لقد إستطاعت الدولة العثمانية أن تنشئ أسطولاً ، لم يلبث أن تفوق وقفز إلى مصاف أساطيل الدول الكبرى ، في حوض البحر المتوسط . وأثبتت الدولة أنها تمتلك الكثير من مقومات الدولة البحرية ، فبنت السفن بأنواعها المختلفة التجارية منها والحربية ، المجدافية منها والشراعية ، كما تعددت الأنواع وتنوعت المهمات وأصبح لكل سفينة اسم ووظيفة ، ومن أهمها « الشانية » التي استعملها المسلمون والنصارى على حد سواء في حروبهم ، كما اختلف مسميات السفن المجدافية حسب عدد الجدافين من جهة وحجم السفينة وسرعتها من جهة أخرى(٥٦) ، ومن أشهرها :

(أ) السفن الصغيرة

١ - UCURMA (أوجورما) وتعني السفينة الطائرة نظراً لخفتها وسرعتها(٥٧).

٢ - VARNA BES CFJTELERI وهذا النوع أيضًا من السفن الخفيفة.

٣ - KARA MURSEL (قرة مرسل) وهي من أنواع السفن التجارية المعروفة باسم (جكدري) CEKTIRI التجارية وتعمل بين اسطنبول وسواحل بحر مرمره ، وتسير بواسطة المجاديف وأحيانًا بالأشرعة(٥٨) .وكانت سفن جكدري قد عرفت في القرن السادس عشر الميلادي ، وهذه السفن تشبه (غالي) والتي تستعمل في دول غرب أوروبا ، وجكدري تعني في الأصل السفن التي تتحرك بالمجداف ، وهي تصنف في أوقات الحرب حسب حجمها(٥٩) .

٤ - ATARMA (آقتارما) هـي مـن سـفن النقـل النهريـة ، والمسـتخدمة في نهـر الطونة ، وكانت تصاحب الأسطول أثناء الحرب ، ويوجد في نفس الوقـت ، منها أعداد احتياطية(٦٠) .

٥ - USTUACIK (أوستي آجيـق) هـي مـن سـفن نهـر الطونـة غـير مسـقوفة ، ويسيرها مجدفون ثمان ، وبلغ عددها ، في القرن الثامن عشـر الميـلادي ، مائـة سفينة تستخدم للنقل(٦١) .

٦ - CETEKAYIGI(جته قايغي)، وتستخدم هذه السفن لنقل المدافع(٦٢) .

٧ - BROLIK (برولك) من أنـواع السـفن الخفيفـة ، الـتي تبحـر في الميـاه الغـير عميقة ، وتحمل مقاتلون سبع من طائفة اللوند(٦٣) .

٨ - CELIYYE (جلية) هي من السفن الخفيفة ، التي تستخدم في الأنهر الصغيرة والكبيرة(٦٤) .

٩ - CAMLICA(جامليجـه) هــي مــن أنــواع سـفن النقـل العاملـة في نهـر الطونة(٦٥) .

١٠ - KUTUK (كوتوك) هي من السفن التي تستخدم في نقل البضائع والجنود ، وتبحر في المياه غير العميقة ، وتعرف أيضـًا باسم ORTA KA YIKTVR ، أي القارب المتوسط ، وهي تسير بواسطة المجدفين أو الشراع(٦٦) .

١١ - AT - KAYIGI (قارب الحصان) هي من أنواع سفن المونا ، ولكنها أصغر حجمـًا ، وداخلها مؤثـث ، وكـانت مقدمتهـا ومؤخرتهـا مدرجـة ، وذلـك لإدخال وإخراج الدواب ، ولها أربعة أعمدة ، أثنان في المقدمة ، وأخريـان في مؤخرتهـا ، وهـي تسـتخدم لنقـل جنـود الخيالية بـين جـردق CARDAK وغاليبولي .

١٢ - KANCABAS (قنجـه بـاش) سـفينة (الخطـاف) هـي مـن أنـواع السـفن الخفيفة ، التي تجوب السواحل(٦٧) .

١٣ - SAYKA (شيقه) هي من القوارب الكبيرة المسطحة ، ولقد استخدمتها الدولة في أنهار أوزي، OZI دينبار DINYEP والطونة، وذلك لحماية شطئانها .

١٤ - ISKAMPAVYE (اسكامبرية) هي من السفن الخفيفة العاملة في نهر الطونة.

١٥ - SAHTUR (شاه تور) هي من السفن الخفيفة المستخدمة في نقل الأمتعة في نهر الفرات في العراق(٦٨) .

١٦ - KIRLANGIC (قير لانغج) هي من السفن الخفيفة ، التي تحمل فرقة عسكرية صغيرة ، وتستخدم في خدمة الشرطة وتشارك في المعارك الحربية . وهناك نوع آخر من نفس الفصيلة تسمي (KIRLANGIC KEBIR-I NEV ICAD) ، وهي تستوعب مائة فرد ، منهم خيال ، وأثنان برتبة رئيس، ورجل لخدمة الشراع ، وأغا ، ومدرس ، ووكيل للمستودع(٦٩) .

١٧ - FRIKATE (فريقته) هي من فصيلة جكدري الخفيفة ، إذ يبلغ عدد مقاعدها ما بين ١٠ - ١٧ مقعد ، ويحرك بمجدافها شخصان أو ثلاث ، وهي تسير في الأنهار أيضًا ، وبلغ عددها في أوائل القرن الثامن عشر ، في نهر الطونة ، خمسًا من النوع الكبير وثمان وعشرين من الصغير ، وتستوعب الصغيرة ، في وقت الحروب ، ثمانين مقاتلاً ، وفي أواخر القرن الثامن عشر عين على السفينة رئيس ، ومرشد ، ونجار ، ورئيس المدفع ، وبلغ عدد العاملين عليها سبعين شخصًا(٧٠).

١٨ - KALITE (قاليتا) هي من السفن الخفيفة أيضًا ، وتتكون من ١٩ إلى ٢٤ مقعداً ، وطولها ثلاثًا وثلاثين ذراعًا ،وبلغ عددها في نهر الطونة ، في أوائل القرن الثامن عشر ، تسع عشر سفينة وهي تستطيع أن تستوعب في الحرب مائتين وعشرين مقاتلا ، كما يمكن أن تستخدم في تعقب سفن العدو ، لذلك وضع في مقدمتها مدفع(٧١) .

(ب) السفن الكبيرة :

١ - MAVNA (المونا) فهي شـانية كبيرة وثقيلـة وتسـتعمل في الأغـراض التجارية واستخدمتها الدولة العثمانية في أسطولها كسفينة للتزويد وتتحرك بواسطة المجدافين(٧٢) . وكان لها ٢٦ مقعداً ، ومجدافها مزدوج ، ويحرك المجـداف الواحـد سبعة أفراد ، ومكونة من طابقين ، وهـي أمنين مـن(قادرغـة) إذ يبلـغ طولهـا ٦٥ ذراع ، وبها ٢٤ مدفع يديرها ٣٠ مدفعجـي ، ويبلـغ إرتفـاع مؤخرتهـا عشـرين شبراً ، ومقدمتها أثنى عشر شبرا ، وكان يجلس بـين كـل مجـداف ثـلاث مقـاتلين ومجموعهم مائة وخمسون مقاتلاً ، وثلاثمائة وأربع وستون مجدفـًا ، وعـلاوة علـى رئيس وأربع موجهين للدفة ، إضافة إلى عشرين مهني (نجـارين وشـراعيين) . ولمـا ألغيت المجاديف في هذا النوع واستعملت الأشـرعة ، كـان يحتفـظ في كـل واحـدة منها بشراع أو شراعين من النوع المستورد(٧٣) .

٢ - GIRAB(غـراب) وتمتـاز هـذه السـفينة بطولهـا ومقدمتهـا الحـادة ومجاديفهـا تخـرج مـن خـلال ثقـوب علـى جوانبهـا ، وهـي مـن أنـواع قادرغـة KADIRGA وتشبهها في أعمدتهـا ، وتسـير هـذه السـفن مـابين البصـرة وخليـج عمان، كما أن بعضها يستخدم في السواحل الهندية كسفن تجارية ، وللغراب جزء مرتفع عن سطح السفينة وذلك لحماية الجنود من سهام ورصاص العدو(٧٤).

٣ - KADIRGA (قادرغه) وتعرف بغـالي ، الـتي تسـتعمل في دول غـرب أوروبا(٧٥) ، وهي تنقسم إلى نوعين :

١ - ZAKALA(زقلة)　　٢ - BEY KADIRGALARI (وبيك قادرغه).

وكان النوع الأول منها تبنيه وتديره الحكومة ، أمـا النـوع الثـاني فيشـيدها بكوات وأمراء البحر . وكانت قادرغة تشكل أساس الأسـطول العثمـاني ، حـتى انتقال الأسطول من سفن التجديف إلى السفن الشراعية ، وكانت تتكون مـن ٢٥ مقعداً و ٤٠ مجدافـًا ، ويحرك كل مجداف أربعـة أو خمسـة مجدفـين ، كمـا كـانت

طويلة وضيقة ، وسريعة ، ويبلغ طولها من ١٦٥ إلى ١٦٨ قدم(٧٥) . وعرضها ما بين ٢١ إلى ٢٢ قدمًا وإرتفاع مؤخرتها ١٨ شبراً ومقدمتها ١١شبراً ، ويتكون طاقم (القادرغه) من قبطان خبير في استعمال البوصلة ، ورئيس تحت إمرته ٢٠ فرداً من المهنيين ، واثنان موجهين لدفة السفينة ، ورئيس للشراع تحت خدمته ٣٥ بحاراً ، و١٩٦ بحدافًا ، ومائة مقاتل ، ومجموعهم ثلاثمائة وثلاثون فرداً ، ويوجد على كل قادرغه في أواخر القرن الخامس عشرة مدافع كبيرة ، وأربع قاذفات ، وثمانية مدافع صغيرة . وكانت الدولة تشيد أربعين قادرغة في كل سنة - وهذا قانون ملزم على الدولة - وبعد انتشار السفن القاليونية ، في أوائل القرن الثامن عشر ، فقدت سفن (قادرغة) أهميتها في الأسطول العثماني ، وتركت مهمتها للقاليونات ، لذلك بدأت صناعتها تقل في عهد السلطان أحمد الثالث ، ١١١٥ - ١١٤٣هـ / ١٧٠٣ - ١٧٣٠ثم توقفت في عهد السلطان عبد الحميد الأول ١١٨٨ - ١٢٠٤ / ١٧٧٤ - ١٧٨٩م ، بينما استمرت في صناعة KAPTAN PASA BASTARDESI وهي (قبضات باشا باشتارده) من أنواع قاروغة(٧٦) .

٤ - BASTARDE(باشتارده) هي من سلالة سفن (قادرغة) وهي نوعان: الأولى متوسطة الحجم وعدد مقاعدها ٢٦ إلى ٣٠ مقعداً ولها بحداف مزدوج ، ويحرك المجداف ما بين خمسة وسبعة بجدفين ، أما الثانية ، فعدد مقاعدها ٢٦ مقعداً، وهناك أيضًا (باشتارده القيادة) يبلغ طولها من ٧٠ إلى ٧٢ ذراعًا ، ويحرك بجدافها الواحد سبعة بجدفين ويبلغ عدد المجدفين ٥٠٠ بجدفًا ، و٢١٦ مقاتلا ، ومجموع العاملين ، ٨٠٠ فرداً ، ويجلس ما بين كل بجداف ثلاثة مقاتلين ، وعلى مؤخرتها فوانيس(٧٧) . وعلى مقدمتها ثلاثة مدافع ، وأربع على جوانبها ، بالإضافة إلى خمس مدافع خفيفة . وكان القبودان باشا يركب سفينة باسم (PASA BASTARDE)(باشا باشتارده) ، التي لها ٣٠ مقعداً ، وذلك في فترة السلم والحرب ، حتى شهر ربيع الثاني من سنة ١١١٣ هـ سبتمبر ١٧٠١م ، بعد ذلك ركب قبودان باشا سفينة تعرف باسم BAS KAPUDANE(باش

قبودانه) وذلك في أثناء الحرب ، واستمر ركوبهم على PASA BASTARDE في أوقات السلم(٧٨).

٥ - BASTARDE- I HUMAYUN (باشتارده همايون) ، وهي من أنواع BASTARDE(باشتاروه) ، إلا أن لونها كان أخضراً ، وكان السلطان سليمان القانونى ٩٢٧ - ٩٧٤هـ / ١٥٢٠ - ١٥٦٦م قد أنشأوا ترسانة في حديقة قصره بإسطنبول ، وصنعت له فيها سفينة (باشتارده) خضراء اللون ، واستمر على نهجه إبنه سليم الثاني ٩٧٤ - ٩٨٢ هـ / ١٥٦٦ - ١٥٧٤م وحفيده مراد الثالث ، ٩٨٢ - ١٠٠٤هـ / ١٥٧٤ - ١٥٩٥م ، وذلك بغرض الجهاد(٧٩) .

هكذا طورت الدولة العثمانية أسطولها الحربي مستفيدة من الأمم ، التي سبقتها في المجال البحري ، حيث أقبلت ، في منتصف القرن السابع عشر على بناء سفن شراعية ، كبرى مزودة بالمدافع ، غير أن هذا التطوير كانت قد سبقتها إليه فيه الدول الكبرى ، التي تبحر سفنها في المحيطين الأطلنطي والهندي ، بعد أن اتضح لهذه الدول أنه لاقيمة للسفن ذات المجاديف في المعارك الحربية(٨٠) ، لذلك أنشئت الدولة العثمانية السفن الشراعية .

وتنقسم السفن الشراعية إلى : سفن ذات عامودين ، وسفن ذات ثلاثة أعمدة .

أولاً – السفن ذات العامودين وأهمها :

١ - ATES GEMISI (آتش كميسي) وهي سفينة نهرية ، وتستخدم أثناء الحرب لإحراق سفن أسطول العدو ، حيث تملىء بالمواد الحارقة ، ويقذف البحارة بأنفسهم من مؤخرة السفينة إلى المياه وذلك عندما تقترب سفينتهم من سفن العدو ، بينما تنتظرهم قوارب من خلفهم مستعدة لحملهم(٨١) .

٢ - SALAPE(صالابـه) وهـذا الصنـف مـن السـفن الشـراعية الصغـيرة ، لذلك فليس بها مستودعات ، وهي تستخدم في الحرب ، ولها عـامودان ، وطولها ٢٧ ذراعـًا ، ويتكون طاقمها من رئيـس وشـراعي ورئيسـين آخريـن أقـل رتبـة ، ووكيل الكاتب ، وشاويش ، وموجه لدفة السفينة ، وأفراد آخريـن عددهـم ٤٣ ، ومجموعهم ٦٢ فرداً ، وبها أثنا عشر مدفعـًا(٨٢) .

٣ - BRIKE(بريـك) وهـي مـن السـفن الشـراعية ذات عـامودين ، ولهـا مستودع ، ولقد كانت من أسرع السفن في وقتها ، وأفرادها كـانوا نظـاميين لهـم مرتبات ثابته من الدولة، ويتكون أفراد طاقمها من ٩ رؤوساء ، ورئيس مدفعجية، ومعه ثلاثة مدفعجيين و٨ ضباط و٤ نجارين ، ومتطوعين يبلغ عددهم سبعين فرداً، عدا الأفراد المؤقتين الذين تستعين بهم الدولة فى أوقات الحرب(٨٣) .

٤ - USKANA(أوسكانا) طولها ٢٧ ذراعـًا وصنعـت عـام ١٢٤٦هـ / ١٨٣١م ، ويوجد عليها ١٦ مدفعـًا ، وعدد أفراد طاقمها تسعون فرداً(٨٤) .

٥ - SEHTIYE(سهتيه) ويقال لها SITYE(سيتي) وهي نوعان : كبـيرة ، وصغيرة ، وكان طول الصغيرة ما بين ٢٣ و ٢٧ ذراعـًا ، والكبيرة مـا بـين ٣٠ و ٣٥ ذراعـًا ، وكانت بعض السفن الكبيرة ذات ثلاثة أعمدة وتشكيل طـاقم هـذا النوع على النحو التالي :

رئيس أول	بادباني (شراعي)	رئيس ثاني	رئيس ثالث	رؤساء	آغا السفينة	وكيل مستودع	شاووش
١	١	١	١	١	١	١	٢

مرشد فلاووز	طبيب	سرطوبى رئيس المدفع	سوده غبوها أفراد المدفع	سومر الغز (نجار)	قلفات	جراق قلفات	جراق مرانفوز
١	١	١	١٤	١	١	١	١

يكون

٣٨ نفرات كديكليان (نظامي)
٥٠
ــــ نفرات لمشره « مؤقتين»(٨٤)
٨٨

وكان طاقم السفينة الكبيرة منها قد بلغ في أواخر القرن الثامن عشر ١٩٩ فرداً(٨٥) .

٦ - AGRIPAR (AGRIBAR) (أغريبار) : هي من أنواع السفن الكبيرة، وكانت تحمل في القرن الخامس عشر على ظهرها ١٣ مدفع SAYKA (شايكا) ، و٦ مدفع كبير ، و٤ قاذفات ، و١٦ مدفع صغير(٨٥) .

ثانيًا – السفن الكبيرة ذات الأعمدة الثلاثة :

١ - KORVET (كورفت) وهي من السفن الحربية لها ثلاثة أعمدة ، ومكونة من طابقين ، في الطابق العلوي كان يوجد بها مابين ٢٠ إلى ٣٠ مدفعـًا، وطولها ما بين ٣٣ إلى ٣٩ ذراعـًا ، وبلغ عدد طاقمها في بداية القرن التاسع عشر الميلادي ، ١٧٤ فرداً من ضباط وأفراد ومهنيين وبحارة ، عدا الأفراد المحاربين المؤقتين الذين يتقاضون رواتب لمدة ستة أشهر(٨٦) .

٢ - BARCA(بادجا) : هذا النوع من سفن النقل وتستخدم في أوقات الحرب ، ويتصف قاعها بأنه مسطح ، ومنها ما هو بعمودين ، وهي من فصيلة قاليون ، وكانت تحمل على متنها في نهاية القرن الخامس عشر الميلادي ٨٣ مدفعـًا مابين صغير وكبير(٨٧) .

٣ - KALYON(قاليون): هي من اسفن الحربية الكبيرة ، ذات شراع واحد ، وثلاثة أعمدة ، ويوجد بها مخزنان والبعض الآخر منها ثلاثة مخازن ، ويعمد من فصيلة (KALYON) القليون السفن الآتية أسماؤها BURTON BARCA, UCANBARLI, KAPAK, FIRKATEYN, KARAVELE, KARAKA, وكان على سطح القاليون ذات العامودين من ٦٠ إلى ٨٠ مدفعـًا ، وفي ذات الأعمدة الثلاثة ما بين ٨٠ : ١٠٠ مدفعـًا وهي من أنواع السفن التي

تسير في المسطحات المائية الواسعة ، ويبلغ طولها من ٤٣إلى ٦٦ ذراعًا وقد صنعت الدولة العثمانية KALYON قاليون لأول مرة في عهد السلطان بايزيد الثاني ، (٨٨٦ - ٩١٨هـ / ١٤٨١ - ١٥١٢م) وبلغ طولها ٧٠ ذراعًا وعرضها ٣٠ ذراعاً ، وبلغ عدد أفراد طاقمها ٢٠٠٠ شخص وعرفت باسم GOKE(كوكه) . أما السلطان سليمان القانوني فقد شيد سفنًا حربية KARAKALARI(كارك لري) البندقية والتي تزن ما بين ١٥٠٠ إلى ٢٠٠٠طن ، لذلك من الصعب تسييرها في الأوقات التي تكون فيها الرياح هادئة ، لذلك لم تكثر الدولة من صناعتها ، واتجهت لصناعة السفن التي تتحرك بواسطة الشراع والمجداف معًا(٨٨) .

٤ - FIRKATEYN(فرقطين) هي سفن شراعية ذات ثلاثة أعمدة ، ويبلغ طولها ما بين ٤٥ إلى ٥٥ ذراعًا ، وكان يوجد في مخازنها وسطحا مدافع(٨٩) ، بلغ عددها ما بين ٣٠ إلى ٧٠ مدفعًا ، وهي من السفن السريعة على الرغم من أن أفراد طاقمها وصل إلى ٤٥٠ فرداً ، من ضابط ، ومهنيين ، وبحارة ، وغيرهم(٩٠).

٥ - KAPAK VEYA LAYPAK(كابك وكايبك) هي من فصيلة سفن القليون الحربية ولها مخزنان وهي أقل أهمية من سابقتها ويوجد بها صنفان من المدافع في الجزء العلوي والسفلي ، ومجموع تلك المدافع مابين ١٠٠ و ١١٠ مدفعًا ، وعدد أفراد طاقمها ما بين ٨٠٠ إلى ١٠٠٠ فرداً ، وهناك صنف آخر في الدرجة الثالثة من الأهمية ، عدد مدافعها من ١٦٠ إلى ٧٨٠ مدفعًا وطاقمها يتكون من ٦٠٠ إلى ٨٠٠ فرداً(٩١) .

٦ - UC ANBARLI(أوج انبارلي): ولها ثلاث مخازن وهي من أكبر القليونات وقد بدأ انتشارها سنة ١٠٩٣هـ الموافق ١٦٨٢م وتوجد بها مدافع في المخازن وعلى السطح ، ويبلغ طولها ما بين ٥٩ إلى ٤٦ ذراعًا(٩٢) . وعدد مدافعها ما بين ١١٠ إلى ١٢٠ مدفعًا ، ومجموع أفراد طاقمها ٨٠٠ إلى

١٠٠٠فرداً(٩٢) . وقد توسعت الدولة العثمانية في إنشاء هذا النوع في القرن الثامن عشر الميلادى .

وهكذا توالت اهتامات السلاطين العثمانيين بأمور البحرية مستفيدين من امكانياتهم المادية والخبرات الموجودة على أرضيهم أو ممن يستفيدون من الامتيازات الممنوحة لهم ، وبذلك تطورت السفينة الحربية العثمانية ، لمواجهة الأساطيل الأوربية وحماية سواحلها .

المناصب البحرية :

لقد أنشأت الدولة العثمانية عدة مناصب بحرية ، كما وضعت تنظيمات مختلفة لإدارة دفة ذلك الأسطول ، حتى تواكب روح العصر ، الذي انتقل فيها التوازن العسكرى الدولي من البر إلى البحر ، ويأتي على رأس تلك المناصب .

قبودان دوريًا وهو القائد العام للأسطول ، وقد نشأ هذا المنصب بعد قليل من قيام الدولة العثمانية وبعد أن صار لها حدود بحرية إذ دعت الحاجة لإنشاء سفن حربية وسفن تدريب ، وكان لكل سفينة حربية رئيس منح وبمرور الزمن لقب باشا وصار يطلق عليه قبودان باش ، وقبودان مشتقة من كلمة إيطالية ، ثم حرفت إلى قبطان وكان القبودان باشا يجمع في القرون الأولى لنشأة الأسطول بين منصبين ، القائد العام للأسطول ، وحاكم ولاية ، ويطلق ، عليه بصفته الأخيرة بيلربك ، وكان يعقد جلساته في مقر ديوان البحرية ، وكان معظم اختصاصات الوالي إذ كان مسؤولا عن الأمن العام فى المناطق التي أسندت إليه(٩٣) . مثل خير الدين بربروسا بيلربك الجزائر وابنه حسن وغيرهم .

أما قبوادنه(KAPUDANE) وهو اسم أميرال في البحرية العثمانية ، فإنه يأتي بعد قبودان باشا في الترتيب ، والتي توازي رتبة فريق أول ، وكان يحمل عصًا خضراء ، ويركب سفينة خاصة به اسمها قابودانه همايون ، وقد ظهر هذا المنصب سنة ١٠٩٣هـ / ١٦٨٢م(٩٤) . ويلي قبودانه في المنصب

باطرونا(PATRONA) وهو لقب مأخوذ من كلمة اللاتينية وله سفينة خاصة به تسمى باطرونا همابون(٩٥) . ثم يلي هؤلاء في التسلسل الإدارى رياله(RIYALE) ، وهو يوازي في الرتبة لواء أميرال ، ويرفع علمه على العامود الثالث في السفينة ، والمعروف باسم عامود الميزان(ميزانه دركي) ، وهؤلاء جميعًا مسؤلون عن انضباط شؤون الترسانة .

لقد ظل ذلك الترتيب الإداري معمولا به حتى سنة ١٢٧١هـ / ١٨٥٤م ، ثم تحولت تلك الرتب على نظام الراتب فوظيفة « قابودانه » صارت رئيس باشا ، وباطرونه صارت فريق باشا وأخيراً ، رياله صارت لواء باشا(٩٦) .

وقد كان ينوب عن قبودان باشا في الإدارة البحرية مسئول كبير يشرف على بناء السفن واصلاحها وتسليمها ويطلق عليه أمين الترسانة TERSANE EMINI(٩٧) . وكانت له سفينة خاصة ، وستة قوارب ، كما كان يقوم بأعمال قبودان باشا عند خروج الأخير إلى البحر ، ويحضر الاجتماعات دون أن يشارك فى الرأى أو المناقشة ، ولكن يُطلب ، للاستفسار منه ، عند الحاجة ، أو لتلقي الأوامر لتنفيذها .واستمر هذا المنصب حتى عام ١٢١٩هـ / ١٨٠٤هـ ، إذ حولت هذه الوظيفية إلى دفتر دراية الترسانة ، وأول من عين عليها بعد التحويل سفير في باريس السيد / على افندي ، والسبب في ذلك التغير ، أن الدولة في هذا الوقت في حاجة إلى قوة بحرية وميزانية كبيرة .

وقد ظهرت أمانة الترسانة بعد خلع السلطان سليم الثالث ١٢٢٢هـ / ١٨٠٧م ، وفي ١٢٤٦م / ١٨٣٠ ألغيت هذه الوظيفة وكلف قبودان باشا ، وعين له مساعد يعاونه في تلك الأعمال ، وكان الإلغاء بسبب المبالغة في الراتب ، إذ كان يتقاضى راتبًا مقداره ١٠٪ من مصاريف خزنة الترسانة(٩٨) أما المخازن البحرية فكان يتولى شؤونها اثنان : الأول يعرف باسم أمين مستودعات الترسانة ، (TERSANE ANBARLARI EMIN) . وهذا كان يشرف على عنابر الترسانة، فهو مسؤل عن الواردات والمصروفات . والثانى أطلق عليه اسم ناظر مستودعات

الترسانة ، (TERSANE ANBARLARI NAZIRI) ، وهو أيضًا مكلف الإشراف على مستودعات الترسانة من حيث الداخل والخارج منها ، وتسجيل ذلك في دفاتر خاصة(١٠٠) ، وكان أقل مرتبة من ترسانة أميني(١٠١) .

وهناك من الوظائف الكبرى ، في الترسانة العثمانية ، كتخدا الترسانة (TERSANE KETHUDASI) وهو أحد كبار الموظفين في الترسانة ، وفي البداية كان كتخداسي مسئولا عن انضباط الترسانة ، ثم اعتبر حاكم الترسانة ، فهو يأتي بعد قبودان باشا ، وللوصول إلى هذه المرتبة ، كان يمر صاحبها بعدة مناصب ، إلا أنه في السنوات الأخيرة أسندت إلى دريابيلركي(١٠٢) .

كما توجد عدد من الوظائف الإدارية الأخرى مثل كاتب قاليون KALYON KATIBI، وهو الموظف ، الذي يقوم بحساب إعاشة ورواتب العاملين بسفن القاليون ، وكان له نائب يسمى قاليونز خليفة سي ، وهذه الوظيفة تأتي في الترتيب الإدارى بعد رياله قبودان سري(١٠٣) ... وهناك أيضًا ناظر السركى SERGI NAZIRI وسركي ، هي السند أو الوثيقة ، التي توضح مبلغ الاستحقاقات، وسرجي ناظري ، هو رئيس الموظفين ، الذين يقومون بتنظيم تلك الوثائق ، ومن مهامه الإشراف على تنظيم وإعطاء المستحقين من الترسانة حسب الأنظمة الموضوعية ، إلا أن هذه الوظيفة ألغيت في سنة ١٢٧٩هـ / ١٨٣٣ وضمت مع وظيفة أستاذية الأقلام السبع (أقلام سبعة خوجاليغى)(١٠٤) .

عمال السفن :

كان القائمون بأعمال السفن رجال تمرسوا في الشئون البحرية ، ودرجوا على ركوب البحار ، وعلى شئون القتال ومن هؤلاء :

١ - اللوند LEVENT(١٠٨) اسم انتشر في البحرية العثمانية ، في أواخر القرن التاسع الهجرى / النصف الثانى من القرن الخامس عشر الميلادي ، وهو يطلق على البحارةالأقوياء الشديدي البأس ، الذين يمارسون الجهاد البحري في السفن العثمانية في البحر المتوسط .

وكان هؤلاء يؤخذون من الأتراك القاطنين على السواحل أو من الروم الساكنين في الجزر العثمانية ، ويسمون LEVENT ROME ، وعملهم دائم في الأسطول العثماني ، ولهم رواتب شهرية ، ويشتغلون في كل أنواع السفن ، وأطلق عليهم في نهاية القرن الخامس عشر اسم GALYONCU(١٠٩).

أعفى في القرن السادس اللوند من أعمال التجديف في سفن الأسطول العثماني ، إذ خشي القبودان باشا أن تؤثر حالتهم النفسية على القدرة القتالية ، إذ كان عملهم شاقا وخطيراً ، وعهد بهذا العمل إلى أسرى الحرب ويطلق عليهم FORSA وإلى الأشخاص ، الذى صدرت عليهم أحكام بالعمل في السفن ذات المجاديف عقوبة لهم(١١٠) .

٢ - المجدفون KUREKCILER : بالإضافة إلى المصدرين السابقين ، هناك مصدر ثالث للمجدفين فقد كانت الدولة تؤمن المجدفين من رعاياها ، وذلك بأخذ فرد واحد من كل عشرين منزلاً على أن تدفع المنازل الباقية « تسعة عشر » رسومًا لتأمين رواتب وإعاشة ذلك الفرد وعائلته لمدة ستة أشهر ، كما كانت المالية ترسل أوامر للسناجق والأقضية لتأمين المجدفين اللازمين للأسطول فى كل عام ، ويذكر أن الشعب كان يطلق على المجدفين الأتراك AHBAB أحباب ، ويطلقون على المجدفين من أسرى الحرب CAKAL حقل(١١١) .

٣ - AYLAKCILAR وهى جمع AYLAK(يلك)(١١٢) وهؤلاء ليسوا من الأفراد الدائمين فى الأسطول العثمانى ، ويستعان بهم عند الحاجة لمدة ستة أشهر مقابل أجر محدد ، وقد استعانت بهم الدولة بعد إدخال السفن الشراعية فى الأسطول العثمانى ، وكان عدهم فى السفن ذات ثلاث مخازن حوالى ١٠٠ فرد ، بينما بلغ عددهم فى القاليونات ١٥٠ فردًا ، وكان يوجد بينهم نصارى أرمن وروم ويرأسهم ضابط من ضباط الأسطول يطلق عليه رئيس الأيلاقجيين SERAYLAKCI(١١٣) .

٤ - KALYONCULAR قاليون جلار وهم العاملون فى السفن الشراعية بصفة مؤقته . إذ تأخذ الدولة عددًا معينًا من بعض الأقضية خارج مدينة أسطنبول، وذلك عندما تتحرك السفن فى أوقات الحرب ، وعندما يعود الأسطول وتنتهى مهمته ويعود إلى قواعده ، يعود هؤلاء إلى بلدانهم وكانت تصرف رواتبهم مقابل عملهم فقط وكانت أماكن أقضية هؤلاء معروفة لدى المسؤلين فى الترسانة والقبطان باشا الذى يبعث عند الحاجة إليهم للولاة والقضاة أوامر لتجميعهم ويبعث برفقة الأوامر بنصف رواتبهم مقدمًا . إلا أن السلطان العثمانى محمود الثانى (١٢٢٣ - ١٢٥٥هـ/ ١٨٠٨ - ١٨٣٩م) ألغى هذه الطائفة أثناء حركة الإصلاح ربيع الأول ١٢٤٣هـ/ سبتمبر ١٨٢٧م ، وحل مكانهم أفراد نظاميين ومسلمين يعملون بصفة دائمة فى الترسانة(١١٤) .

٥ - GABYARLAR (قبيارلار)(١١٥) وكانوا مسؤولين على الشعار الموجود فى الأشرعة وكانوا مسؤولين أيضًا عن الأشرعة وفتحها ، وقد استحدثت هذه الطائفة فى الأسطول العثمانى بعد الحرب البحرية مع روسيا سنة ١١٨٢ - ١١٨٨هـ/ ١٧٦٨ - ١٧٧٤م ، والتى انتهت بصلح كوشك فينارجه ، وكانت الدولة تستعين بنصارى للعمل فى هذا المجال من الأرمن وسكان شبه جزيرة المورة والأروام ، وذلك حتى سنة ١٢٣٦هـ، ١٨٢٠م حين صدرت الأوامر بقصر هذا العمل على المسلمين وبموجب الأمر السابق وفى سنة ١٢٤٣هـ/١٨٢٧م ، حل مسلمون مكان المسيحيين بشرط أن يكونوا شبابًا غير متزوجين(١١٦) من طرابلس الشام وبيروت وعكا والرملة وغزة .

٦ - SANATKARLAR (صنعت كارلر) أى المهنيون الذين يقومون بأعمال النجارة والحدادة والحبال ، وكل الأعمال التى تحتاجها السفينة للترميم والإصلاح .

٧ - SUDAGABOLAR (سوده غبولر) مصطلح ورد فى البحرية العثمانية فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر الميلادى ومن المحتمل أنهم مدفعجية السفينة حيث ورد ذكرهم فى دفاتر البحرية مع أسماء المدفعجية(١١٧) .

ولقد تبين لنا من هذه الدراسة مدى تأثر الدولة العثمانية بحضارات شعوب البحر المتوسط خاصة فى المجال البحرى ، وبدا ذلك واضحًا فى أشكال ونظم السفن وفى التنظيمات الإدارية والبحرية للأسطول ، وكذلك فى مسميات الوظائف البحرية ، ولم يقتصر الأمر على ذلك ، بل نجد بعض القبودانات كانوا من سكان جزر البحر المتوسط مثل خير الدين بربروسا ٩٢٤هـ/١٥١٨م ، الذى ينتمى لجزيرة مديلى(١١٨) القبودات محمد باشا ٩٥٠هـ/ ١٥٤٣ وهو بوسنوى الأصل ، وسنان باشا ٩٥٧هـ/ ١٥٥٠م فرواوى الأصل وبياله باشا ٩٦١هـ/ ١٥٥٣م وغيرهم(١١٩) .

لقد اتضح أن بلدان البحر المتوسط وشعوبها كانت هى حجر الرحى ، الذى دار عليه النشاط البحرى وصناعة السفن فى العصر الحديث متصلاً اتصالاً وثيقًا بالعصور السابقة ، بوجه عام ، وبالبحرية العثمانية والقوى البحرية الأخرى وحوض البحر المتوسط بوجه خاص .

الهوامش

(١) تعرف بلاد اليونان في اللغة اليونانية القديمة والمعاصرة باسم هيلـلاس Hellas وهـي تشـمل شبه جزيرة البلقان والجزر المنتشرة في بحر إيجة وكذلك المدن اليونانية المنتشرة على ساحل آسيا الصغرى . وأطلـق الأغريـق علـى أنفسـهم لفـظ Hellenes أو « الهلينيـين » ولكـن الرومان أطلقوا عليها اسم Graeci ، وهو في الحقيقة اسم قبيلة هللينية نزحت من إقليم بيوتيا Boeotia في شمال بـلاد اليونـان إلى جنـوب إيطاليـا ، ومنـه اشـتق العـرب لفـظ « الأغريق » . أما لفظ « يوناني » فهو متوارث من اللغـات السـامية القديمـة ومشـتق مـن لفظ « ياونيين » الذي أطلقه أهل الشرق الأوسط القديـم علـى الهللينيـين ، وربمـا أيضـًا مشتق من لفظ « أيونـي » خاصـة أن المسـتوطنات الأيونيـة انتشـرت في آسـيا الصغـرى المتاخمة لحدود الشرق الأوسط انظر:

سيد أحمد على الناصري : الأغريق ، تاريخهم وحضارتهم ، ط٢ ، دار النهضـة العربيـة ، القاهرة ، ١٩٧٥ م ، ص ١٨ .

(٢) وليام لانجر : موسوعة تاريخ العالم ، ترجمـة محمـد سـليم سـالم ، ج١ ، النهضـة العربيـة ، القاهرة ، ١٩٦٣م ، ص ١٠٩ ، وكذا : -

حسين الشيخ : دراسـات في تـاريخ حضـارة اليونـان والرومـان ، دار المعرفـة الجامعيـة ، الإسكندرية ، ١٩٨٧م ، ص ٦٥ .

(٣) جيزه - ويلر ، جي ، ترنتون كوستيمد ، ريتشارد ب تومان : جغرافية العـالم الإقليميـة ، ترجمة محمد حامد الطائي وآخرون ، ج١ ، دار مكتبة الحياة ، بيروت ، (بـدون تـاريخ) ص ٢٤٩ - ٢٥٠ .

(٤) يوجد في بحر إيجة وحده حاليًا ٤٨٣ جزيرة . انظر :-

عبد اللطيف أحمد علي : التاريخ اليوناني ، العصر الهيلادي ، دار النهضة العربية ، بيروت ١٩٧١م ، ص ٢٥ .

(٥) المرجع نفسه ، ص ٩ - ١٠.

(٦) حسين الشيخ : المرجع السابق ، ص ٦٦ .

(٧) تيودور جيانا كوليس : اليونان شعبها وأرضها ، ترجمة محمد أمين رستم ، النهضة المصرية، القاهرة ، ١٩٦٣م ، ص ٢٢.

(٨) لطفي عبد الوهاب يحي وآخرون : التاريخ اليوناني والروماني ، القاهرة ، ١٩٨٥ / ١٩٨٦م ، ص ١٣ - ١٤ .

(٩) محمد كامل عياد : تاريخ اليونان ، ج١ ، دار الفكر ، دمشق ، ١٩٨٠م ، ص ٢٣ - ٢٤.

(١٠) لطفي عبد الوهاب يحي : اليونان في مقدمة التاريخ الحضاري ، دار المعرفة الجامعية الإسكندرية ، ١٩٧٨م ، ص ٤٢ - ٤٣ .

(١١) محمد كامل عياد : المرجع السابق ، ص ٢٥ - ٢٦ .

(١٢) وليام لانجر : المرجع السابق ، ص ١٠ وكذا :

لطفي عبد الوهاب يحي : دراسات في العصر الهللينستى ، دار النهضة العربية ، بيروت ١٩٧٨م ، ص ٦.

(١٣) لطفي عبد الوهاب يحي : اليونان مقدمة في التاريخ الحضاري ، ص١١٢ .

(١٤) محمد كامل عياد : المرجع السابق . ص ١٢٤ .

(١٥) لطفي عبد الوهاب يحي وآخرون : التاريخ اليوناني والروماني ،ص ١٤ .

(١٦) لطفي عبد الوهاب يحي : دراسات في العصر الهلنستي ، ص ٤٨.

(١٧) ول ديورانت : قصة الحضارة ، الكتاب الأول ، ج١ ، مج ٢ ، ص ٣٠٨.

(١٨) ينتسب القرطاجيون إلى مدينة قرطاج والتي تقع على مقربة من مدينة تونس الحالية ، فيما بين « بوسعيد » و« لاجويت » ويرجع تأسيسها إلى عام ٨١٤ق.م. ، وإن زعم البعض إلى أنه يرجع إلى ما قبل ذلك ، إلى القرن الثالث عشرق.م. ، حيث ثبت الآن عدم وجود آية آثار فينيقية الأصل في تلك المناطق قبل حوالي ٧٥٠ ق.م.

هذا ويذهب البعض إلى أن اسم « قرطاج » الفينيقي مشتق من كلمتي «قرت حدشت» بمعنى المدينة أو القرية الحديثة ، ولم يبدأ التاريخ الحقيقي لقرطاج إلا منذ القرن السادس ق.م. وسرعان ما ازدهرت حتى غدت زعيمة المدن الفينقية في أواسط البحر المتوسط ، انظر :

رشيد الناضوري : المغرب الكبير ، ج١ ، بيروت ، ١٩٨١م ، ص ١٦٢ - ١٦٣ ، وكذا : -

محمد بيومي مهران : مصر والشرق الأدنى القديم(٨) بلاد الشام ، دار المعرفة الجامعية الإسكندرية ، ١٤١٠هـ ، - ١٩٩٠ م، ص ١٨٤ - ١٨٨ .

حورج كونتو : الحضارة الفينيقية ، ترجمة محمد عبد الهادي شعيره ، ومراجعة الدكتور طه حسين ، القاهرة ، ١٩٦٥م ، ص ٩٨ - ٩٩ وكذا :-

Warmingtom, B.H., Carhagc, London, 1960, p.p. 22, 160 - 205:
Harden, D., The Phoenicians, London, 1963, p. 54.

(١٩) تيودور حيانا كوليس : المرجع السابق ، ص ١٣٥ ، وكذ :

لطفي عبد الوهاب يحي وآخرون : التاريخ اليوناني والروماني ، ص ٤٢ - ٤٥.

(٢٠) لطفي عبد الوهاب يحي : اليونان مقدمة في التاريخ الحضاري ، ص ١٥٢ - ١٥٣ .

(٢١) سيد أحمد على الناصري : المرجع السابق ، ١٣٤ - ١٣٦ .

(٢٢) محمد ياسين الحموي : تاريخ الأسطول العربي ، دمشق ، مطبعة الترقي ، ١٩٤٥م ، ص ٢٨ .

(٢٣) الأسطول يقال لمجموع السفن الحربية وهو لفظ يوناني الأصل بلفظ STOLOS ويطلق أحيانًا على المراكب البحرية المجتمعة وأحيانًا على مركب بحري واحد .

(٢٤) نخبة من الأساتذة المتخصصين : تاريخ البحرية المصرية ، حامعة الإسكندرية ، ١٩٧٩م ، ص ٣٩٧.

(٢٥) محمد ياسين الحموي : المرجع السابق ، ص ٢٩ .

(٢٦) المرجع نفسه ، ص ٣٢.

(٢٧) عبيد الله المهدي (٢٩٧ - ٣٢٢ هـ / ٩٠٩ - ٩٣٤م) أول الخلفاء العبيديون الذين حكموا تونس ، وفي عهده أزيلت بأمره أسماء الأمراء الأغالبة المكتوبة على آثاراهم وكتب عليها اسمه ، وأسس مدينتا المهدية وزويلة ، كما أخضع أهل صقلية ، وقام بأربع حملات متوالية على مصر ، كان مصيرها الفشل ، انظر :

أحمد بن عامر : تونس عبر التاريخ ، مكتبة النجاح ، تونس ، ١٩٦٠م ، ص ١٣٧ - ١٣٨.

(٢٨) نخبة من الأساتذة المتخصصين : تاريخ البحرية المصرية ، ص ٤٠٣.

(٢٩) ياسين الحموي : المرجع السابق ، ص ٣٣

(٣٠) المرجع نفسه ، ص ٣٨ - ٣٩ .

(٣١) نخبة من الأساتذة المتخصصين : تاريخ البحرية المصرية ، ص ٥٨٩.

(٣٢) سعاد ماهر : البحرية في مصر الإسلامية ، دار المجتمع العلمي ، جدة ١٩٧٩م ، ص ١١٤.

(٣٣) نخبة من الأساتذة المتخصصين : تاريخ البحرية المصرية ، ص ٥٨٩- ٥٩٠.

(٣٤) سعاد ماهر : المرجع السابق ، ص ١١٥,٣

(٣٥) أسرة الهبسبرج HABSBURG من أعرق وأقدم الأسر الحاكمة في أوروبا ، تعاقبوا في حكم النمسا ، ويعود تاريخها إلى القرن العاشر الميلادي ، وبلغ حدود سيطرة حكمها في عهد الإمبراطور شارك الخامس على أسبانيا وممتلكاتها في أمريكا ، كذلك أجزاء من إيطاليا إذ حكمت نابلي وصقلية وسردينيا فضلاً على أراضيها في ألمانيا والأراضي المنخفضة والنمسا. انظر :

Academic American Encyclopedi, New Jersey. 1980.Vol 10, p. 6.

(٣٦) أسرة فلوا Valois أنجبت ثلاثة عشر ملكًا حكموا فرنسا من ١٣٢٨ – ١٥٨٩م . انظر :

Ibid., Vol 19, p. 508

(٣٧)محمد عبد اللطيف البحرواي : مذكرات تاريخ أوروبا الحديثة ، مذكرات لم تنشر.

(38) BRAUDELF:THE MEDITERRANEAN AND THE MEDITERRANEAN WORLD IN THE AGE OF PHILIP II VOL. II P. 1007

(٣٩) فيليب الثاني ابن الامبراطور شارل الخامس ، ملك أسبانيا سنة ١٥٥٦ – ١٥٩٨ .

(٤٠) محمد بن عبد اللطيف البحرواي : مذكرات تاريخ أوروبا الحديث ، مذكرات لم تنشر .

(٤١) BRAUDELF:OP.CIT.VOL II,P.1007 .

(٤٢) كارثة جربة : بعد أن حرر العثمانيون مدينة طرابلس الغرب ، وجهوا أنظارهم لجزيرة جربة ، التي جعل منها الأسبانيون معقلاً حصينًا ، يعتمدون عليه في حركاتهم الهجومية ، بعد أن استولى عليها نائب مملكة صقلية في يناير ١٥٦٠م ، وأنزل بها جيشًا ضخمًا . جاء الأسطول العثماني مدداً للقائد طورغوريسي ، وكان هذا الأسطول الضخم يشمل ٨٦ سفينة حربية ، بقيادة مصطفى بياله ، فداهم جزيرة جربة بشراسه وعنف ، أسفرت عن انهزام الأسبان . انظر :

أحمد توفيق مدني : حرب الثلاثمائة عام بين الجزائر وأسبانيا ، الموسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، ط٣ ، ١٩٨٤م ، ص ٣٠٧٨.

(43) BRAUDELEF.: OP.CIT. VOL II P. 1008

(٤٤) نيوقولاى ايفانوف : الفتح العثماني للأقطار العربية ١٥١٥ - ١٥٧٤ ترجمة يوسف عطا الله ، دار الفارابي ، بيروت ، ١٩٨٨ م ، ص ٢٣٧ - ٢٣٨.

(٤٥) الفلاندرز :FLANDERS: أحد الأقاليم المطلة على بحر الشمال ، وكان مركزاً اقتصاديًا وسياسيًا متطوراً للأراضي المنخفضة في العصور الوسطى وكان رجالها موصوفين بالقوة والشدة ، ولعبوا دوراً كبيراً في الحروب الصليبية في القرن الثاني عشر ، انظر:

ACADEMIC AMERICAN ENCYCLOPEDIA, VOL. 8P. 152;

(46) LOCKYERR: HABSBURG AND BOURBON 1407 - 1720 LONGMAN P. 28 - 29

(٤٧) اندري كلو : سليمان القانوني ، مثل من النماذج بين الهوية والحداثة ، دار الجيل ، بيروت ، ص ٤٥٦ ..

(٤٨) عبد العزيز محمد الشناوى : الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ، ج٢ ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٨٠ ، ص ٨٦ - ٨٦٨.

(٤٩) شارل ديل : البندقية جمهورية أرستقراطية ، تعريب أحمد عزت عبد الكريم ، توفيق اسكندر ، دار المعارف ، القاهرة ، ص ٢٧ - ٢٨ .

(٥٠) عبد العزيز الشناوي : المرجع السابق ، ج ي ٢ ، ص ٨٦٩ .

(٥١) شارل ديل : المرجع السابق ، ص ٣٢

(٥٢) سعاد ماهر : المرجع السابق ، ص ١٣٥ .

(٥٣) عبد العزيز الشناوي : الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ، ج ٢ ، ص ٨٨٠ .

(54) COOK M.A. : AHISTORY OF THE OTTOMAN EM PIRE TO 1730 LONDON CAMBRIDGE UNIVERSTY, p. 87

(55) IDRIS BOSTAN: OSMALI BAHRIYE TESKILATI: XVLL YUZYILDA TTERSANE - I AMIRE, TURK TARIH KURUMU BASIMEVI ANKARA, 1992, p.12

(٥٦) آندري كلو : المرجع السابق ، ص ٤٥٦ .

(57) ISMAIL HAKKI UZUN CARSILI: OSMANLI DEVLETININ MERKEZ VE. BAHRIYE TESKILATI, TURK TARIH KURUMU BASIMEVI - ANKARA. p 455

(58) MEHMET ZEKI PAKALIN: OSMANLI TARIH DEYI MLERI VE TERIMLERI SOZLUGU, ISTANBUL, IYILIEGITM MILLIEGITM VOL, p.465

(59) MEHMET ZEKI PAKALINI: OP.CIT. VOL IP. 341.

(٦٠) دفاتر البحرية . تصنيف كامل كابجي رقم ٦٢٩١ سنة ١١٥٢ ، أرشيف رئاسة مجلس الوزراء اسطنبول .

(٦١) دفاتر البحرية ، تصنيف كامل كابجي رقم ٨٤٦٣ ، سنة ١٢٠٤ هـ ، ورقم ٨٤٩٤ سنة ١١١٠ هـ أرشيف رئاسة مجلس الوزراء ، اسطنبول.

(٦٢) دفارت البحرية ، تصنيف كامل كابجي ٨٧٤٧ سنة ١٢٠٢ هـ ورقم ٨٧٤٧ سنة ١٢٠٣ هـ ، رئاسة مجلس الوزراء اسطنبول .

(٦٣) دفاتر البحرية تصنيف جودت رقم ٧٣١٤ سنة ١١٥٠هـ ، أرشيف رئاسة مجلس الوزراء، اسطنبول .

(٦٤) دفتر الأمور المهمة رقم ٧ رقم ٢٨٣ سنة ٩٧٥ هـ ، بأرشيف رئاسة مجلس الوزراء ، اسطنبول

(65) ISMAIL HAKKI : OP. CIT. . P. 457.
(66) IBID P. 457.
(67) IBID, P. 457
(68) IBID. P. 458

(٦٩) دفاتر البحرية رقم ٦٥٣٩ و ٦٥٤٦ تصنيف جودت بأرشيف رئاسة مجلس الوزراء باسطنبول .

(٧٠) دفاتر البحرية تصنيف جودت رقم ٤٨٩٤ سنة ١١١٠ هـ ، ورقم ٦٥٧٩ سنة ١١٨٣ هـ ، بأرشيف رئاسة مجلس الوزراء باسطنبول .

(71) ISMAIL HAKKI: OP.CIT P. 460

(٧٢)اندري كلو : المرجع السابق ، ص ٤٥٧

(73) ISMAIL HAKKI: OP.CIT P. 460
(74) IBID.P.461
(75) MEHMET ZEKI PAKALAIN: OP. CIT, 1970 VOL.1P.341

(٧٦) القدم العثماني يعادل ٣٧,٥ سم انظر MEHMET ZEKI PAKALAIN: OP. CIT. VIL 1 P. 112

(77) ISMAIL HAKKI: OP.CIT P. 461 - 462.

(٧٨) الفوانيس شعار الرتبة ، وتدل على سفينة القبطان .

(79) ISMAIL HAKKI: OP.CIT P. 463 - 464.

(80) IBID. P . 464

(٨١) عبد العزيز الشناوى : المرجع السابق ، ص ٨٧٥.

(82) ISMAIL HAKKI: OP.CIT P. 466..

(٨٣) دفاتر البحرية ، تصنيف كامل كـابجي رقـم ٥٧٦٠ ، أرشيف رئاسة مجلس الوزراء ، اسطنبول .

(٨٤) الوثيقة السابقة .

(85) ISMAIL HAKKI: OP.CITP. 467.

(٨٦) دفاتر البحرية تصنيف حودت دفاتر البحرية رقـم ٦٤٦٨ سنة ١٢١٢ أرشيف رئاسة مجلس الوزراء ، اسطنبول .

(٨٧) دفاتر البحرية تصنيف كامل كابجي ، رقم ٥٧٢٢ ، سنة ١٢٠٥هـ.

(88) ISMAIL HAKKI: OP.CIT P.468 .

(٨٩) دفاتر البحرية ، رقم ٥٧٦٠ ، تصنيف كامل كابجي ، أرشيف رئاسة مجلس الوزراء ، اسطنبول .

(90) IDRIS BOSTAN: OP. CIT P. 96.

(91) ISMAIL HAKKI: OP.CIT P. 469 - 470.

(٩٢) دفاتر البحرية ، تصنيف حودت رقـم ٥٤١٩ ، ٦٣٠٠ ، ٦٣٣١ ، ٦٤٦٥ ، ٦٥٤٠ ، ٦٧٣٦ ، ٧٤٩٤ ، ٧٦٢٩ ، بأرشيف رئاسة مجلس الوزراء باسطنبول .

(٩٣) دفاتر البحرية ، تصنيف كامل كابجي ، رقم ٥٧٦٠ .

(94) ISMAIL HAKKI: OP.CIT. P. 472.

(٩٥) دفاتر البحرية ، تصنيـف حـودت ، رقـم ٧٧١٦ ، ٧٧٤٧ ، في أرشيف رئاسة مجلس الوزراء ، اسطنبول .

(٩٦) دفتر المهمة رقم ١١٢ في رئاسة مجلس الوزراء باسطنبول .

(٩٧) عبد العزيز الشانوي : المرجع السابق ، ص ٨٧١.

(98) MEHMET ZEKI PAKALAIN: OP. CIT, VOL2 P. 189.

(99) IBID., VOL3 P. 763.

(100) MFHMET ZEKI PAKALAIN: OP. CIT, VOL3 P. 50.

(١٠١) عبد العزيز الشناوي : المرجع السابق ، ص ٨٧٣.

(١٠٢) المرجع نفسه ، ص ٨٨٣.

(103) MEHMET ZEKI PAKALAIN: OP. CIT, VOL 3, P. 465.

(١٠٤) عبد العزيز الشناوي : المرجع السابق ، ج٢ ، ص ٨٧٣.

(105) MEHMET ZEKI PAKALAIN: OP. CIT, VOL3, P. 466.

(106) IBID., VOL3, P. 155.

(107) IBID., VOL2P. 184

(١٠٨) كلمة مأخوذة من كلمة LEVANTINO الإيطالية انظر : IBID., VOL2. P. 354

(109) ISMAIL HAKKI: OP. CIT. P. 479 - 482

(110) MEHMET ZEKI PAKALAIN: OP. CIT, VOL1 P 181

(١١١) تعني أفراد غير مهمين ولايحظون بالاحترام انظر :

ISMAIL HAKKI: OP. CIT. P. 482, 483

(١١٢) تعني الفرد العاطل عن العمل ، أو الذي لديه عمل موقت .

(113) ISMAIL HAKKI: OP. CIT. P. 484

(١١٤) ISMAIL HAKKI: OP. CIT.468 نقلاً عن تاريخ لطفي (LUTFI TARIHI) مجلد ١ ص ٢٥٠

(١١٥) كلمة إيطالية وتعني الجزء السفلي من عامود السفينة .

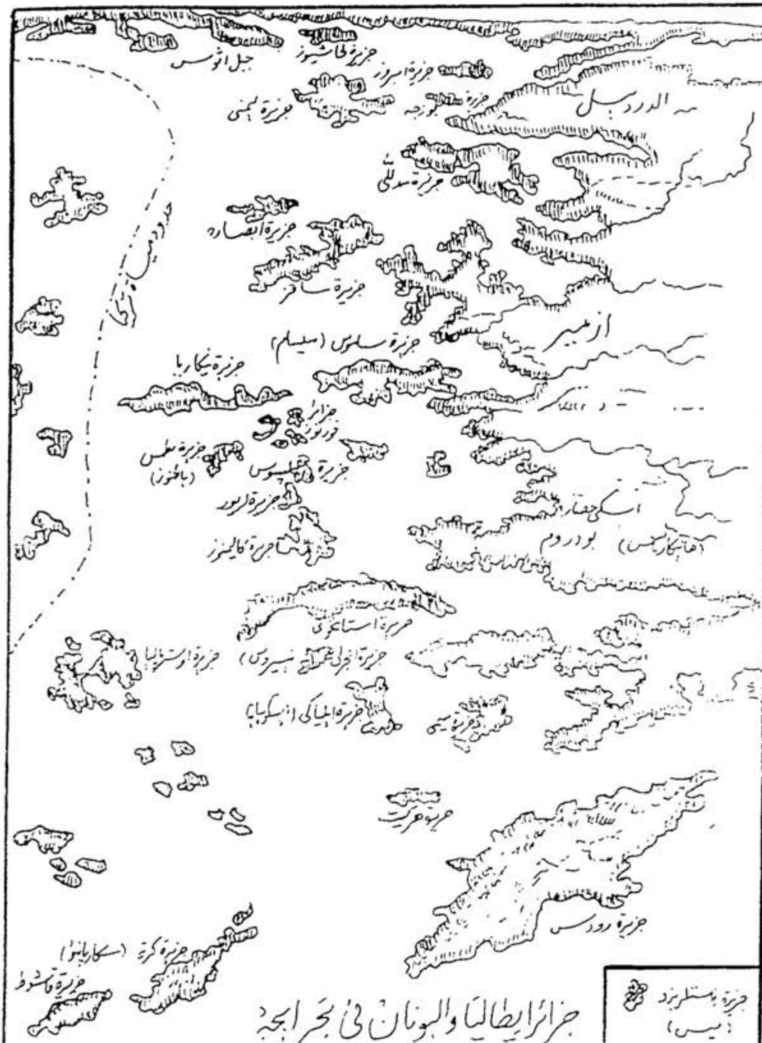
(116) ISMAIL HAKKI: OP. CIT. P. 487, 488

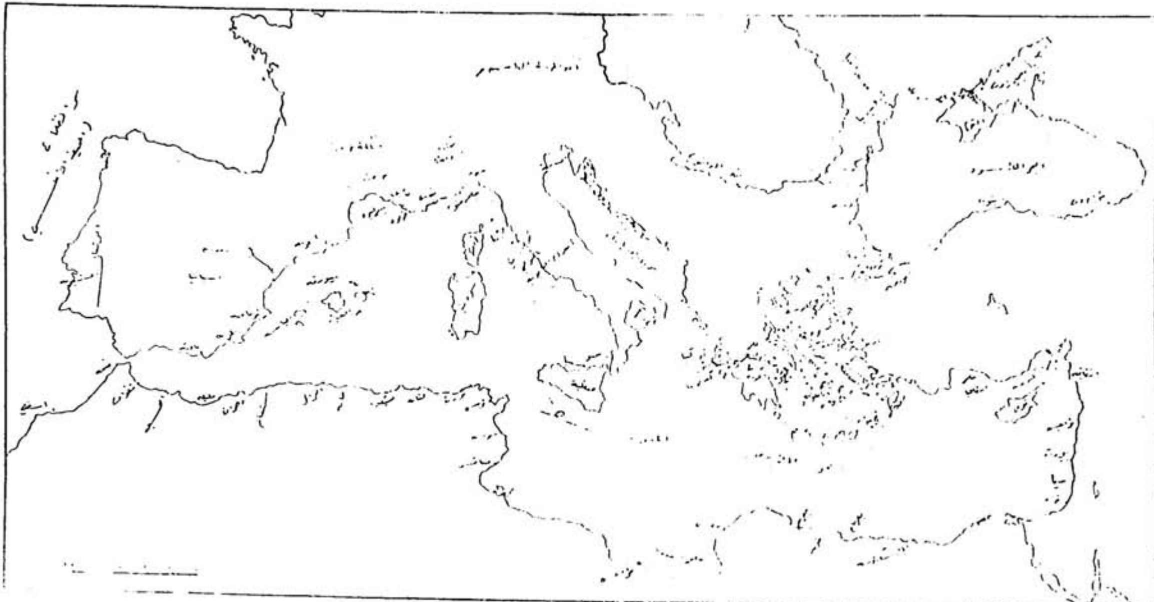
(117) IBID., P. 488, 489

(١١٨) عبد القادر بن عمر بن محمد : سيرة خير الدين ، مخفوظ ، المتحف البريطاني قسم الدراسات الشرقية ، رقم ٣٢٧٠ ق١ .

(١١٩) أحمد عرابى : تاريخ الملوك العثمانية والصدور ومشايخ الإسلام والقبودانات مخطوط ، مكتبة سوهاج رقم ٣٣٤ت ، ق ٢٥ .


بلاد اليونان
ومنطقة
بحر ايجة
البحر الأسود
تراقية
ابيروس
كوركيرا
تساليا
ليسبوس
رودس
كريت


جبل اتوس
جزیره طاشیوز
جزیره لیمنی
الدردنیل
جزیره ابصاره
جزیره ساقز
ازمیر
جزیره نیکاریا
جزیره بطمس
(باطموز)
بودروم
جزیره استانکوی
جزیره رودس
جزیره کرته
(سکارپانتو)
جزائر ایطالیا والیونان فی بحر ایجه



البحر الأبيض المتوسط في القرن السادس عشر

المصادر والمراجع

أولاً : المصادر العربية :

١ - أحمد عرابى : تاريخ الملوك العثمانية والصدور ومشايخ الإسلام والقبودانات، مخطوط فى مكتبة سوهاج تحت رقم ٣٣٤ ت .

٢ - عبد القادر بن عمر بن محمد : سيرة خير الدين باشا ، مخطوط بالمتحف البريطانى ، قسم الدراسات الشرقية برقم ٣٢٧٠ .

ثانيًا : المصادر التركية :

١ - دفتر الأمور المهمة رقم ١١٢,٧ ، أرشيف رئاسة مجلس الوزراء أسطنبول .

٢ - دفاتر البحرية ، تصنيف جودت ، رقم ٤٨٩٤ ، ٥٤١٩ ، ٦٣٠٠ ، ٦٣١٤، ٦٣٣١ ، ٦٤٦٥ ، ٦٤٦٨ ، ٦٥٣٩ ، ٧٥٤٠ ، ٦٥٤٦ ، ٦٥٧٩ ، ٦٧٣٦ ، ٧٤٩٤ ، ٧٦٢٩ ، ٧٧١٦ ، ٧٧٤٧ ، أرشيف رئاسة مجلس الوزراء أسطنبول .

٣ - دفاتر البحرية ، تصنيف كامل كابجى رقم ٧٥٢٢ ، ٧٥٦٠ ، ٦٢٩١ ، ٨٤٦٣ ، ٨٧٤٧ .

ثالثًا : المراجع العربية :

١ - أحمد بن عامر : تونس عبر التاريخ ، مكتبة النجاح ، تونس ، ١٩٦٠ .

٢ - أحمد توفيق مدنى : حرب الثلاثمائة عام بين الجزائر وأسبانيا ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، ١٩٨٤م .

٣ - حسين الشيخ : دراسات فى تارخ حضارة اليونان والرومان ، دار المعرفة الجامعية الأسكندرية ، ١٩٨٧م .

٤ - رشيد الناضورى : المغرب الكبير ، الجزء الأول ، بيروت ، ١٩٨١ .

٥ - سعاد ماهر : البحرية فى مصر الإسلامية: دار المجتمع العلمى ، جدة ١٩٧٩.

٦ - سيد أحمد على الناصرى : الإغريق تاريخهم وحضارتهم ، دار النهضة العربية، القاهرة ١٩٨٧ .

٧ - عبد اللطيف أحمد على : التاريخ اليونانى العصر الهيلادى ، دار النهضة العربية ، بيروت ، ١٩٨١ .

٨ - عبد العزيز محمد الشناوى ، الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٨٠ .

٩ - لطفى عبد الوهاب يحى : دراسات فى العصر الهللينستى ، دار النهضة العربية ، بيروت ، ١٩٧٨ .

١٠ - محمد بيومى مهران : مصر والشرق الأدنى القديم (٨) بلاد الشام ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، ١٩٩٠م .

١١ - محمد عبد اللطيف البحراوى : مذكرات تاريخ أوربا الحديثة ، ألقبت على طلاب جامعة الجزائر ، مذكرات لم تنشر .

١٢ - محمد كامل عياد : تاريخ اليونان ، دار الفكر العربى ، دمشق ، ١٩٨٠ .

١٣ - محمد ياسين حموى : تاريخ الأسطول العربى ، مطبعة الترقى ، دمشق ، ١٩٤٥ .

١٤ - نخبة من الأساتذة المتخصصين بجامعة الإسكندرية : تاريخ البحرية المصرية ، جامعة الإسكندرية ، الإسكندرية ، ١٩٧٩ .

رابعًا : المراجع الأجنبية المترجمة :

١ - أندرى كلو : سليمان القانون مثل من النماذج بين الهوية والحداثة ، تعريب البشير بن سلامة ، در الجيل ، بيروت ، ١٩٩١م .

٢ - تيودور جيانا كوليس : اليونان شعبها وأرضها، ترجمة محمد أمين رستم ، دار النهضة العربية القاهرة .

٣ - جورج كونتو : الحضارة الفينيقية ، ترجمة محمد عبد الهادى شعيره ، مراجعه الدكتور / طه حسين ، القاهرة ، ١٩٦٥ .

٤ - جيزه - ويلر ، جى ترنتون كوستميد ، ريشارو . ب . تومـان : جغرافيـة العـ الإقليمية ، ترجمة محمد حامد الطائى وآخرون ، دار مكتبة الحياة ، بيروت .

٥ - شارل ديل : البندقية جمهورية ارستقراطية ، تعريب أحمد عـزت عبـد الكر وتوفيق إسكندر ، دار المعارف بمصر ، القاهرة ، ١٩٤٨ .

٦ - نيوقـولاى ايفـانوف : الفتـح العثمـانى للأقطـار العربيـة ١٥١٥ - ١٥٧٤ ترجمة يوسف عطا الله ، دار الفارابى ، بيروت ، ١٩٨٨ .

٧ - ول ديورانت : قصة الحضارة : ترجمة محمد بدران ، دار الجيل ، بيروت ، ١٩٥٣

٨ - وليام لانجر : موسوعة تاريخ العالم ، ترجمة محمد سليم سالم ، النهضة المصـ القاهرة .

خامسًا : المراجع التركية :

IDRIS BOSTAN : OSMANLI BAHRIYE TESKILATI : XVII. YUZYILDA TERSANE 1 AMIRE. TURK TARIH TARIH KURUMU BASIMEVI ANKAR, A 1992.

ISMAIL HAKKI UZUN CARSILI : OSMANLI DEVLETININ MERKEZ VE. BAHRIYE TESKILATI, FO TURK TARIH KURUMU BASIMEVE - ANKARA, 1988.

MEHMET ZAKI PAKALIN : OSMANLI TARIH DEYMLERI VE TERIMLERI, ISTANBL, 1971.

سادسًا : المراجع الإنجليزية :

BRAUDEL, F. : THE MEDITERRANEAN AND THE MEDITRRANEAN WORLD IN THE AGE OF PHILIP II LONDON 1981.

COOK, M. A : AHISTORY OF THE OTTAMAN EMPIRE 1407 1720, CAMBREDGE, 1980.

HARDEN, D, : THE PHENICIANS, LONDON, 1963.

LOCKYER, R : HABSBURG & BOURBON EUROPE LONDON, 1974.

WARMINGTOM, B, H, : CARTHAGE, LONDON, 1960

عرض الكتب

عرض كتاب :

Amon Cohen :

JEWISH LIFE UNDER ISLAM - JERUSALEM

IN THE SIXTEENTH CENTURY,

Harvard Universiy Press, and London 1984.

« حياة اليهود تحت حكم الإسلام – أورشليم فى القرن السادس عشر »

تأليف آمون كوهين الناشر جامعة هارفارد – لندن ١٩٨٤ .

عرض وتحليل : أ. د. سيد أحمد على الناصرى

كتاب يقع فى ٢٢٥ صفحة وينقسم إلى مقدمة (سبع صفحات) وثمانية فصول وأخيراً الخاتمة وهوامش ومصادرالكتاب ، والفهرس .

وفى المقدمة يتعرض الباحث إلى مكانة القدس عند اليهود والمسيحين والمسلمين خاصة منذ عهد الرسول الذى أسرى الله به إليها ليلاً ، ومنذ أن بنى المسجد العمرى فى عصر عمر بن الخطاب ، والمسجد الأقصى فى عصر عبد الملك بن مروان ويعتذر أنه لن يدرس كل طوائف وسكان هذه المدينة المقدسة وإنما كيهودى معنى بتاريخ اليهود سوف يركز على الطائفة اليهودية فى القدس حتى العصر العثمانى وبالذات فى القرن السادس عشر ، وذلك لأن الوثائق التى توفرت لديه كانت من هذه الفترة .

ويقول أن أغلب سكان القدس فى القرن السادس عشر كانوا عربـًا مسلمين ، يليهم المسيحيون ، ثم اليهود . ويقول أنه أكبر تغير حدث فى الشرق الأوسط فى ذلك القرن هو استيلاء الدولة العثمانية على فلسطين والشام وبعض أطراف شبة الجزيرة العربية ، وظلت هذه المناطق أربعة قرون فى حظيرة العثمانيين دون أى تغير أو تطوير حتى قيام الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٨. ويعتبر الأستاذ

كوهين عصرى سليم الأول (١٥١٢ - ١٥٢٠) ، وعصر سليمان القانون (١٥٢٠ - ١٥٦٦) Sulleiman, The Magnificent * هو العصر الذهبى للقدس وللإمبراطورية العثمانية . وخلال ذلك العصر كانت القدس يحكمها سنجق كغيرها من مدن الشام : مثل صفد ، نابلس ، غزة ، وكلها تخضع لحاكم دمشق أو باشا دمشق العثمانى . وخلال حكم العثمانيين قام السلاطين بتطوير وتعمير القدس بعد الأهمال الذى لاقته فى عصر سلاطين المماليك ، فبنوا حولها الأسوار ذات البوابات (التى تفتح صباحًا وتغلق مساءً) ، وأعيد ترميم الأسواق والحوانيت القديمة ، وأصلحت شبكة المياه ، وأوقفت الأراضى والعقارات للإنفاق على المساجد والمعاهد الإسلامية ، غير أن هذا الأزدهار لم يدم ، فعندما بدأت الإمبراطورية العثمانية فى التدهور ، تدهورت معها القدس ، وأصبح الهم الأول للحكام الأتراك هو ملئ جيوبهم بالمال دون الاهتمام بمصالح ومرافق المدينة ، بل أن الحامية العثمانية التى كانت تعسكر فى قلعة أورشليم بدأت تستغل الناس والتجار مستخدمين سلطاتهم العسكرية مما أدى إلى نزوح السكان ، وتضاءل الحى اليهودى ,ولهذا فضل المؤلف أن يتوقف عند نهاية القرن السادس عشر .

بعد ذلك يعدد المؤلف المصادر التى اعتمد عليها وأهمها فتاوى اليهود Responsa ، وكتب الرحالة الذين كان أغلبهم من المسلمين وقليل منهم مسيحين ويهود ، ثم أرشيفات القنصليات الأوربية فى القدس ، وكذلك مجموعة الرسائل التى كتبها التجار الأوربيون الذين كانت لهم مصالح مع بلدان شرق البحر المتوسط ، ثم ينقد هذه المصادر بادئا بنقد كتابات المؤرخين والرحالة المسلمين بأنها خرافية وتصورية فى أغلب الأحيان ، أما كتابات اليهود والمسيحيين فهى

(*) يعرف السلطان سليمان عند الأتراك باسم القانونى وعند الأوربيين باسم صاحب الأبهة والعظمة .

متحيزه ومتعصبة وغير محايدة تلوى فيها الحقائق لكى تتماشى مع الأفكار الدينية المسبقة لمؤلفيها . كما أن هؤلاء الرحالة من غير العرب كتبوا بلغات متعددة وأصحابها ينحون إلى جنسيات متعددة ولهم مصالح متعارضة ، بل أن أغلبهم ينقل عن رحلة سابقين نقل السطرة دون أن يكلف نفسه عناء الفحص والتدقيق والمراجعة ، أو دون أن يكلفوا أنفسهم أن يضيفوا شيئا من بنات أفكارهم . كما أن أرشيفات القنصليات الأوربية كانت تعنى بأمورها الخاصة ، وبمصالح بلادها فى المقام الأول .

وخلال الخمسينيات من هذا القرن (القرن العشرين) فتحت الأرشيفات التركية أمام الباحثين لدراسة النظم الإدارية ، والأوضاع الاجتماعية فى كافة الولايات العثمانية ، غير أن ما ورد فيها عن اليهود نذر يسير ، ويقول المؤلف أنه كمتخصص فى فلسطين العثمانية أدرك نقاط الضعف فى هذه المصادر السابقة ، غير أنه استفاد من وثائق الجنيزة الثرية ، ومن دراسة المؤرخ اليهودى جوايتين Goitein حول تجارة عالم البحر المتوسط فى العصور المبكرة فى ضوء وثائق الجنيزة ، لكنه لم يستفد كثيراً منها لأنها ، اهتمت بالفترة السابقة على القرن السادس عشر .

وأخيراً يقول المؤلف أنه قد عثر على كنز من الوثائق يتمثل فى وثائق وسجلات المحاكم الشرعية فى القدس ، التى كانت تسجل الأحكام والقضايا الخاصة والمعاملات بين المسلمين واليهود ، كذلك كان قاضى الإسلام يدون التعليمات والأوامر التى تصدر إليه مباشرة من الديوان السلطانى فى اسطنبول . ويلفت المؤلف نظرنا إلى أن المحاكم الشرعية الإسلامية . لم تكن تختص بتصريف شئون المسلمين فحسب ، بل كانت تتناول كافة قضايا الطوائف غير الإسلامية،

صحيح كان لليهود والمسيحيين محاكمهم الملية الخاصة ، ولكنهم كانوا جزءاً لا يتجزاء من المجتمع الإسلامى العام ، وبالتالى كانوا ملزمين بإطاعة الأحكام والقوانين والقرارات التى تصدرها هذه المحاكم الشرعية الإسلامية .. بل كان من حق اليهود والمسيحيين أن يلجأوا إلى المحاكم الإسلامية للفصل بين قضاياهم الخاصة مفضلين إياها على محاكمهم الملية وذلك للثقة فى عدالة ونزاهة القضاء الإسلامى.

وأغلب سجلات المحاكم مدونة باللغة العربية ، وقليل منها بالتركية ، وهذه الأحكام مرآة تعكس خصائص الحياة اليومية لكافة السكان ومن بينهم الطائفة اليهودية بصورة لا يمكن أن تتوفر فى أى مصدر من المصادر الأخرى . ويقول المؤلف أنه سبق له أن نشر فى عام ١٩٧٦ كتاب فى القدس عنوانه : **الوثائق العثمانية للطائفة اليهودية فى أورشليم فى القرن السادس عشر :**

« Ottoman Documents on the Jewish Community of Jerusalem in The Sixteenth Cetury. »

ولكنه فى هذا الكتاب لم يرجع إلا لخمس وعشرين فرمانا فقط باللغة التركية انتقاها من بين هذه الأرشيفات . ولكنه منذ عام ١٩٦٧ بدأ فى الإنعكاف على دراسة ٨٤ مجلداً وثائقيًا فى المحاكم الشرعية فى القدس تغطى القرن السادس عشر كله ، وأنه حتى الآن لم يتطرق بعد إلى باقى المجلدات التى تغطى القرون التالية للقرن السادس عشر ، بل تغطى أيضًا الفترة ما بعد العصر العثمانى , ويقول أنه بدأ بالفعل فى جمع مادة هذا الكتاب منذ عام ١٩٦٨ ولجأ من أجل ذلك إلى رؤساء المجلس الإسلامى بالقدس للسماح له بالإطلاع على أرشيفات المحاكم ، ورحبوا به، وسهلوا له كل الوثائق ، وساعدوه فى شرح الغامض منها ، ولهذا نوه

بشكر عاطفى لافت للنظر للقيادات الدينيـة الإسـلامية لكـرم ضيافتهـا ، وكذلـك لقاضى القدس والمفتى الخاص بها ، الذين عاملوه أحسن معاملة رغم علمهـم بأنـه إسرائيلى ويهودى ، فقد تخطوا مشاعر المرارة والألم إزاء تصـرف الحكـم الفـاحش الإسرائيلى لهـم ، وسمحـوا لـه بالاقـتراب والاطـلاع والتنقيـب فـى أغـوار المـاضى وكنوزه .

فى الفصل الأول عالج المؤلف علاقـة اليهـود بسـلطة الحكـم العثمـانى مـن ناحية الإدارة كأهل ذمة يتحقق لهم كافة الحرية مقابل دفع الجزية وكفاءة الشـريعة الإسلامية فى تحقيق الحماية والعدل والمساواة لكافة الطوائف غير الإسلامية .

وفى الفصل الثانى بحث مجتمع الطائفة اليهودية وأعدادها وتوزيعهم سكانيا فى القدس وضواحيها ، ولجأ إلى سجلات الجزية لتحديد عدد اليهود ، وأثبت مـن واقع الكشوف تدنى الجزية ، وشرح ذلك بأن أغلب اليهود كـانوا فقـراء، ولكـن أثبت فى مكان آخر من الكتاب أن اليهود كانوا يلجأون إلى كل وسيلة مـن أجـل التهرب من دفع الجزية .

وفى الفصل الثالث عالج المؤلف سـلك الوظـائف القياديـة اليهوديـة وعلـى رأسها شيخ اليهود ، ومسؤلياته وطريقـة انتخابـه ، وأنـه كـان همـزة الوصـل بـين اليهود وبين السلطة الحاكمة سواء فى اسطنبول أو باشا دمشق ، وأنـه كـان يديـر «بيت مال اليهود» ويساعده نائب عادة كان يصبح شيخ اليهود مستقبلاً . ويلـى شيخ اليهود فى المناصب « الدايان » أو قاضى الشرع اليهودى ، ثم يتحـدث عـن المحاكم الملية الخاصة باليهود . ويلفت النظر إلى أن الديان وهـو مـن طائفـة اليهـود الربانيين كان هو المفضل والمميز عن باقى القضاة اليهـود ، وكذلـك كـان الدايـان الصفارديمى (أى الممثل ليهود المشرق) أكثر أهمية من الدايان الأشكنازى ، ويلى

الدايان كان هناك المرتل للترانيم أو المنشد Cantor ، ثم الدباح الشرعى أو الجزار، بعد ذلك يتطرق إلى السلطة المدنية لليهود ، ويعالج بعض القضايا التى كانت تنشأ بين اليهود واليهود، وبين اليهود والمسلمين، ورأى أهل الحل والعقد الإسلامى فيها.

وفى **الفصل الرابع** يتطرق إلى معاملات اليهود فميا بينهم من وصايا وصكوك ديون ، والالتزامات المالية عند اليهود ، وبيت المال اليهودى ، ولاحظ أن حالة اليهود الاقتصادية تدهورت منذ نهاية القرن السادس عشر وبدلاً من أن كان المسلمون يستدينون من اليهود ، أصبح اليهود يستدينون من المسلمين ، وعندما تتراكم هذه الديون يطلبون معونة بنى جلدتهم من اليهود المقتدرين ، وفى البداية لم يكن هناك أى تميز بين اليهودى الصفاردمى واليهودى الأشكنازى . فى الاستدانة ، لكن بعد ذلك أصبح هناك تميز حتى أن اليهودى الأشكنازى كان يضطر لمغادرة القدس أو إخفاء هويته الأشكنازية .

وفى **الفصل الخامس** عالج المؤلف أحوال اليهود الدينية ، بادئًا بظاهرة تحول اليهود إلى الإسلام والإجراءات الخاصة بها ، ثم يتحول إلى دراسة وضع المعابد اليهودية وكيف أن الشعائر الدينية فيها كانت تقام فى جو كامل من الحرية وفى حماية القانون الإسلامى ، ثم تطرق إلى مقابر اليهود وشعائر الدفن عندهم ، ثم تعرض لظاهرة الحج إلى الأماكن المقدسة اليهودية فى القدس خاصة ضريح النبى شموئيل ، والعلاقة الدينية التى تربط مدينة القدس بالخليل ، وكيف أن الحجاج اليهود كانوا تحت إشراف قاضى المسلمين ، وكيف أن السلطات كانت توفر حاجاتهم ، ومدى استفادة التجار المسلمين من التجارة أثناء موسم الحج اليهودى.

وفى **الفصل السادس** يعالج الوضع التشريعى والقانونى لليهود فى القدس ، وتفضيل اليهود اللجوء إلى المحاكم الشرعية الإسلامية للفصل فى خلافاتهم

مفضلين إياها على محاكم « الدايان » اليهودية ، وكيف كان من حق اليهودى أن يشكو المسلم أمام قاضى المحكمة الشرعية ، ويعدد الأحكام التى صدرت لصالح اليهود ضد المسلمين فى هذه المحاكم . ثم يتعرض لوضع المرأة فى مجتمع القدس اليهودى ، ويرى أنه كانت لاتختلف أبداً عن وضع المرأة المسلمة فى نسبتها إلى أبيها « فلانة بنت فلان» أو فى حق التملك وإدارة الأموال ، ونخرج من هذا الفصل بأن اليهود كانوا ترسًا فى عجلة الاقتصاد العام للقدس ، فى ظل عدالة الشريعة الإسلامية التى كانت تقبل شهادة اليهودى ضد المسلم ، وتسمح لهم برفع القضايا أمامها ضد المسلمين « **ويقول من الناحية التطبيقية ، لم يكن هناك فرق بين المسلم ، واليهودى ، والمسيحى ، لكن من الناحية النظرية كان اليهود والمسيحيون « أهل ذمة » نظريا أقل مرتبة من المسلم الموحد ، حتى أن المسلم كان يقسم لو أنه كذب أو حنث اليمين يصبح يهوديًا** » ثم يتحدث عن التفرقة بين اليهودى والمسلم عند الذهاب إلى حمامات المدينة فقد كان صاحب الحمام ملتزم بمنح اليهودى « فوطة » غير التى يستخدمها المسلم ، لكنه يستدرك أن كان هناك فى نفس الوقت تمييز بين سكان المدن وبين الفلاحين المسلمين الذين اعتبروا أدنى منزلة بل أقل درجة من اليهود . وينتهى إلى أن هذا التقسيم كان اجتماعيًا طبقيًا وليس دينيًا .

أما الفصل السابع فهو أطول فصول الكتاب حجمًا ، إذ يقع فى نحو ثمانين صفحة (من ص١٤٠ - إلى ص ٢١٩) وقد خصصه لرصد النشاط السكانى والمهنى لليهود ، ولاحظ الباحث أن أغلب اليهود كانوا يقومون بالأعمال الحرة والمهن الحرفية ، وقليل منهم كانوا يقبلون تولى الوظائف الإدارية الحكومية التى كان أغلبها حكرًا على الأتراك ، ورجال الدين ، وفقهاء المسلمين . وعلى رأس

المهن الحرة والحرفية التى أقبل عليها اليهود : مهنة الجزارة فطريقتهم فى : الذبح تناسب الشريعة الإسلامية تمامًا ، كما كان اليهود يبيعون اللحم فى محلاتهم المخصصة للجزارة ، وإلى جانب الجزارة عمل اليهود فى دبغ الجلود ، وصنع الأحذية وإصلاحها ، وفى صناعة « البرادع » وسروج الخيول ، كما احتكرت طائفة اليهود القرائين اليهود صناعة الحلى ، والاتجار فى المعادن الثمينة ، فكان فى القدس سوق يعرف باسم « سوق الصاغة » والذى كانت من أهم معالم القدس عام ١٥٨٠ ، ومن أسماء مشاهير الصاغة اليهود نسمع عن فلان المغربى ، وفلان الشامى ، وفلان الرومى ، وفلان المصرى ، مما ساعدنا على معرفة الأماكن التى جاء منها اليهود إلى القدس . ويلى سوق الصاغة ، سوق العطارين الجديد والقديم (الكارم) ، وكان أغلبه من اليهود الذين توارثوا هذه المهنة أباً عن جد ، وأغلبهم من طائفة اليهود الربانيين باستثناء تاجر كارم واحد من طائفة القرائين وهو « موردخاى القراء » . ولما كان بعض تجار العطارة اليهود يعملون فى مهن حرفية أخرى إلى جانب تجارة التوابل ، فنسمع عن العطار فلان الحداد ، والعطار فلان الجزار ، والعطار فلان الطبيب ؛ وإلى جانب العطارة ، برع اليهود فى التداوى بالأعشاب الطبية ، وعلاج بعض الأمراض عن طريق وصفات وتذاكر محدودة ، وإلى جانب العطارة تاجر اليهود فى النيلة (للصباغة) وصناعة وتجارة الصابون ، والفلفل ، والثوم ، والقرنفل ، والسكر ، وتجارة البن الذى كانوا يجلبونه من اليمن والحبشة عن طريق مصر ، كما عملوا فى صناعة النسيج ، وصناعة النبيذ ، وزراعة الكروم والزيتون وعصره وصناعة الجبن ، إلى جانب مهن أخرى كالطحانين والخبازين ، والسمسرة فى الأراضى .

وفى الفصل الثامن يلخص المؤلف ما توصل إليه وهو أن اليهود كانوا من الناحية النظرية أهل ذمة وتحت الحماية ، أى أنهم اجتماعيًا أدنى درجة من

المسلمين، إلا أنهم من الناحية العملية والتطبيقية مارسوا حياتهم بحرية وعلى قدم المساواة مع سائر سكان القدس . ويعترض الباحث على وصف السنيور فرانشيسكو سوريانو رئيس طائفة الفرانسيسكان الذى يتشفى فى حال اليهود المتدنى بأنه عقاب من الله على ما اقترفوه فى حق السيد المسيح ، ويردكوهين بقوله أن سوريانو كتب فى عصر المماليك وليس فى العصر العثمانى ، وأن حال اليهود لم يكن أقل من حال باقى السكان الذى تدهور فى هذه المرحلة من حكم المماليك تمامًا مثلما حاق بسكان القدس فى عصر حكم سنان باشا العثمانى ١٥٤٥ - ١٥٤٦ وذلك من واقع المنظالم والشكاوى التى رفعت إلى الباب العالى ، كما يظهر أسماء أعيان اليهود فى عريضة مرفوعة إلى الباب العالى من قبل كافة سكان القدس يرجون السلطان العثمانى أن يمد فترة حكم سليمان بك حاكم القدس وفلسطين لعدله ونزاهته وإستتباب الأمن على يديه ، وحرصه على رفاهية سكان القدس . ويذكر المؤلف أنه كثيراً ماالجأ اليهود إلى رفع الشكوى مباشرة إلى الباب العالى إذا حاق بهم ظلم ، أو إلى قاضى المحكمة الشرعية ، لأن سلطة القضاء كانت منفصلة عن السلطة الإدارية والعسكرية حيث كان القضاة يعينون مباشرة من قبل الباب العالى، وكثيراً ما أصدروا أحكامًا ضد الإدارة الحكومية لصالح اليهود . وكان اليهود يعيشون فى هناء تحت مظلة الشريعة الإسلامية التى كانت تحميهم باعتبارهم أهل ذمة ، ويرى المؤلف أن من واقع الوثائق كان اليهود يفضلون رفع قضاياهم عن طريق المحكمة الشرعية الإسلامية . مفضلين إياها على محكمة « الدايان » اليهودية . ويرى أن اليهود بالرغم من أنهم كانوا معزولين اجتماعيًا فى السجلات ، إلا أنهم كانوا غارقين فى تيار الحياة الاقتصادية فى القدس وفلسطين . فمثلاً الحرفيون اليهود كانوا أعضاء عاملين فى النقابات الحرفية تمامًا مثل زملائهم المسلمين والمسيحيين، بل يثبت أن بعض أعيان اليهود شغلوا مناصب رفيعة المستوى ، ولهذا يرد بحزم على مقولة أستاذه برنارد لويس بأن

اليهود « كانوا يعانون من القيود المالية والعزل الاجتماعى فى المجتمع الإسلامى » ويؤكد من واقع السجلات أن **اليهود كانوا منسجمين مع المسلمين العرب ، فهم يتكلمون لغة واحدة هى العربية ، ويسكنون بجوار بعضهم البعض ، بل أحيانا فى بيت واحد ، ويتزاورون مع بعضهم البعض ، كذلك كانوا يلبسون نفس الثياب مثل المسلمين ، ويتسمون بأسماء مشتركة مع المسلمين مثل : عبد الكريم ، عبد الله ، زكريا ، ويحيى ، ويوسف ، وسليمان ....إلخ .**

ويختم المؤلف كتابه بقوله : « **كانت حياة اليهود مستقلة ومستقرة فى القدس العثمانية تحت مظلة الشريعة الإسلامية بل منذ ظهور الإسلام ... وإذا كان اليهود منغلقين على أنفسهم ، إلا أنهم كانوا منفتحين على الحياة الاقتصادية والاجتماعية فى القدس العثمانية ، ولعبوا دوراً حيويًا ، صحيح أنهم كانوا أهل ذمة ونظريًا أقل درجة من المسلمين ، إلا أنهم حولوا هذه الصفة لتفادى أى توتر فى علاقاتهم مع المسلمين ، وحققوا عن طريقها الاستقرار والوئام مما ضمن لهم أن يعيشوا ويطوروا أنفسهم ويحققوا الرخاء والازدهار داخل المجتمع الإسلامى وتحت مظلة الإسلام وعدالة الشريعة الإسلامية** ».

شهادة مؤرخ يهودى معتدل نحن فى أشد الحاجة إليها فى وقت يتحكم فيه المتطرفون اليهود الأشكناز فى مصير القدس ، ويسومون العرب المسلمين والمسيحيين سوء العذاب ، ويشهد بعروبة القدس فى العصر الحديث ، وعدالة الشريعة الإسلامية التى لم تفرق بين سكان المدينة المقدسة أو تحابى أحدا على أحد .

كتاب مبسط وشيق نوصى بقراءته وترجمته إلى العربية .

أ. د. سيد أحمد على الناصرى

All Correspondence to be directed to :

Editor - in Chief : Prof. Hamid Zayyan

Cairo University, Faculty of Arts,

Orman, Giza, A. R. E

رقم الإيداع : ٨٨/٧١٣٧

الترقيم الدولى ٩ - ٠٢٦ - ٢٣٨ - ٩٧٧

CAIRO UNIVERSITY
FACULTY OF ARTS

THE EGYPTIAN HISTORIAN

STUDIES & RESEARCHES IN HISTORY & CIVILIZATION

A BIANNUAL PUBLICATION OF
THE DEPARTMENT OF HISTORY

Volume 20 (July 1998)

CAIRO UNIVERSITY
FACULTY OF ARTS



THE EGYPTIAN HISTORIAN

STUDIES & RESEARCHES IN HISTORY & CIVILIZATION

A BIANNUAL PUBLICATION OF
THE DEPARTMENT OF HISTORY

Volume 20 (July 1998)

المؤرخ المصرى

دراسات وبحوث فى التاريخ والحضارة

جامعة القاهرة

يصدرها قسم التاريخ
كلية الآداب - جامعة القاهرة
العدد العشرون يوليو ١٩٩٨

محتوى العـــدد